الرواية الفائزة بجائزة البوكر البريطانية

بقايا النهار

كازو إيشيغورو

ترجمة: عطا عبد الوهاب

الفائز بجائزة
نوبل
للآداب

مكتبة النخبة

بقايا النهار

كازو إيشيغورو

ترجمة: عطا عبد الوهاب

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

The Remains of the Day
First published in 1989 by Faber and Faber Limited.
Text Copyright © Kazuo Ishiguro, 1989
Kazuo Ishiguro photo © Jeff Cottenden

Cover photo: Yolanda Cooijn / Shutterstock.com

حقوق الترجمة © طه عبد الوهاب ٢٠١٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة.
لا يجوز استخدام أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول
على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد
في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٢٩٣٠٠٩

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة-أثناء-النشر (فان)

إيشيغورو، كازو، 1954- مؤلف.

[Remains of the day]. Arabic

بقايا النهار / كازو إيشيغورو ؛ ترجمة طه عبد الوهاب. الطبعة العربية الأولى.

الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، 2018.

صفحة ؛ سم

تدمك: 9789927129300

عنوان: Remains of the day.

1. الخدم -- إنجلترا -- قصص. 2. النبلاء -- قصص. 3. ... -- قصص. أ. عبد الوهاب، طه، مترجم. ب. العنوان.

PR6059.S5 R4612 2018

823.914--dc23

201826145534

استهلال: تموز ١٩٥٦

قصر دارلنغتون

يبدو أن من المحتمل جدًّا أنني سأقوم بالرحلة الاستكشافية التي تشغل بالي منذ بضعة أيام. إنها رحلة سأقوم بها لوحدي مستمتعًا بالراحة التي توفرها سيارة الفورد العائدة إلى السيد فاراداي؛ رحلة ستأخذني على ما أتوقع إلى غربي البلاد مرورًا بأجمل المناطق الريفية في إنجلترا، وقد تجعلني أتغيَّب عن قصر دارلنغتون مدة خمسة أيام أو ربما ستة أيام. ولا بد لي أن أقول إن فكرة هذه السفرة قد جاءت من السيد فاراداي نفسه حين تفضَّل فاقترحها عليَّ عصر أحد الأيام قبل أسبوعين، وكنت أقوم آنئذ بإزالة الغبار عن رسوم الأشخاص الزيتية في غرفة المكتبة. كنت على ما أتذكر أقف على أعلى السلم لتنظيف لوحة الفيكونت وثربي حين دخل مخدومي حاملًا عددًا من المجلدات كان يريد فيما يُفترض إعادتها إلى الرفوف. وما إن رأى شخصي حتى انتهز الفرصة لإخباري بأنه كان قد انتهى لتوه من إعداد خطة للعودة إلى الولايات المتحدة والبقاء فيها مدة خمسة أسابيع ما بين شهري آب وأيلول. وما إن أعلن ذلك حتى وضع المجلدات التي كان يحملها على منضدة وجلس على أريكة ومد ساقيه. وعند ذلك قال لي وهو يرفع نظره نحوي:

«أنت تعلم يا ستيفنز أنني لا أطمح بأن تحجز نفسك هنا في هذا البيت طوال فترة غيابي. فما قولك بأن تأخذ السيارة وتذهب بها إلى مكان ما لبضعة أيام؟ يبدو عليك أنك ستنتفع من الانقطاع عن العمل بعض الوقت».

لم أعرف كيف أجيب عن مثل هذا الاقتراح وقد جاءني فجأة من دون تمهيد. وأتذكر أنني شكرت مخدومي على رعايته، ولكن من الجائز جدًّا أنني لم أقل شيئًا محددًا في جوابي لأن الرجل استمر يقول:

«أنا جاد باقتراحي يا ستيفنز. وأرى أن عليك أن تتمتع بإجازة. وسأقوم بدفع قائمة الوقود، أنتم في هذه المهنة محجوزون على الدوام في هذه البيوت الكبيرة للقيام بالخدمة، فكيف يتسنى لكم رؤية بلادكم الجميلة هذه؟».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يثير فيها مخدومي مثل هذه المسألة؛ بل يبدو أنها كانت تقلقه قلقًا صادقًا. والواقع أن جوابًا من نوع ما قد خطر لي في هذه المناسبة وأنا أقف على أعلى السلم؛ جوابًا خلاصته أننا نحن الذين نمتهن هذه المهنة، وإن كنَّا لم نرَ الشيء الكثير من البلاد بمعنى السياحة في الريف وزيارة المواقع التي تتصف بجمال الطبيعة، فإننا قد «رأينا» فعلًا من إنجلترا أكثر مما رأى كثير غيرنا، وذلك بحكم وجودنا في بيوتات يلتقي فيها أكابر القوم

في البلاد من أعاظم السادة والسيدات. وبالطبع لم يكن بوسعي أن أعبِّر عن هذا الرأي إلى السيد فاراداي دون أن ألقي عليه خطابًا يكون في أغلب الظن متحذلقًا. لذلك اكتفيت بأن أقول ببساطة:

«كان من حسن الطالع، يا سيدي، أن أرى أفضل ما في إنجلترا على مدى السنين وأنا بين هذه الجدران ذاتها».

لم يظهر على السيد فاراداي أنه فهم قولي هذا، لأنه اكتفى بمواصلة الكلام قائلًا: «أنا أعني ما اقترحته يا ستيفنز، فمن الخطأ ألا يتسنى للمرء أن يرى بلاده. اعمل بنصيحتي، واخرج من البيت لبضعة أيام».

وكما هو متوقع لم آخذ أنا اقتراح السيد فاراداي مأخذًا جديًّا قَطُّ بعد ظهر ذلك اليوم، فقد حسبته محض مثل آخر على عدم اطلاع سيد أمريكي على ما يجري العمل به عمومًا في إنجلترا. أمَّا أن موقفي من هذا الاقتراح نفسه كان قد تغير خلال الأيام التالية - لا بل إن فكرة القيام برحلة إلى غربي البلاد قد سيطرت على تفكيري بشكل متزايد - فإنما يعود بلا ريب أساسًا - وما الداعي لإخفاء السبب؟ - إلى وصول رسالة الآنسة كنتون، وهي الرسالة الأولى منها في نحو سبع سنين إذا أسقطنا حساب بطاقات التهنئة بأعياد ميلاد السيد المسيح. ولكن دعني أوضح فورًا ما أعنيه بهذا؛ فالذي أعنيه هو أن رسالة الآنسة كنتون قد أطلقت العنان لسلسلة معيَّنة من الأفكار تتصل بالأمور المهنية هنا في قصر دارلنغتون، وينبغي لي أن أشدد أن انشغال بالي بهذه الأمور المهنية نفسها هو الذي أدى بي إلى النظر مجددًا في الاقتراح الكريم الذي قدمه مخدومي. ولكن دعني أقدِّم مزيدًا من الإيضاح.

الحقيقة هي أنني كنت، خلال الأشهر القليلة الماضية، مسؤولًا عن سلسلة من الأخطاء الصغيرة في أدائي لواجباتي. وعليَّ أن أقول إن هذه الأخطاء كانت كلها بدون استثناء أخطاء تافهة جدًّا بذاتها. مع هذا فأظنك ستفهم أن هذا التطور، بالنسبة لمن لم يتعود على ارتكاب أخطاء كهذه، كان شيئًا مثيرًا للقلق، والحق أنني بدأت فعلًا أميل إلى التفكير بأنواع شتى من النظريات المفزعة فيما يتعلق بسبب الأخطاء. وكما يحدث في غالب الأحيان عند وقوع هذه الحالات وجدتني وقد عشيت بصيرتي عن الأمر الواضح - وهذا إلى أن تفكرت بما تنطوي عليه رسالة الآنسة كنتون ففتحت عينيَّ في النهاية على الحقيقة البسيطة؛ ألا وهي أن هذه الأخطاء الصغيرة خلال الأشهر الأخيرة ليست سوى نتيجة لخلل في الخطة الموضوعة لعمل المستخدمين في الدار.

إن المسؤولية، بالطبع، هي مسؤولية رئيس الخدم الذي يجب أن يُعنى أشد العناية بوضع خطة عمل المستخدمين. ومن يدري كم من المشاحنات، ومن الاتهامات الزائفة، ومن الطرد غير الضروري من الخدمة، وكم من مستقبل يبشر بالخير قد أوقف عند حد، وكل ذلك مما يمكن أن يُعزى إلى إهمال رئيس الخدم في مرحلة إعداده لخطة العمل؟ والحق أن بوسعي أن أقول إنني أتفق مع الذين يقولون إن القدرة على وضع خطة عمل جيدة للمستخدمين هي

حجر الزاوية في مهارات رئيس الخدم المحترم. لقد ابتدعت أنا شخصيًّا عددًا من خطط العمل على مدى السنين، ولا أظن أنني سأكون متبجحًا بشكل لا لزوم له إذا قلت إن عددًا قليلًا جدًّا من خططي كان قد اقتضى التعديل على الإطلاق. ولئن كانت خطة العمل في الحالة الحاضرة خطة معيبة فلا يقع اللوم في ذلك إلا على عاتقي. وفي الوقت عينه فإن من الإنصاف أن أشير إلى أن مهمتي في هذا الوضع الذي نحن فيه كانت من طراز صعب بشكل غير اعتيادي.

والذي حدث هو ما يلي. فما إن تمت الصفقات - وهي التي أخرجت هذا البيت من أيدي أسرة دارلنغتون بعد قرنين من الزمان - حتى أعلمنا السيد فاراداي بأنه لن يأتي للإقامة هنا مباشرة، بل سيقضي أربعة أشهر أخرى في الولايات المتحدة لتسوية أموره هناك. بيد أنه كان في هذه الأثناء حريصًا كل الحرص على الاحتفاظ بمستخدمي سلفه - وقد سمع عنهم ثناءً عطرًا - والإبقاء عليهم في قصر دارلنغتون. كان هؤلاء المستخدمون الذين يشير إليهم ليسوا أكثر من زمرة صغيرة من ستة أفراد استخدمهم أقارب اللورد دارلنغتون لإدارة شؤون البيت لحين الانتهاء من عقد الصفقات؛ ويؤسفني أن أقول إنه ما إن تم البيع حتى لم يعد بوسعي أن أصنع شيئًا لصالح السيد فاراداي. فلم أستطع أن أمنع المستخدمين من ترك العمل والانتقال إلى الخدمة في مكان آخر، وقد تركوا جميعًا عدا السيدة كليمنتز. وحين كتبت إلى مخدومي الجديد معبرًا عن أسفي على واقع الحال تسلمت جوابه من أمريكا متضمنًا تعليماته بأن أعين مستخدمين جددًا «يليقون ببيت إنجليزي عريق وعظيم». باشرت، من فوري، وأنا أحاول تحقيق رغبات السيد فاراداي، ولكن إيجاد مستخدمين جدد بمستوى مرضٍ ليس بالمهمة السهلة في هذه الأيام كما هو معلوم، ومع أنني سررت باستخدام كلٍّ من روزماري وأغنِز بناء على توصية السيدة كليمنتز، ولكنني لم أوفق بأكثر من هذا عند حلول وقت اجتماع العمل الأول بيني وبين السيد فاراداي خلال زيارته التمهيدية القصيرة التي قام بها إلى سواحلنا في ربيع العام الماضي. وإنه لفي تلك المناسبة - في غرفة المكتبة العارية بشكل غريب في قصر دارلنغتون - أن قام السيد فاراداي بمصافحتي للمرة الأولى، ولكننا آنئذٍ لم نعد من الغرباء بعضنا عن بعض؛ إن مخدومي الجديد قد سنحت له الفرصة في مناسبات عديدة أخرى إلى جانب مسألة المستخدمين أن ينتبه إلى صفات حميدة ربما يكون حسن الطالع قد حباني بها، بل أبادر إلى القول إنه قد وجدها صفات يُعوَّل عليها. لهذا فإنه شعر، فيما أفترض، بأنه قادر على الفور على أن يكلمني بطريقة عملية وواثقة، حتى إنه عند انتهاء اجتماعنا ترك بعهدتي مبلغًا غير قليل من المال لتلافي الكلف المختلفة لاستعدادات واسعة النطاق تمهيدًا لإقامته المقبلة. والذي أريد أن أقوله على أية حال إن الذي جرى خلال هذه المقابلة، عندما أشرت إلى مسألة الصعوبة في استخدام مستخدِمين لائقين في هذه الأيام، هو أن السيد فاراداي تفكر قليلًا ثم طلب

إليَّ أن أبذل قصارى جهدي لوضع خطة عمل للمستخدمين، أن أضع «نوعًا من قائمة بالأعمال الدورية للخدم» - كما قال - يمكن بواسطتها إدارة هذا البيت بالمستخدمين الأربعة الحاليين، أي السيدة كليمنتز والفتاتين وأنا. قال إنه يدرك أن هذا التدبير قد يعني وضع أقسام من البيت «تحت الأغطية»، ولكنه ناشدني أن أعبئ كل ما لديَّ من تجربة وخبرة لضمان التقليل من مثل هذه الخسائر إلى الحد الأدنى. فتذكرت زمنًا كان فيه تحت إمرتي سبعة عشر مستخدمًا، كما تذكرت أن هذا العدد كان يبلغ ثمانية وعشرين في وقت ليس ببعيد، وكلهم من المستخدمين في قصر دارلنغتون، وشعرت أن أقل ما يقال بفكرة وضع خطة عمل لإدارة هذا البيت نفسه بواسطة أربعة مستخدمين فقط إنها فكرة مثبطة للعزائم. ومع أنني حاولت أن أخفي شكوكي عن السيد فاراداي ولكن شيئًا منها قد افتضح، مما حدا به أن يضيف، في محاولة منه لتطميني، قائلًا إن من الممكن إذا دعت الضرورة أن أستخدم شخصًا إضافيًّا، ولكنه كرر قوله بأنه سيكون ممتنًّا إذا استطعت «أن أحاول تجربة الخطة بأربعة فقط».

ومن الطبيعي أنني شعرت، شأني شأن الكثير من رؤساء الخدم، بتردد في تغيير الكثير من الطرق القديمة. ولكن ليس هناك من نفع أبدًا في التمسك بالتقاليد لمحض التمسك بها كما يفعل البعض. ففي هذا العصر، عصر الكهرباء وأساليب التدفئة الحديثة، لا حاجة على الإطلاق لاستخدام تلك الأعداد من المستخدمين التي كانت ضرورية حتى قبل جيل واحد. بل إني أرى منذ بعض الوقت أن الإبقاء على عدد غير ضروري لمجرد التمسك بالتقاليد - مما يؤدي إلى فراغ ضارٍ في وقت المستخدمين - كان عاملًا مهمًّا في التردي الشديد في المستويات المهنية. يضاف إلى هذا أن السيد فاراداي قد أوضح أنه لا ينوي إلا نادرًا جدًّا إقامة ذلك النمط من المناسبات الاجتماعية الكبيرة التي كان يشهدها قصر دارلنغتون بشكل متكرر في الماضي. لذا فقد باشرت بالمهمة التي عهدها السيد فاراداي إليَّ مكرسًا لها جهودي بإخلاص؛ لقد أمضيت عددًا من ساعات العمل في وضع الخطة لعمل المستخدمين، كما أمضيت عددًا مماثلًا من الساعات في الأقل وأنا أفكر بالخطة في أثناء قيامي بواجباتي الأخرى أو عندما أستلقي على سريري مستيقظًا بعد أن آوي إلى غرفتي، وكلما كنت أتوصل إلى شيء ما أقوم بتدقيقه بحثًا عن الهنات من كافة الأنواع، وأتولى اختباره من كافة الزوايا. وأخيرًا توصلت إلى خطة وإن لم تكن كما طلب السيد فاراداي بالضبط ولكنها بالتأكيد أفضل ما يمكن للإنسان أن يبتدعه. إن أغلب أقسام البيت الجذَّاب يمكن أن تظل قيد الاستعمال، أما محلات سكن الخدم الواسعة الكثيرة - بما في ذلك الرواق الخلفي وغرفتا التقطير والمكوى القديم - ورواق الضيوف في الطابق الثاني، فتُغلق وتُغطى محتوياتها منعًا لتراكم الغبار، وبذلك تبقى مفتوحة الغرف الرئيسة في الطابق الأرضي مع عِدد غير قليل من غرف الضيوف. ومن المعلوم أن فريقنا الحالي

المؤلف من أربعة أفراد فقط لن يتمكن من تنفيذ هذا البرنامج إلا بتعزيزه بعدد من العمال اليوميين. لذلك فإن خطتي أدخلت فيما أدخلت خدمات بستاني واحد على أن يحضر مرة واحدة في الأسبوع إلا في الصيف إذ يحضر مرتين، وخدمات اثنين من عمال التنظيف يحضران مرتين في الأسبوع. وتعني الخطة فيما تعنيه تغييرًا جذريًّا في الواجبات المعتادة لكل منا نحن المستخدمين الأربعة المقيمين في الدار. وقد توقعت ألا تجد الفتاتان صعوبة في الانسجام مع التغييرات. ولكنني بذلت كل ما أستطيعه لكيلا ينال عمل السيدة كليمنتز إلا أقل قدر من التعديل، إلى درجة أخذت فيها على عاتقي شخصيًّا عددًا من الواجبات التي لا يقوم بها، كما أظنك تتفق معي، إلا رئيس خدم متفتح التفكير جدًّا.

إني حتى في الوقت الحاضر لن أذهب إلى حد القول بأنها خطة عمل رديئة؛ إنها على أية حال تمكن أربعة مستخدمين من القيام بأعمال غير قليلة بصورة ليست بالحسبان. ولكنك ستتفق معي بلا ريب في أن أفضل خطط العمل طُرًّا هي تلك التي تترك هامشًا واضحًا للخطأ لتدارك الأيام التي يكون فيها المستخدم مريضًا أو دون مستوى عمله المعتاد لسبب أو لآخر. إني قد عهدت إليَّ بالطبع، في هذه الحالة الخاصة، مهمة استثنائية بعض الشيء، ولكني مع ذلك لم أغفل عن أن أحسب «للهوامش» حسابها كلما كان ذلك ممكنًا. وقد كنت أدرك على الأخص أن أية مقاومة تبديها السيدة كليمنتز، أو الفتاتان، لتولي واجبات خارج نطاق عملهن المعهود إنما ستكون مقاومة متفاقمة من جراء شعورهن بأن عملهن قد ازداد كثيرًا. لذلك فقد أعملت فكري كثيرًا، خلال تلك الأيام التي قلبت فيها وجوه الخطة من شتى النواحي، لكي أضمن جانب السيدة كليمنتز والفتاتين، إذ ما إن يتغلبن على مقتهن لتولي هذه الأعمال «الانتقائية» جدًّا حتى يجدن أن تقسيم الواجبات هو أمر محفز للنشاط ولا ينطوي على عبء ثقيل.

بيد أنني أخشى، وأنا في غمرة قلقي لكسب تأييد السيدة كليمنتز والفتاتين، ألا أكون قد قومت حدود طاقتي على العمل بالتشدد نفسه الذي قومت فيه حدود طاقتهن؛ ومع أن تجربتي وحذري المعتاد في مثل هذه الأمور كانا يحولان بيني وبين أن أعهد إلى نفسي أكثر مما أستطيع القيام به فعلًا، ولكني ربما كنت مهملًا في أمر إتاحة هامش للخطأ لنفسي. فليس من المستغرب إذن أن يظهر أثر هذا الإغفال على مدى شهور متعددة بأشكال بسيطة ولكنها ذات مغزى. وفي النهاية فأنا أعتقد أن المسألة ليست أكثر تعقيدًا مما يلي: لقد عهدت إلى نفسي من الأعمال بأكثر مما ينبغي.

لعلك تُدهش إذا علمت أن مثل هذا العيب البسيط الواضح في خطة عمل المستخدمين قد غاب من ملاحظتي باستمرار، ولكني أظنك ستتفق معي بأن هذا في الغالب الأعم هو الحال بالنسبة للأمور التي يوليها المرء تفكيره الدائم؛ فالمرء لا تظهر له الحقيقة حتى يقودهِ إليها عرضًا حدث ما خارجي. وهذا ما

حدث في الوضع الذي أتحدث عنه؛ وأعني تسلمي رسالة الآنسة كنتون بما تضمنته من مقاطع طويلة لا تكشف عن شيء وما احتوته من حنين بيِّن لقصر دارلنغتون، ومن تلميحات بارزة - وأنا واثق من هذا - تشير إلى رغبتها في العودة إلى هنا. كل هذا جدا بي إلى أن أنظر إلى خطتي نظرة جديدة. لم أنتبه إلا آنئذٍ إلى أن هناك حقًّا دورًا يمكن أن يقوم به بشكل جوهري فرد آخر إضافي هنا في القصر؛ وإلى أن هذا النقص هو، في واقع الأمر، في صلب مشاكلي الحالية. وكلما محصت الأمر ازداد لي وضوحًا بأن الآنسة كنتون، بحبها العظيم لهذا البيت وما تتمتع به من روح احترافية يُقتدى بها - من نمط يكاد يستحيل العثور عليه في هذه الأيام - هي بالذات ما أحتاج إليه لكي أتمكن من إتمام وضع خطة عمل مرضية كليًّا لقصر دارلنغتون.

وما إن حللت المسألة على هذا الوجه حتى أعدت النظر بالاقتراح الكريم الذي قدمه لي السيد فاراداي قبل بضعة أيام. فقد خطر لي أن من الممكن استخدام السفرة المقترحة بالسيارة لأغراض مهنية جيدة؛ بمعنى أن بوسعي أن أقود السيارة إلى غرب البلاد، وأزور في طريقي الآنسة كنتون، وبذلك أتحقق بنفسي من فحوى رغبتها بالعودة إلى العمل في قصر دارلنغتون. ولا بد لي أن أوضح أنني أعدت قراءة رسالة الآنسة كنتون هذه مرارًا، وليس هناك ما يدعوني إلى الظن بأنني أتخيل محض التخيل وجود تلك التلميحات في الرسالة.

مع كل هذا لم أستطع بضعة أيام أن أقنع نفسي بإثارة المسألة مرة أخرى مع السيد فاراداي. فعلى أية حال ثمة جوانب أخرى للأمر كان عليَّ أن أوضحها لنفسي قبل المضي قدمًا، مثلًا قضية الكلفة. إذ حتى مع الأخذ بعين الاعتبار العرض الكريم الذي قدمه مخدومي بدفع قائمة الوقود، فإن تكاليف سفرة كهذه قد تصل إلى مبلغ مذهل إذا حسبنا نفقات الإقامة ووجبات الطعام بما في ذلك المأكولات البسيطة التي قد أتناولها في الطريق. ثم هناك مسألة نوع الملابس الملائمة لمثل هذه الرحلة، وهل أن من المناسب لي أن أستثمر نقودي في شراء ملابس جديدة؟ إن بحوزتي عددًا من «البدلات» الممتازة كان قد خلعها عليَّ متفضلًا خلال السنين اللورد دارلنغتون نفسه، وغيره من الضيوف الذين أقاموا في هذا البيت فوجدوا مستوى الخدمة هنا شيئًا يسرهم. ربما كان عدد من هذه «البدلات» رسمي الطابع جدًّا بالنسبة لأغراض السفرة المقترحة، أو أنها عتيقة الطراز نوعًا ما في هذه الأيام. إنما عندي «بدلة صالون» كان قد خلعها عليَّ السير إدوارد بلير في ١٩٣١ أو ١٩٣٢ - وكانت تكاد تكون جديدة تمامًا حين أعطاها لي ووفق مقاسي تمامًا - وقد تكون مناسبة للأمسيات عند الجلوس في ردهات الاستقبال أو قاعات الطعام في دور الضيافة التي قد أقيم فيها. أما الذي ليس بحوزتي فملابس السفر المناسبة - أي الملابس التي يشاهدني الناس بها وأنا أقود السيارة - إلا إذا رفلت بالحلة التي خلعها عليَّ اللورد الشاب تشالمرز خلال الحرب، وهي على الرغم من

صغر حجمها بالنسبة لي فقد تعتبر مثالية من ناحية اللون والطابع. أخيرًا توصلت في حساباتي إلى أن ما لديَّ من توفير سيكفي تلافي كل النفقات التي قد أتكبدها، إضافة إلى أنني قد أتوسع فأشتري حلة جديدة. آمل ألا تحسب أن الغرور يركبني بلا لزوم بالنسبة لهذا الأمر الأخير؛ فالمسألة هي أن المرء لا يعرف قَطُّ متى يترتب عليه أن يكشف عن نفسه بصفته من قصر دارلنغتون، ثم إن من المهم أن يكون المرء قد اكتسى في مثل هذه المناسبة بطريقة تليق بمركزه.

لقد قضيت خلال هذه الفترة كذلك عددًا من الدقائق وأنا أمحص أطلس الطرقات، وأتابع أيضًا المجلدات ذات العلاقة من تأليف السيدة جين سايمونز بعنوان «أعجوبة إنجلترا». فإن لم تكن قد اطلعت على كتب السيدة سايمونز - وهي سلسلة تبلغ سبعة مجلدات، كل مجلد منها يركز على منطقة من مناطق الجزر البريطانية - فأنا أوصيك بقراءتها من الصميم. لقد كُتبت خلال الثلاثينات، ولكن كثيرًا مما فيها لا يزال يعتبر حديث العهد - ولا أظن على أية حال أن القنابل الألمانية قد غيرت كثيرًا من معالمنا الريفية. كانت السيدة سايمونز، في واقع الأمر، زائرة مترددة على هذا البيت قبل الحرب؛ بل إنها كانت ذات شعبية كبيرة في أوساط مستخدمي القصر لما كانت تبديه من تقدير كريم لم تحجم قَطُّ عن إظهاره. إنني لفي تلك الأيام، إذن، وبدافع إعجابي الطبيعي بالسيدة، قد بدأت أنصرف إلى متابعة مجلداتها في المكتبة كلما سنحت لي هنيهة من الفراغ. بل أتذكر أنني كنت، بعد فترة قصيرة من رحيل الآنسة كنتون إلى كورنوول في ١٩٣٦، وهي منطقة لم أكن قد زرتها من قبل قَطُّ، كنت أتصفح المجلد الثالث من مؤلف السيدة سايمونز، وهو الذي يصف للقراء محاسن الطبيعة ومباهجها في ديفون وكورنوول مع التصاوير، وكذلك مع أنواع شتى من رسوم تلك المنطقة بريشة الرسامين، وهذه بنظري أكثر إثارة من تلك. إنني بهذه الواسطة بالذات قد تمكنت من اكتساب شيء من الحس بنمط المكان الذي ذهبت إليه الآنسة كنتون لتقضي فيه حياتها الزوجية. لكن هذا كان كما قلت في الثلاثينات حين كانت كتب السيدة سايمونز على ما أعلم مثار الإعجاب في بيوتات تنتشر من أقصى البلاد إلى أقصاها. لم أمد يدي إلى تلك المجلدات منذ عدد من السنين حتى حفزتني التطورات الأخيرة إلى أن أتناول من الرف المجلد المكرَّس لديفون وكورنوول مرة أخرى. درست من جديد تلك الأوصاف البديعة والرسوم الرائعة، ولعلك ستفهم لهفتي المتزايدة وأنا أتخيَّل قيامي فعليًّا في الوقت الحاضر بسفرة بالسيارة في أرجاء ذلك القسم نفسه من البلاد.

بدا لي في النهاية ألا مندوحة من إثارة المسألة مرة أخرى مع السيد فاراداي. كان هناك دائمًا، بالطبع، احتمال بأن اقتراحه الذي عرضه قبل أسبوعين إنما هو من بنات الساعة، وأن الرجل لم يعد يستحسن الفكرة. ولكن مراقبتي للسيد فاراداي خلال هذه الأشهر دلَّت على أنه ليس من أولئك

الذوات المجبولين على أشد ما في المخدومين إزعاجًا - التقلب. وليس هناك من سبب يدعو للاعتقاد بألا يكون على حماسه السابق بشأن سفرتي المقترحة بالسيارة، لا بل ولا ما يدعو للاعتقاد بألا يكرر عرضه الكريم جدًّا بدفع قائمة الوقود. مع هذا نظرت بعناية فائقة في اختيار أنسب الأوقات لفتح الموضوع معه؛ إذ مع أني لا أشك مطلقًا، كما قلت، بأن السيد فاراداي لا يتصف بالتقلب فإن من الفطنة برغم هذا ألا أثير المسألة معه حين يكون باله مشغولًا أو مزاجه معتكرًا، فالرفض في مثل هذه الأحوال قد لا يعكس مشاعر مخدومي الحقيقية حول الموضوع، ولكن ما إن يقع مثل هذا الرفض حتى يصبح من غير السهل عليَّ تجديد الكلام في الاقتراح مرة أخرى. كان من الواضح إذن، أن عليَّ أن أختار اللحظة المناسبة لي بحكمة.

أخيرًا قررت أن أكثر الأوقات حصافة هي عند تقديمي شاي العصر في حجرة الجلوس. سيكون السيد فاراداي كما هو دأبه قد عاد توًّا من مشيته القصيرة في السفوح المعشبة، لذا لا يكون منهمكًا إلا فيما ندر في قراءته أو كتابته كما هو شأنه في الأمسيات. والواقع أن السيد فاراداي ينحو، عندما آتيه بشاي العصر، إلى إغلاق أي كتاب أو صحيفة يقرؤها ويقوم فيمد ذراعيه أمام النافذة وكأنه ينتظر مطارحة حديث معي.

أظن أن تقديري كان موفقًا فيما يتعلق بالتوقيت؛ أما وأن الأمور قد أخذت وجهة أخرى فذلك لا يُعزى إلا إلى سوء التقدير في جانب آخر لا علاقة له بالتوقيت. والذي أعنيه هو أنني لم أحسب حسابًا كافيًا لما يكون عليه حال السيد فاراداي في ذلك الوقت من النهار، فالذي يستمتع به آنئذٍ لا يعدو محادثة فكهة، خفيفة الظل. ولمعرفتي بأن هذه هي نزعة الرجل، ولإدراكي بأن ميله العام هو نحو الكلام معي بلهجة مازحة في مثل تلك اللحظات، فقد كان الأحرى بي بالتأكيد حين قدمت له شاي العصر بالأمس ألا آتي على ذكر الآنسة كنتون على الإطلاق. ولكنك ربما ستتفق معي بأني أنزع بالسليقة، حين أطلب من مخدومي فضلًا كريمًا، إلى التلميح بوجود دافع مهني حسن وراء طلبي. وهكذا فبإشارتي إلى الأسباب التي تدعوني إلى تفضيل غربي البلاد طريقًا لقيادة السيارة، عوضًا عن الاقتصار على التنويه بالتفاصيل المغرية المتعددة كما يوردها مجلد السيدة سايمونز، ارتكبت الخطأ المتمثل بالإعلان عن أن مدبرة المنزل التي كانت تعمل سابقًا في قصر دارلنغتون هي الآن مقيمة في تلك المنطقة. وأحسب أنني لا بد كنت أنوي أن أوضح للسيد فاراداي كيف سأتمكن عن طريق السفرة من استكشاف خيار قد يمثل حلًّا مثاليًّا لمشاكلنا الصغيرة الحالية هنا في هذا البيت. على أني ما إن ذكرت الآنسة كنتون حتى أدركت بغتة أن من غير المناسب لي كليًّا أن أواصل الكلام. لم أكن غير قادر على تأكيد رغبة الآنسة كنتون في العودة إلى الانضمام إلى رهط المستخدمين هذا فحسب، بل إني لم أكن بالطبع قد بحثت مع السيد فاراداي حتى مسألة المستخدمين الإضافيين منذ لقائنا التمهيدي الأول منذ عام مضى. ولو أنني

واصلت التعبير عن أفكاري بشأن مستقبل قصر دارلنغتون لكان أقل ما يقال في ذلك أنه وقاحة مني. لذا أظن أنني قد توقفت عن الكلام بغتة وبدا عليَّ شيء من الارتباك. وعلى أية حال، انتهز السيد فاراداي الفرصة وابتسم ملء شدقيه وقال لي بشيء من التروي العامد:

«ويحك يا ستيفنز. لك صديقة وأنت بهذا العمر؟».

أحرجني كلامه كل الحرج، وهذا حال ما كان اللورد دارلنغتون ليضع فيه قَطُّ مستخدمًا من مستخدميه. على أني لا أعني بهذا النيل من السيد فاراداي بأي شكل من الأشكال؛ فالرجل على أية حال هو من الذوات الأمريكيين وطريقته في الغالب مختلفة جدًّا، ولا مراء أنه لم ينوِ الإساءة؛ ولكنك ستقدر بلا ريب الحال التعيس الذي كنت فيه.

مضى السيد فاراداي قائلًا: «ما كنت أحسبك زير نساء يا ستيفنز. أظن أن هذا يُبقي على روح الفتوة فيك، على أني لا أدري إن كان من الصواب أن أساعدك على مثل هذه اللقاءات الغرامية المريبة غير الشرعية».

شعرت بالطبع برغبة مغرية بأن أدحض فورًا دحضًا قاطعًا مثل هذه الدوافع التي يلصقها مخدومي بي، ولكني أدركت في الحال أنني أكون بهذا قد تلقفت طُعم الصيد الذي رماه الرجل، فلا يزداد الحال إلا حرجًا. لذلك واصلت وقوفي هناك مرتبكًا وأنا أنتظر أن يفوه مخدومي بالموافقة على قيامي بسفرة السيارة.

وعلى ما في تلك اللحظات من حرج لي فإني لا أرغب في أن يفسر كلامي على أني أوجه لومًا من أي شكل كان إلى السيد فاراداي، فهو ليس ذلك الشخص الفظ بأي معنى من المعاني؛ أنا على ثقة أنه لم يكن يبغي سوى الاستمتاع بنوع من المزاح هو في الولايات المتحدة بلا ريب علامة على تفاهم ودي طيب بين المستخدِم والمستخدَم يُمارَس كنوع من الرياضة المستحبة، بل إن عليَّ أن أشير، لوضع الأمور في نصابها الصحيح، إلى أن مثل هذا المزاح من جانب مستخدمي الجديد قد طبع بطابعه كثيرًا من علاقاتنا خلال هذه الشهور، ولو أنني يجب أن أقر بأني بقيت غير واثق نوعًا ما من الكيفية التي ينبغي لي أن أستجيب بها. لا بل حدث خلال أيامي الأولى في خدمة السيد فاراداي أن ذهلت مرة أو مرتين من بعض ما كان يقوله لي. مثلًا صادف أن سألته ذات يوم: هل يحتمل أن يستصحب الذات الأمريكي المتوقع مجيئه إلى القصر زوجته معه؟

أجابني السيد فاراداي قائلًا: «كان الله في عوننا إذا جاءت فعلًا. لعلك يا ستيفنز تستطيع إشغالها بعيدًا عنا. لعلك تستطيع أخذها إلى أحد تلك الإسطبلات في مزرعة السيد مورغان. آنسها هناك على التبن. لعلها من نمطك تمامًا».

لم أفهم ما الذي كان يقوله مخدومي، ثم أدركت أنه كان يطلق نوعًا من فكاهة، فحاولت أن أبتسم بما يناسب المقام، مع أني أخشى أن شيئًا من

رواسب حيرتي، هذا إن لم أقل صدمتي، ظل باديًا على ملامحي.
بيد أنني تعلمت في الأيام التالية ألا أستغرب من ملاحظات كهذه تصدر عن مخدومي فأبتسم بالطريقة الصحيحة كلما أوجست نبرة المزاح في صوته. مع هذا لم أستطع قَطُّ أن أتأكد بالضبط ما المطلوب مني في هذه المناسبات. ربما ينتظر مني أن أضحك من الصميم أو أقابل الملاحظة بمثلها. هذا الاحتمال الأخير أقلقني في تلك الأشهر، وهو شيء لا أزال أشعر بالتردد بشأنه. فلعل هذا يعتبر في أمريكا جزءًا لا يتجزأ من الخدمات المهنية الطيبة بحيث يقدم المستخدم مزاحًا مسليًا. والواقع أني أتذكر ما قاله ذات يوم السيد سمسون، صاحب حانة «بلاومانز آرمز» من أنه لو كان ساقيًا أمريكيًّا لما تجاذب معنا أطراف الحديث بطريقته تلك الودية والمهذبة دائمًا، بل لسلقنا بلسان حاد، ولأشار إشارات فظة إلى رذائلنا ونواقصنا فدعانا بالسكارى وبغير ذلك من مثل هذه النعوت، في محاولة منه لإرضاء زبائنه بالشكل الذي يتوقعونه منه. وأتذكر أيضًا ما قاله السيد راين قبل بضع سنين، وكان قد سافر إلى أمريكا بصفته الخادم الخاص للسير ريجينالد موفيس، من أن سائقًا لسيارة أجرة في نيويورك كان يخاطب ركابه باستمرار بطريقة لو أنها تكررت في لندن لانتهت إلى نوع من شجار، إن لم نقل إلى سوق الرجل سوقًا إلى أقرب مركز للشرطة.
من المحتمل جدًّا، إذن، أن مخدومي يتوقع مني كليًّا أن أجيب عن مزاحه بمزاح مثله، ويعتبر فشلي في هذا شكلًا من أشكال الإهمال. إن هذه كما قلت مسألة أثارت قلقي كثيرًا. إنما يجب عليَّ أن أقول إن شغل المزاح هذا ليس واجبًا يمكنني أن أؤديه بحماس. إن من الملائم جدًّا، في هذا الزمن المتقلب، أن يقوم المرء بتكييف عمله بشكل يُدخل فيه من الواجبات ما هو ليس من اختصاصه تقليديًّا؛ ولكن المزاح عمل ذو بُعد آخر مختلف بالكامل. خذ مثلًا جانبًا واحدًا من المسألة، فكيف يعرف المرء يقينًا أن جوابًا مازحًا في لحظة بعينها هو حقًّا الجواب المنتظر؟ ولنا أن نتصور مدى الضرر الذي ينشأ عن إطلاق قول مازح إذا اكتشفنا أن فكاهتنا كانت مجافية للذوق السليم.
على أنني جمعت أطراف شجاعتي قبل أمد غير بعيد لكي أحاول الإجابة على المزاح بالشكل المطلوب. كنت أقدم قهوة الصباح للسيد فاراداي في غرفة الإفطار حين قال لي:
«أظن أن صياح الديوك لم يكن صادرًا عنك يا ستيفنز هذا الصباح؟».
أدركت أن مخدومي كان يشير إلى غجريتين كانتا تجمعان الحدائد المتروكة - على عادة الغجر في بلادنا في جمعها والمتاجرة بها - وكانتا قد مرتا قبل وقت الإفطار لذلك الغرض في زيارة من زياراتهما المعهودة. وحدث أنني كنت في ذلك الصباح نفسه أفكر بحيرتي وأتساءل هل يُنتظر مني أن أقابل مزاح مخدومي بالمثل، وكنت قلقًا بصورة جديَّة بشأن رأيه في فشلي المتكرر في الاستجابة لما يفِسحه لي من مِجالات. لذلك آليت على أن أفكر بجواب ما

مستملح، على أن يكون ذلك أيضًا جوابًا غير جارح تحسبًا لوضعي إذا كنت أسأت التقدير. فقلت بعد لحظات:

«الأصوات كانت أشبه بزقزقة طيور السنونو منها بصياح الديوك، يا سيدي، من حيث إنها رحالة أيضًا». وأعقبت كلامي بابتسامة خفيفة تناسب الحال لأشير دون أي التباس إلى أنني قد أطلقت ملحة ظريفة، لأنني لم أشأ أن أحول دون السيد فاراداي ومرحه الفوري الذي قد يحجم عنه نتيجة لاحترام لا مبرر له.

بيد أن السيد فاراداي نظر إليَّ فقط قائلًا: «ماذا تقصد؟ أرجوك!».

وعندئذ خطر لي أن فكاهتي لا يمكن لها، بالطبع، أن تُفهم من شخص لا يعرف أن الذين مروا كانوا من الغجر. لم أدرِ كيف إذن أمضي مستمرًّا بهذا المزاح؛ بل إني قررت أن من الأفضل قطعه، فتصنعت تذكري لشيء عليَّ أن أقوم به على عجل، فانصرفت وخلفت مخدومي مشدوهًا بعض الشيء.

كانت تلك إذن بداية مثبطة جدًّا لما يمكن أن يكون في واقع الأمر نوعًا جديدًا تمامًا من الواجبات المطلوبة مني، وكانت مثبطة إلى درجة لم أحاول بعدها محاولات من هذا القبيل، ولكني في الوقت عينه لا أستطيع أن أتخلص من إحساسي بأن السيد فاراداي لم يكن راضيًا عن استجابتي لمزاحه المتنوع، بل إن إصراره المتزايد في الأيام الأخيرة على نهجه ربما يمثل طريقة مخدومي في حثي بشكل أشد على الاستجابة له بروحية مشابهة لروحيته. ومهما يكن الأمر فإني، منذ تفكهي الأول بشأن الغجر، لم أتمكن من التفكير بفكاهات أخرى على وجه السرعة.

مثل هذه الصعوبات أخذت تشغل بالي كثيرًا في هذه الأيام، إذ لا تتيسر للمرء الفرصة لمناقشة آرائه وتعزيزها بالتحدث إلى زملائه في المهنة كما كان الأمر في الماضي. فإلى عهد غير بعيد كان المرء مطمئنًا، إذا نشأ مثل هذا الغموض بشأن واجباته، إلى أن أحد زملائه في المهنة ممن يحترم رأيه سيأتي في القريب إلى الدار بصحبة مخدومه، فتسنح بذلك فرصة له لبحث الموضوع، في أيام اللورد دارلنغتون بالطبع، عندما كان كبار القوم من السيدات والسادة يأتون إلى القصر ويقيمون فيه أيامًا، كان من الممكن إنضاج تفاهم حسن حول الآراء مع زملاء المهنة الزائرين. بل كانت ردهة الخدم عندنا، في تلك الأيام الحافلة بالعمل، تشهد في غالب الأحيان تجمعًا لعدد من خيرة محترفي المهنة في إنجلترا وهم يتحدثون إلى ساعة متأخرة من الليل متحلقين حول نيران الموقد. ودعني أقل لك: إنك لو جئت إلى ردهتنا تلك في أية أمسية من تلك الأماسي لما سمعت محض القيل والقال، فالأغلب أنك كنت ستشهد مناقشات حول الشؤون العظيمة التي تشغل مخدومينا في الطابق الأعلى، وإلا فحول أمور ذات أهمية مما تنشره الجرائد؛ وبطبيعة الحال، وكما هو شأن زملاء المهنة من جميع المراتب عند لقائهم بعضهم بعضًا، فإننا نميل كلما اجتمعنا إلى مناقشة الجوانب المختلفة في مهنتنا. تنشأ في بعض الأحيان، وهذا أمر

طبيعي، خلافات حادة، ولكن الجو في الأكثر الأعم يسوده شعور الاحترام المتبادل. ولعلي أستطيع أن أوحي بفكرة أفضل عن طابع تلك الأمسيات إذا قلت إن من بين الزائرين بانتظام رجالًا من أمثال السيد هاري غراهام، رئيس الخدم والخادم الخاص للسير جيمز تشيمبرز، والسيد جون دونالدز، الخادم الخاص للسيد سدني دكنسون. هناك آخرون لعلهم أقل مرتبة، ولكن حضورهم المرح كان يجعل من الزيارات شيئًا مشهودًا؛ مثلًا السيد ويلكنسون، رئيس الخدم والخادم الخاص للسيد جون كامبيل بما يتمتع به من قدرة على تقليد المشاهير؛ والسيد ديفيدسون من قصر إيسترلي بعاطفته المشبوبة عند نقاشه لرأي من الآراء فتثير أحيانًا فزع الغرباء، كما كان لطفه المتواضع يحببه دائمًا للآخرين؛ والسيد هرمان، الخادم الخاص للسيد جون هنري بيترز، فلم يكن بوسع أحد أن يستمع إلى آرائه المتطرفة إلا مصغيًا لها، ولكن ضحكته المتميزة التي يهتز لها بطنه وسحر معاشرته الذي يتصف به مسقط رأسه في يوركشاير يجعلان من المستحيل علينا ألا نوده. وبوسعي أن أستمر في ذكر الأسماء. ثمة في تلك الأيام صداقة حميمة صادقة في أوساط مهنتنا، مهما كانت الخلافات البسيطة في طريق قيامنا بالعمل. كنا جميعًا من الطينة نفسها كما يُقال. ليس هذا هو ما عليه الحال اليوم، حين يستصحب أحد الضيوف مستخدمه عند مجيئه إلى هنا نادرًا، فيكون ذلك المستخدم نوعًا من قادم جديد ليس لديه ما يقوله سوى الكلام عن كرة القدم، والذي يفضل أن يقضي الأمسية لا حول نيران الموقد في ردهة الخدم، بل في معاقرة الخمرة في حانة بلاومانز آرمز - لا بل ربما يؤم في هذه الأيام حانة أنكى هي حانة «ستار إن».

أتيت قبل لحظات على ذكر السيد غراهام، رئيس الخدم والخادم الخاص للسير جيمز تشيمبرز، بل كنت في واقع الأمر سعيدًا جدًّا حين علمت قبل شهرين أن السير جيمز سيزور قصر دارلنغتون. انتظرت هذه الزيارة بلهفة لا لأن الزائرين من أيام اللورد دارلنغتون هم قلة نادرة الآن - فوسط السيد فاراداي يختلف بالطبع تمامًا عن وسط فخامة اللورد - بل لأنني افترضت أيضًا أن السيد غراهام سيأتي بصحبة السير جيمز كما في الأيام الخالية، وبهذا سأتمكن من الحصول على رأيه بشأن مسألة المزاح هذه. لذلك شعرت بالدهشة وخيبة الأمل لاكتشافي قبل يوم واحد فقط من الزيارة أن السير جيمز سيأتي وحده. فضلًا عن هذا فهمت خلال إقامة السير جيمز أن السيد غراهام لم يعد في خدمته؛ بل فهمت أن السير جيمز لم يعد يستخدم أيًّا من المستخدمين الدائمين على الإطلاق. كان بودي أن أكتشف ما الذي حل بالسيد غراهام، فمع أننا لم نكن على معرفة وثيقة ولكنني أستطيع القول إننا انسجمنا في تلك المناسبات التي التقينا فيها. بيد أن ما وقع هو عدم سنوح فرصة مناسبة لي لأحصل على المعلومات التي كنت أريدها عنه. لا بد أن أقول إنني أصبت بخيبة الأمل، لأنني كنت أود أن أبحث مسألة المزاح معه.

ولكن دعني أعود إلى خيط حكايتي الأصلي. كان عليَّ، كما قلت، أن أقضي شيئًا من الوقت الحرج واقفًا في غرفة الجلوس عصر أمس في حين كان السيد فاراداي مستمرًّا في مزاحه. استجبت له كعادتي مبتسمًا قليلًا - ابتسامة تكفي في الأقل لتشير إلى أني كنت أشارك بطريقة ما في خفة الظل التي كان يمارسها - وأنا أنتظر صدور الموافقة بشأن الرحلة، وكما توقعت أعطى الرجل موافقته الكريمة بعد قليل، كما تذكَّر متفضلًا فكرر عرضه الكريم بأن يتولى دفع قائمة الوقود. وهكذا يبدو إذن أنه ما من سبب يدعو إلى عدم قيامي بسفرة السيارة إلى غربي البلاد. ينبغي لي بالطبع أن أكتب إلى الآنسة كنتون لإخبارها أنني قد أمر بها في طريقي، كما أحتاج كذلك إلى الاهتمام بمسألة الملابس. هناك مسائل أخرى متنوعة بشأن الترتيبات هنا في البيت تحتاج إلى تدبير في أثناء غيابي، ولكني بصورة عامة لا أرى سببًا حقيقيًّا يحول دون قيامي بهذه السفرة.

اليوم الأول - مساء

سالزبوري

أجد نفسي هذه الليلة هنا في دار الضيافة هذه في مدينة سالزبوري. إن اليوم الأول من سفرتي قد تم الآن، ويترتب عليَّ أن أقول إنني على العموم راضٍ تمامًا. بدأت هذه الرحلة صباح اليوم بعد تأخير بلغ زهاء الساعة عما كنت اعتزمت، برغم أنني أكملت رزم أغراضي، وحمَّلت السيارة الفورد بجميع المواد الضرورية قبل الساعة الثامنة بكثير. كانت السيدة كليمنتز وكذلك الفتاتان قد غادرن لقضاء عطلة الأسبوع. لذلك أخذت أحس بأنني ما إن أغادر قصر دارلنغتون حتى يكون قد شغر ربما لأول مرة في هذا القرن - ربما لأول مرة منذ اليوم الذي شُيِّد فيه. كان ذلك إحساسًا غريبًا، ولعله يفسر سبب تأخيري لمغادرتي طويلًا، وأنا أجوب حول الدار مرارًا، لأتأكد للمرة الأخيرة أن كل شيء على ما يرام.

من العسير عليَّ أن أفسر مشاعري بعد أن بدأت الرحلة أخيرًا. ففي الدقائق العشرين الأولى من السياقة لا أستطيع أن أقول إن أي انفعال أو أي توقع قد سيطر عليَّ على الإطلاق. ويرجع هذا، بلا ريب، إلى أنني برغم ابتعادي بالسيارة عن القصر كنت لا أزال أحس بأن لي معرفة عارضة في الأقل بما يحيط بي. فأنا، على ما كنت أفترضه دائمًا بأنني لم أسافر إلا قليلًا، تقيدني مسؤولياتي في الدار، لكن المرء يقوم بالطبع على مدى الزمن بسفرات قصيرة متنوعة لهذا السبب المهني أو ذاك، لذا يبدو أنني صرت على معرفة بهذه المناطق المجاورة أكثر مما ظننت. إذ كما قلت، كنت أواصل السياقة في الشمس نحو حدود بيركشاير وأدهش من معرفتي المعتادة بالمناظر الريفية المحيطة بي.

ولكن ما يحيط بي غدا في النهاية من المناظر التي لا أعرفها، فعلمت أنني قد جاوزت جميع المناطق المعروفة لي سابقًا. لقد سمعت بعض الناس وهم يصفون اللحظة التي يركبون فيها البحر ثم يتلاشى أخيرًا مرأى اليابسة أمام ناظرهم. أظن أن تجربة الشعور بالقلق ممزوجًا بالابتهاج، وهي التجربة التي يجري وصفها فيما يتعلق بهذه اللحظة، إنما هي شبيهة جدًّا بما شعرت به وأنا في سيارة الفورد والمناظر التي تحيط بي تغدو غريبة من حولي. حدث هذا في اللحظة التي استدرت بها فوجدت نفسي في طريق ينحني حول سفح هضبة. كان بوسعي أن أحس بالانحدار السحيق إلى يساري، وإن لم أكن أستطيع رؤيته بسبب الأشجار وكثافة الأغصان على جانب الطريق، استبد بي

شعور بأنني قد تركت حقًّا قصر دارلنغتون من ورائي، ولا بد لي أن أقر بأنني أحسست فعلًا بشيء من الفزع - وقد تفاقم هذا من جراء شعوري بأنني ربما لم أكن في الطريق الصحيح على الإطلاق، بل كنت أسرع في سياقتي في اتجاه خاطئ كليًّا نحو المتاهة. لم يدم هذا الشعور إلا هنيهة، ولكنه جعلني أبطئ من سرعتي. وحتى حين اطمأنت نفسي بأنني في الطريق الصحيح شعرت ملزمًا بضرورة إيقاف السيارة لدراسة الموقف كما يُقال.

قررت أن أنزل وأمط ساقيَّ قليلًا، وما إن فعلت ذلك حتى دهمني شعور أقوى مما مضى بأنني أقف على جانب هضبة. ففي أحد جانبي الطريق تقوم على المنحدر السحيق الأدغال والشجيرات، في حين أرى في الجانب الآخر من خلال الأوراق الكثة الريف البعيد.

أظن أنني مشيت قليلًا بمحاذاة الطريق، وأنا أمعن النظر من خلال الأغصان الملتفة أملًا أن أرى ما أمامي، حين سمعت صوتًا ينادي من خلفي. كنت بالطبع أعتقد حتى تلك اللحظة أنني لوحدي فالتفت بشيء من الدهشة. رأيت على مبعدة من الطريق في الاتجاه المعاكس بداية درب داسته الأقدام، يختفي منحدرًا في الأدغال. كان يجلس على صخرة كبيرة مما يعلِّم هذا الموقع رجل أشيب نحيف، وعلى رأسه قبعة من قماش وهو يدخن غليونه. ناداني مرة أخرى، ومع أني لم أستطع تمييز كلماته لكني رأيته يشير إليَّ لأنضم إليه. حسبته أولًا من قطاع الطرق، ثم أدركت بأن الرجل ما هو إلا من أهالي المنطقة خرج للاستمتاع بالهواء الطلق وشمس الصيف، فلم أجد ما يدعوني إلى عدم الاستجابة إليه.

قال وأنا أتقدم منه: «الظاهر أنك تتجول هنا في المنطقة يا سيدي. ما أشد لياقة ساقيك للمشي».

«ماذا أرجوك؟».

أشار الرجل بيده إلى أعلى الدرب الترابي. «عليك أن تكون صاحب أحسن زوج من السيقان، وأحسن زوج من الرئات، لكي تصل القمة هناك. أما أنا فليس عندي شيء من النوعين، لذا أبقى هنا. ولكن لو كنت في حال أفضل لكنت جالسًا هناك في القمة. ثمة موقع لطيف هناك، مصطبة وكل شيء. ولا يمكنك الحصول على منظر أفضل في أي مكان آخر في إنجلترا كلها».

فقلت له: «إذا كان ما تقوله حقًّا فالأحرى بي على ما أظن أن أبقى هنا. فأنا أقوم برحلة بالسيارة وآمل أن أرى خلالها عددًا من المناظر الرائعة. أما أن أرى أحسن المناظر طُرًّا قبل أن أبدأ على الوجه الصحيح فهو من الأمور السابقة لأوانها».

الظاهر أن الرجل لم يفهم ما أعنيه، لأنه اكتفى بأن يقول مرة أخرى: «لن ترى منظرًا أفضل من هذا في إنجلترا كلها. على أني أقول لك إنك تحتاج إلى زوج من أحسن السيقان وزوج من أحسن الرئات». ثم أضاف: «أراك بحال

حسن بالنسبة لعمرك يا سيدي. ويمكنك أن تصل إلى القمة، ولن تجد صعوبة. حتى أنا أستطيع تدبير الوصول إلى هناك في يوم مشرق».

نظرت إلى أعلى الدرب، وقد بدا لي فعلًا شديد الانحدار ووعرًا بعض الشيء.

«أنصحك يا سيدي أن تحاول، وستأسف إذا لم تأخذ طريقك ماشيًا إلى هناك. ومن يدري ففي بضع سنين قد يكون هذا قد فات أوانه» - وضحك ضحكة نابية بعض الشيء - «ومن الأفضل أن تصعد وأنت لا تزال قادرًا على الصعود».

يخطر على بالي الآن أن الرجل ربما قال ذلك على سبيل الفكاهة؛ ولكني حين سمعته هذا الصباح شعرت بأن في كلامه من الإساءة ما فيه، ولعل الدافع لإظهار السخف في تعريضه بي هو الذي حداني أن أصعد ذلك الدرب ماشيًا.

على أية حال أنا سعيد لأنني فعلت ذلك. كانت المشية شاقة بالتأكيد - ولو أنها لم تسبب لي أية صعوبة حقيقية - والطريق يصعد ملتويًا على جوانب الهضبة لمسافة مائة ياردة أو ما يقاربها. ثم وصلت إلى ساحة صغيرة، وهي بلا شك الموقع الذي أشار إليه الرجل. هنا يجد المرء مصطبة، لا بل يجد منظرًا من أبهى ما تراه العين على مدى أميال من الريف المحيط بالمنطقة.

رأيت حقولًا تترامى إثر حقول إلى مدى بعيد. الأرض متموجة تموجًا ناعمًا، والحقول تحيطها نباتات الأسيجة المزهرة والأشجار. ثمة نقط في بعض الحقول البعيدة افترضت أنها أغنام. وإلى يميني على الأفق خُيِّل لي أنني أرى برجًا لكنيسة.

كان شعورًا رائعًا حقًّا أن أقف هناك في الأعالي وأصوات الصيف من حولي والنسيم العليل يداعب وجهي. وأعتقد أنني آنذاك، وأنا أنظر إلى ذلك المشهد، بدأت للمرة الأولى أتخذ موقفًا نفسيًّا يناسب الرحلة التي أمامي. ذلك أنني آنذاك شعرت بالفورة الصحية الأولى من التوقع والانتظار للتجارب المثيرة المتعددة التي أعلم أن الأيام القادمة تخبئها لي. والحق أنني شعرت آنذاك بعزم جديد فآليت ألا يثبطني شيء يتعلق بمهمتي المهنية الوحيدة التي عهدتها إلى نفسي في هذه الرحلة؛ وأعني بذلك ما يتعلق بالآنسة كنتون وبمشاكلنا الحالية الخاصة بالمستخدمين.

لكن ذلك كان هذا الصباح. أما هذا المساء فأنا أجد نفسي نزيلًا هنا في دار الضيافة المريحة هذه في شارع لا يبعد كثيرًا عن مركز سالزبوري. الدار على ما أظن مؤسسة متواضعة نسبيًّا، ولكنها نظيفة جدًّا ومناسبة تمامًا لحاجاتي. صاحبة هذه الدار امرأة في حوالي الأربعين، ويبدو أنها حسبتني زائرًا من كبار القوم من جراء سيارة السيد فارادي «الفورد» والنوعية الممتازة للحلة التي أرتديها. في عصر هذا اليوم - وصلت سالزبوري زهاء الثالثة والنصف - جئت وكتبت في سجل المرأة عنواني وهو «قصر دارلنغتون»، فرأيتها تنظر إليَّ بشيء من الذعر، وهي تفترض بلا ريب أنني من الذوات الذين تعودوا على الفنادق الكبرى مثل فندق «رتز» و«دورشستر»، وأنني ما إن أرى غرفتي حتى

أهرع خارجًا من دارها. أخبرتني أن لديها غرفة لشخصين في الواجهة وهي خالية وستكون تحت تصرفي بسعر غرفة لشخص واحد.
أخذتني عندئذ إلى هذه الغرفة، وكانت الشمس في ذلك الوقت من النهار تضيء نقشات الأزهار على ورق الجدار بشكل مقبول. في الغرفة سريران ونافذتان من حجم جيد تطلان على الشارع. وحين استفسرت من المرأة عن مكان الحمَّام قالت بصوت خجول إنه أمام غرفتي تمامًا ولكن الماء الحار لا يتوفر إلا بعد العشاء. طلبت منها أن تأتيني بإبريق من الشاي، وعندما تركت عدت إلى تفتيش الغرفة. كان السريران نظيفين جدًّا وقد سُويا بشكل حسن. حوض الغسيل كان كذلك نظيفًا جدًّا. وعند النظر إلى الخارج من النافذتين يشاهد المرء في الجانب المقابل من الشارع مخبزًا يعرض أنواعًا متعددة من المعجنات، وصيدلية، وصالون حلاقة. ويمتد الشارع فيمر فوق جسر منحنٍ ومنه إلى المناطق الريفية. غسلت وجهي ويديَّ بالماء البارد في الحوض، ثم جلست على مقعد صلب الظهر موضوع بقرب إحدى النافذتين انتظارًا للشاي.
لم أترك دار الضيافة على ما أظن إلا بعد الرابعة بقليل حين خرجت لاستطلاع شوارع المدينة. إن سعة هذه الشوارع وطابعها المفتوح يوحيان للمرء بوجود مظهرٍ فارهٍ بشكل رائع يحيط بالمدينة، لذا وجدت من اليسير أن أقضي ساعات وأنا أتجول في الشمس الدافئة دفئًا رقيقًا. فضلًا عما اكتشفته من أن المدينة إنما هي ذات محاسن متعددة فاتنة؛ كنت أجوب مرة تلو أخرى أمام صفوف رائعة من البيوت القديمة ذات الواجهات الخشبية، أو أعبر جسرًا حجريًّا صغيرًا للمشاة فوق غدير من الغدران المتعددة التي تجري خلال المدينة. وبالطبع لم أغفل عن زيارة الكاتدرائية البديعة التي امتدحتها السيدة سايمونز في كتابها. لم يصعب عليَّ أن أجد مكان هذا البناء العظيم، إذ إن برجه السامق يُرى في سالزبوري أنَّى يكون المرء، بل إنِّي حين عدت أدراجي إلى دار الضيافة هذه في هذا المساء كنت أتلفت إلى الخلف مرارًا فأرى في كل مرة مشهد الشمس وهي تغيب وراء ذلك البرج العظيم.
مع هذا ففي هذه الليلة وأنا أنعم بهدوء هذه الغرفة وجدت أن ما تبقى في نفسي حقًّا من السفر في هذا اليوم الأول لم يكن كاتدرائية سالزبوري، ولا أي مشهد فاتن آخر من مشاهد هذه المدينة، بل بالأحرى ذلك المنظر الرائع الذي شهدته هذا الصباح وأنا أرى أمامي الريف الإنجليزي المترامي. ولأقل الآن إنني على استعداد للاعتقاد بأن في البلاد الأخرى مناظر طبيعية تخلب الألباب بشكل أكثر وضوحًا، بل إني كنت قد رأيت في الموسوعات وفي المجلة الجغرافية صورًا مدهشة لمناظر في شتى أركان الكرة الأرضية؛ وديان بديعة وشلالات، جبال جميلة الوعورة. ولم يكن من امتيازاتي بالطبع أن أرى مثل هذه المناظر رؤية العين، ولكني مع هذا سأجازف وأقول واثقًا: إن الطبيعة الإنجليزية في أبهى مناظرها - كالمنظر الذي رأيته هذا الصباح - هي ذات صفة ليست موجودة في طبيعة الأمم الأخرى مهما كانت مثيرة من الناحية

السطحية. إنها باعتقادي صفة ستميز الطبيعة الإنجليزية في عين المراقب الموضوعي باعتبارها الطبيعة الأعمق إرضاء للنفس في العالم، ولعل من الممكن اختصار هذه الصفة على خير وجه بكلمة «العظمة». ذلك أنني شعرت حقًّا، حين وقفت على تلك الكتف الجبلية هذا الصباح ونظرت إلى الأرض أمامي، شعورًا نادرًا لا يمكن مع ذلك أن تخطئه النفس بأنني أقف في حضرة العظمة. إننا نسمي بلادنا هذه بريطانيا العظمى، ونشدد على صفة «العظمى» ولعل هناك من يرى في هذا استعمالًا متغطرسًا بعض الشيء. ومع هذا فسأجازف وأقول إن الطبيعة في بلادنا هي دون غيرها التي تبرر استعمال هذه الصفة الرفيعة.

ولكن ما هذه «العظمة» بالضبط؟ أين، أو في ماذا، تكمن؟ أنا أعلم حق العلم أن الجواب عن هذا السؤال يتطلب عقلًا أرجح من عقلي، أما إذا اضطررت إلى المجازفة بالإدلاء بدلوي فسأقول إن الذي يميز الجمال في بلادنا عن الجمال في أي بلاد أخرى ما هو إلا غياب العنصر الدرامي المثير، أو فلأقل غياب الفخفخة. أما ما هو وثيق الصلة بالأمر، فالسكينة في ذلك الجمال، وما فيه من حس بالكبح. لكأن بلادنا ذات علم بجمالها، بعظمتها، فلا تشعر بالحاجة إلى أن تجهر بذلك. وعلى سبيل المقارنة فإن أمثال تلك المشاهد التي نجدها في أمكنة مثل أفريقيا وأمريكا، على ما فيها من إثارة صارخة لا تنكر، ستظهر للمشاهد الموضوعي ذات درجة أدنى، وأنا واثق مما أقول، وهذا ناجم عما في تلك المشاهد من تظاهر غير لائق.

هذه المسألة بأسرها ذات صلة وثقى بالمسألة التي أثارت كثيرًا من النقاش في مهنتنا على مدى السنين: ما هو رئيس الخدم «العظيم»؟ بوسعي أن أتذكر عددًا من الساعات التي قضيناها في بحث ممتع عن هذا الموضوع حول نيران الموقد في ردهة الخدم عند نهاية النهار. وستلاحظ أنني أقول «ما هو» بدلًا عن «مَنْ هو» رئيس الخدم العظيم؛ ذلك أنه لا يوجد في واقع الأمر أي نزاع جدي حول هوية الرجال الذين وضعوا أسس مستويات الخدمة في جيلنا. وأعني أن كلامي هذا هو عن رجال من أمثال السيد مارشال من قصر شارلفيل، أو السيد لين من برايدوود. لو كان قد أسعدك الحظ في لقاء أمثال هؤلاء فستعرف بلا ريب شيئًا عن الصفة التي يتمتعون بها وهي التي أشير إليها. ولكنك ستفهم كذلك بلا ريب ما أعنيه حين أقول إن من غير السهل على الإطلاق أن نعرِّف هذه الصفة بالضبط ونحدد ماهيتها.

بالمناسبة الآن وقد أتيح لي أن أولي هذه المسألة مزيدًا من التفكير، أرى أن من غير الصحيح تمامًا أن أقول بعدم وجود أي نزاع عمن كانوا رؤساء خدم عظامًا. فالذي كان ينبغي لي أن أقوله هو عدم وجود أي نزاع جدي بين ذوي المهنة من النوعية الممتازة والذين كانوا يتمتعون بالقدرة على التمييز في مثل هذه الأمور. إن ردهة الخدم في قصر دارلنغتون كانت بالطبع، شأنها شأن أي ردهة للخدم في أي مكان، مضطرة لاستقبال المستخدِمين من شتى

الدرجات في الذكاء والإدراك، وأنا أتذكر مرات عديدة كنت أعض فيها على شفتي في حين كان أحد المستخدمين - وأحيانًا يكون هذا مع الأسف من المستخدمين بإمرتي - يطري بحماس رجالًا من أمثال السيد جاك نيبورز مثلًا.

ليس عندي من شيء ضد السيد جاك نيبورز، الذي كان كما فهمت قد قُتل في الحرب مع الأسف الشديد. وأنا لا أذكره إلا لأنه يمثل حالة نموذجية. فلمدة سنتين أو ثلاث في أواسط الثلاثينات كان اسم السيد نيبورز يتردد باستمرار في الأحاديث التي تجري في كل ردهة للخدم في البلاد. كذلك كان الأمر في قصر دارلنغتون أيضًا، إذ كان يقص علينا عدد من المستخدمين الزائرين آخر القصص عن إنجازات الرجل بحيث كنَّا أنا وأمثال السيد غراهام نضطر إلى تحمل الاستماع لحكاية تلو أخرى تتعلق به، فتتنغص بذلك أمسيتنا. أما أشد ما كان يجري تنغيصًا فهو أن نشهد عند ختام كل حكاية من تلك الحكايات رجالًا من المستخدمين الكرام وهم يهزون رؤوسهم عجبًا ويقولون: «يا له من رجل، فالسيد نيبورز هو حقًّا أفضل الجميع»، أو يتفوهون بشيء أشبه بهذا الكلام.

ولأقل الآن بأنني لا أشك بأن السيد نيبورز كان ذا مهارات تنظيمية طيبة؛ فقد أشرف على ما أعلم على تنظيم عدد من المناسبات الكبيرة بأسلوب رائع. ولكنه لم يقترب قَطُّ في أية مرحلة من مراحله من مقام رئيس الخدم العظيم. كان بوسعي أن أقول لك هذا وهو في ذروة صيته، تمامًا كما كان بوسعي أن أتنبأ بسقوطه بعد بضع سنين قصار من الشهرة.

أريد أن أسألك كم يا ترى من المرات عرفت فيها رئيسًا للخدم يلهج بذكره الناس ويكون على كل لسان اليوم باعتباره أعظم محترفي المهنة في جيله ثم يثبت بشكل دامغ غدًا أنه ليس كذلك على الإطلاق؟ ومع هذا فإن أولئك المستخدمين أنفسهم الذين أمطروه بالثناء سيكونون في شغل شاغل عن تمحيص ملكة التمييز لديهم لانهماكهم بإطراء قادم جديد. إن موضوع هذا النوع من الكلام الجاري في ردهة الخدم هو رئيس الخدم الذي برز فجأة من جراء تعيينه في بيت مرموق، والذي لعله استطاع أن ينجح في تنظيم مناسبتين أو ثلاث من المناسبات الكبيرة. عندئذ تتناقل الأفواه في ردهات الخدم كافة، من أقصى البلاد إلى أدناها، جميع أنواع الإشاعات عن أن الرجل قد تمت مفاتحته من هذه الشخصية الكبرى أو تلك، أو أن عددًا من أرقى البيوتات تتنافس على الحصول على خدماته لقاء أجور خيالية. فما الذي يحدث قبل مضي بضع سنين؟ إن هذا الشخص المنيع نفسه قد اعتبر مسؤولًا عن غلطة ما كبيرة، أو أنه قد فقد الحظوة لدى مخدوميه لسبب آخر، فيترك البيت الذي حقق فيه شهرته ولا يُسمع عنه شيء مرة أخرى. في هذه الأثناء يجد هؤلاء القوَّالون أنفسهم قادمًا جديدًا آخر ليتحمسوا لذكر مناقبه. وقد وجدت أن الزائرين من الخدم الخصوصيين هم في الغالب أتعس المسيئين، وذلك لطموحهم المعتاد في تولي مركز رئيس للخدم على عجل. إنهم هم الذين ينحون دائمًا نحو الإصرارِ على أن هذا أو ذاك هو الذي يجب أن يُضاهى، أو يكررونِ ما يقالِ من

أن بطلًا ما بعينه من أبطال المهنة قد أبدى رأيًا من الآراء حول أمر من أمور المهنة. على أني، بالطبع، أسارع فأضيف بأن عددًا من الخدم الخصوصيين لن يكون من شأنهم الانغماس في مثل هذا النوع من الحماقة - بل هم في واقع الأمر من رجال المهنة الذين يتمتعون بحسن التقدير من أعلى طراز. لقد كنا، عند اجتماع اثنين أو ثلاثة من أمثال هؤلاء في ردهة الخدم عندنا - وأعني من وزن السيد غراهام، الذي يبدو أنني فقدت الصلة به، مما يورثني الأسى - نعقد مناقشات نابهة تثير الفكر عن كل جانب من جوانب حرفتنا، بل إن تلك الأمسيات تقف اليوم في صف أحلى ذكرياتي عن تلك الأزمان.

ولكن دعني أعد إلى المسألة ذات الاهتمام الأصيل، المسألة التي كنا نستمتع جدًّا بمناقشتها حين لم تكن أمسياتنا تفسدها ثرثرة أولئك الذين يعوزهم أي تفهم أساسي للمهنة؛ وأعني مسألة ««ما هو» رئيس الخدم العظيم؟».

لم تحصل على حد علمي، وبالرغم من كل ما أثارته هذه المسألة من كلام، سوى محاولات قليلة جدًّا في أوساط المهنة لوضع جواب رسمي. المثل الوحيد الذي يخطر على البال هو محاولة «جمعية هايز» لرسم معايير العضوية. لعلك لم تسمع بجمعية هايز، فالقلة فقط هي التي تتحدث عنها هذه الأيام. أما في العشرينات وفي أوائل الثلاثينات فإنها كانت تمارس نفوذًا كبيرًا في أقسام كثيرة من لندن وفي القصبات، بل إن الكثيرين شعروا بأن سطوتها قد بلغت حدًّا أكبر مما ينبغي، ولم ينظروا إلى إغلاقها على أنه شيء سيئ، وكانت قد أُجبرت على الإغلاق في سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣، على ما أعتقد.

كانت جمعية هايز تزعم أنها لا تقبل من رؤساء الخدم «إلا من هم من الصنف الأول حقًّا». إن الكثير من سطوتها وصيتها الذي حازته إنما كان مستمدًّا من أن هذه الجمعية، على نقيض منظمات أخرى مشابهة لم تدم طويلًا، قد استطاعت أن تبقي على عدد أعضائها في أدنى حد، وبذلك أضفت على هذا الزعم شيئًا من المصداقية. قيل إن العضوية فيها لم تتجاوز قَطُّ الثلاثين وإنها ظلت لوقت طويل تناهز تسعة أعضاء أو عشرة. إن هذا، وكذلك الحقيقة التي مفادها أن جمعية هايز كانت تنحو إلى أن تكون هيئة متسترة نوعًا ما، قد أضفى عليها كثيرًا من الغموض الصوفي لبعض الوقت، مما ضمن لها أن يجري تلقي ما كانت تصدره أحيانًا من بيانات عن الأمور المهنية وكأنها كلام منقوش على ألواح حجرية.

ولكن أمرًا واحدًا قاومت الجمعية إصدار بيان عنه بعض الوقت، ألا وهو معاييرها للعضوية. وقد تزايد الضغط باطِّراد لإعلان ذلك، وفي جواب عن سلسلة من الرسائل نُشرت في «المجلة الفصلية لزبدة المهذبين» أقرت الجمعية بأن من الشروط اللازمة للعضوية «أن يكون مقدم الطلب من المنتسبين إلى خدمة بيت مرموق». وأضافت الجمعية إلى هذا قولها: «علمًا بأن هذا الشرط بحد ذاته لا يكفي بالطبع للوفاء بالمتطلبات». كما أوضحت الجمعية أنها لا تعتبر بيوت رجال الأعمال أو «الأغنياء الجدد من حديثي النعمة»

بيوتًا مرموقة، وفي رأيي أن هذا التفكير الذي تجاوزه الزمن أضعف كثيرًا من سلطة الجمعية التي ربما كانت قد حققتها بقيامها بالفصل في أسس المستويات في مهنتنا. وفي جواب عن رسائل أخرى نُشرت في «المجلة الفصلية» بررت الجمعية موقفها فقالت إنها مع قبولها لآراء بعض الكُتاب عن وجود رؤساء خدم معينين من ذوي النوعية الممتازة في خدمة بيوت رجال الأعمال فإنه «ينبغي الافتراض بأن علية القوم الأقحاح لن يحجموا طويلًا عن استخدام مثل هؤلاء الأشخاص في بيوتاتهم». وجادلت الجمعية بقولها إن على المرء أن يسترشد بحكم «علية القوم الأقحاح» وإلا فما لنا «إلا أن نتبع آداب المجتمع السائدة في روسيا البلشفية». أثار هذا مزيدًا من الأخذ والرد، واستمر ضغط الرسائل بالتزايد، وكانت الجمعية تحث على أن تعلن بشكل لا لبس فيه معاييرها للعضوية. وأخيرًا كشفت الجمعية النقاب في رسالة مقتضبة إلى «المجلة الفصلية» بأنها ترى - وسأحاول الاقتباس بدقة من الذاكرة - «أن المعيار الأهم هو أن يتمتع طالب العضوية بوقار يتفق مع مركزه. ولن يعتبر مستوفيًا للشروط، مهما كان مستوى إنجازاته، إذا وجدت الجمعية نقصًا في تصرفه في هذا المضمار».

ومع كل الفتور في حماستي لجمعية هايز فإني أعتقد أن هذا الإعلان بالذات يستند دون غيره إلى حقيقة مهمة. فلو نظر المرء إلى أولئك الذين نتفق على أنهم رؤساء خدم «عظام»، لو نظر المرء مثلًا إلى السيد مارشال أو إلى السيد لين، لظهر له أن العامل الذي يميزهما عن غيرهما من رؤساء الخدم الذين هم ليسوا إلا أكفاء جدًّا إنما هو العامل الذي تصوره أقرب تصوير كلمة «الوقار» هذه.

وبالطبع فإن هذا يسلمنا إلى السؤال الآخر: ممَّ يتألف «الوقار»؟ إنه لعن هذه النقطة بالذات كان أمثال السيد غراهام وأمثالي يتبادلون أطرف الأحاديث والمناقشات. كان السيد غراهام يرى دائمًا أن هذا «الوقار» هو شيء كجمال المرأة ولذا فمن العبث محاولة تحليله. أما أنا فقد كان رأيي أن مثل هذا التشبيه يحط من قدر «الوقار» الذي يتصف به أمثال السيد مارشال. إضافة إلى أن اعتراضي الرئيس على تشبيه السيد غراهام ينصب على ما ينطوي عليه التشبيه من أن هذا «الوقار» هو شيء من فلتات الطبيعة، فإما أن يتمتع به المرء أو لا يتمتع به بحكم المصادفة؛ فإن لم يتوفر في المرء صار من العبث السعي وراءه كالمرأة القبيحة التي تحاول أن تجعل من نفسها غادة حسناء. ومع أنني أوافق على أن أغلبية رؤساء الخدم قد يكتشفون في نهاية المطاف أنهم لا طاقة لهم على اكتساب هذه الصفة، ولكنني أعتقد جازمًا أن هذا «الوقار» شيء يمكن للمرء أن يسعى من أجله طوال مدة خدمته. فرؤساء الخدم «العظام» كالسيد مارشال الذين يملكون هذه الصفة إنما اكتسبوها بالتأكيد على مدى سنين من تأديب الذات والاستيعاب الدقيق للتجربة. فمن

رأيي إذن أن من الانهزامية، من وجهة نظر مهنية، اتخاذ موقف شبيه بموقف السيد غراهام.

وعلى أية حال، وبالرغم من شكوك السيد غراهام، فقد كنا، هو وأنا، نقضي عددًا من الأمسيات ونحن نحاول التعرف على تكوين هذا «الوقار»، فإننا لم نتوصل إلى أي اتفاق قَطُّ، ولكن بوسعي أن أقول إنني شخصيًّا طورت بعض الأفكار الرصينة حول الموضوع خلال تلك المحادثات، وهي على العموم تمثل معتقداتي التي لا أزال أحملها اليوم، بودي لو سمحت أن أحاول هنا أن أبسط رأيي عما هو هذا «الوقار» ومم يتكون.

إنك لن تخالفني، على ما أفترض، إذا قلت إن السيد مارشال من قصر شارلفيل والسيد لين من برايدوود كانا رئيسي الخدم العظيمين في العصر الحديث. ولعل من الممكن إقناعك بأن السيد هندرسون من قلعة برانبري يصنف كذلك في صنف هذه الفئة النادرة. ولكنك قد تظنني متحيزًا إذا قلت إن أبي يمكن أن يعتبر من نواحٍ عديدة من صنف هؤلاء، وأن عمله هو العمل الذي كنت أتفحصه وأمحصه دائمًا بحثًا عن تعريف «الوقار». إني لعلى يقين بأن أبي، في ذروة خدمته في قصر لفبورو، كان يمثل تجسيدًا «للوقار» حقًّا.

لو نظرنا إلى الأمر نظرة موضوعية لوجدنا أن أبي كانت تعوزه صفات مختلفة مما ينتظر توفرها بشكل طبيعي في رئيس خدم عظيم. ولكن تلك الصفات المفتقدة نفسها هي على حد رأيي صفات سطحية وتزويقية، صفات هي بلا ريب جذابة كتلبيسة السكر على قالب الحلوى، ولكنها ليست ذات صلة بما هو جوهري حقًّا. أنا أشير إلى أمور مثل اللهجة الجيدة والتمكن من اللغة وسعة المعلومات العامة عن موضوعات واسعة النطاق مثل تدريب البزاة على الصيد وتزاوج البرمائيات - صفات ما كان أبي ليدعي أنه يتصف بها. يضاف إلى هذا علينا أن نتذكر أن أبي كان رئيسًا للخدم في جيل سابق، وقد بدأ عمله في وقت كانت تعتبر فيه مثل هذه الصفات غير لائقة ناهيك عن اعتبارها صفات مرغوبًا فيها. إن الاهتمام بالبلاغة في الكلام وبالمعلومات العامة بشكل يستحوذ على المرء من الأمور التي برزت في جيلنا، وربما في أعقاب السيد مارشال، حين أخذ رجال أقل شأنًا منه يحاولون مضاهاة عظمته فحسبوا الأمر السطحي جوهريًّا. وفي رأيي أن جيلنا كان كثير الانشغال جدًّا بـ«الزركشة»؛ والله وحده يعلم كم من الوقت والجهد قد أنفقنا في المران على حسن التلفظ وإتقان اللغة، وكم من الساعات قد قُضيت في دراسة الموسوعات والمجلدات المعروفة بعنوان «اختبر معلوماتك»، في حين كان ينبغي إنفاق الوقت في إتقان الأمور الأساسية.

ومع أننا يجب أن نلتزم الحذر فلا نحاول أن ننكر المسؤولية التي تقع في النهاية على عواتقنا، ولكن ينبغي القول إن بعض المخدومين قد فعلوا الكثير لتشجيع هذه الأنماط من الاتجاهات. ويؤسفني أن أقول إن عددًا من البيوتات في الزمن الحاضر، وهي تنحدر من سلالات رفيعة المحتد، قد نحت نحو اتخاذ

موقف تنافسي فيما بينها ولم تترفع عن «التبجح» أمام الضيوف بإتقان رئيس الخدم لديها لمثل تلك الإنجازات التافهة. وقد سمعت أمثلة متعددة عن رؤساء خدم وهم يعرضون كقرود الحواة في الحفلات المنزلية. وفي إحدى الحالات المؤسفة التي شهدتها بنفسي كان قد أصبح من أمور التسلية المعهودة أن ينادي ضيوف القصر على رئيس الخدم ويوجهوا إليه أسئلة عشوائية من قبيل من الذي فاز بسباق الدربي في السنة الفلانية، كمن يسأل ساحرًا في حفل مسرحي.

كان أبي من جيل متحرر من تلك الارتباكات في قيمنا المهنية، وأستطيع أن أقول إنه، برغم تمكنه المحدود من اللغة الإنجليزية، وبرغم اطِّلاعه المحدود في حقل المعلومات العامة، لم يكن يعرف كل ما ينبغي له أن يعرف عن الإدارة المنزلية فحسب، بل إنه استطاع في أوجه أن يكتسب ذلك «الوقار الذي يتفق مع مركزه» على حد تعبير جمعية هايز. فلئن حاولت إذن أن أصف لك ما أعتقد بأنه جعل أبي متميزًا بالشكل الذي كان عليه فإني بذلك أكون قد عبرت عن رأيي بـ«الوقار» وما هو.

ثمة حكاية بعينها كان أبي قد شُغف بتكرار روايتها على مدى السنين. أتذكر إصغائي وهو يحكيها للزائرين عندما كنت طفلًا، ثم فيما بعد عندما ابتدأت بالعمل كخادم تحت إشرافه. وأتذكر روايته للحكاية مرة أخرى عندما رجعت للمرة الأولى لزيارته بعد أن حصلت على أول مركز لي كرئيس للخدم - لدى السيد والسيدة ماكريدج في منزلهما المتواضع نسبيًّا في أولشوت في أوكسفورد شاير. من الواضح أن الحكاية كانت تعني له الكثير. لم يكن جيل أبي متعودًا على البحث والتحليل على شاكلتنا، وأنا أعتقد أن روايته لهذه الحكاية وتكرار روايتها باستمرار إنما كانت تعبر عن الحد الذي بلغه أبي في تأمله النقدي للمهنة التي مارسها، لذا فإنها تعطي بصفتها هذه مفتاحًا أساسيًّا لتفكيره.

الحكاية فيما يظهر حقيقية وتتعلق برئيس للخدم كان قد سافر مع مخدومه إلى الهند حيث خدم فيها لعدد من السنين وهو يحافظ بين المستخدمين المحليين على المستويات العالية ذاتها التي كان يؤمر بها في إنجلترا. وذات يوم دخل رئيس الخدم هذا عصرًا إلى غرفة الطعام ليطمئن إلى أن كل شيء على ما يرام استعدادًا للعشاء فلاحظ نمرًا يتهادى تحت المائدة. ترك رئيس الخدم غرفة الطعام، وأغلق أبوابها من ورائه حيطة، ومضى بهدوء إلى غرفة الجلوس حيث كان مخدومه يتناول الشاي مع عدد من الزوار هناك، ولفت انتباه سيده بنحنحة مهذبة، ثم همس في أذنه يقول: «أنا آسف جدًّا يا سيدي، ولكن يبدو أن ثمة نمرًا في غرفة الطعام. هلَّا سمحت لي أن أستخدم البندقية الكبيرة متعددة المواسير؟».

وكما يُروى سمع السيد المخدوم وضيوفه بعد دقائق ثلاث إطلاقات من بندقية، وحين عاد رئيس الخدم إلى غرفة الجلوس فيما بعد ليصب الشاي

استفسر المخدوم هل أن كل شيء على ما يرام؟ فجاءه الجواب على الفور: «على أحسن ما يرام، شكرًا سيدي. العشاء سيقدم في الوقت المعتاد، ومن دواعي سروري أن أقول: لن تكون هناك آثار بينة تركتها الحادثة الأخيرة عند حلول ذلك الوقت».

كان والدي يكرر هذه الجملة الأخيرة - «لن تكون هناك آثار بينة تركتها الحادثة الأخيرة عند حلول ذلك الوقت» - وكلما كررها ضحك وهز رأسه إعجابًا. لم يكن أبي يزعم أنه يعرف اسم رئيس الخدم هذا أو يعرف أحدًا يعرفه، ولكنه كان يصر دائمًا على أن الحادث وقع كما يرويه تمامًا. على أية حال، ليس من المهم إن كانت الحكاية صحيحة أم لم تكن؛ الشيء المهم هو بالطبع ما تكشفه بشأن مُثُل والدي العليا. ذلك أنني حين أستعرض تاريخ عمله أستطيع أن أرى بنظرة إلى ماضيه أنه لا بد قد بذل أقصى جهده طوال سنوات عمله لكي يصبح بشكل ما رئيس الخدم ذاك الذي تصوره حكايته. وفي رأيي استطاع أبي، وهو في ذروة مهنته، أن يحقق طموحه. ذلك أنه وإن لم يصادف بالتأكيد نمرًا يواجهه تحت مائدة الطعام ولكنني أستطيع أن أتصور، عندما أفكر بما أعرفه عنه أو سمعته بشأنه، عددًا من الحالات أظهر فيها بجلاء تلك الصفة ذاتها التي كانت مثار إعجابه الشديد برئيس الخدم في حكايته. عن حالة من هذه الحالات حدثني السيد ديفيد تشارلس، من شركة «تشارلس» و«ردنغ»، وكان يزور قصر دارلنغتون بين حين وآخر في زمن اللورد دارلنغتون. فذات ليلة كنت فيها أقوم شخصيًّا على خدمة السيد تشارلس حدثني أنه كان قد تعرَّف على أبي قبل سنوات عندما نزل ضيفًا على قصر لفبورو - مسكن الصناعي السيد جون سيلفرز، حيث خدم أبي لمدة خمس عشرة سنة وهو في ذروة مهنته. قال لي السيد تشارلس إنه لم يستطع أن ينسى أبي قَطُّ من جراء حادثة وقعت في أثناء تلك الزيارة.

فذات يوم عصرًا أباح السيد تشارلس لنفسه أن يسكر، الأمر الذي يدعو إلى خجله وأسفه، وكان ذلك بصحبة اثنين من ضيوف القصر - سأسميهما للتعمية السيد زيد والسيد عمرو لأنهما لا زالا معروفين في أوساط معينة. وبعد ساعة أو ما يناهزها من احتساء الخمور قرر هذان السيدان أنهما يريدان الذهاب بالسيارة للتجوال في القرى المجاورة - وكانت السيارة لا تزال في ذلك الزمن نوعًا من بدعة. ثم أقنعا السيد تشارلس بمصاحبتهما، وبما أن السائق كان مجازًا في ذلك اليوم فقد طلبا من والدي أن يسوق السيارة.

ما إن بدأت الجولة حتى أخذ السيد زيد والسيد عمرو يتصرفان كصبيان المدارس مع أنهما قد تجاوزا أواسط العمر، وبدآ يغنيان أغاني بذيئة ويعلقان تعليقات أشد بذاءة، على كل شيء يريانه من النافذة. هذا وكان السيدان قد لاحظا على خارطة المنطقة ثلاث قرى مجاورة ذات أسماء قريبة الشبه بأسماء ثلاثة ممثلين في عرض مسرحي مشهور، فأثار ذلك فضولهما، عندئذ أرادا زيارة تلك القرى الثلاث تكريمًا للممثلين الثلاثة، على أن تتم زيارة القرى

بالتسلسل. قام أبي، كما أخبرني السيد تشارلس، بالسياقة إلى القرية الأولى حسب الأصول، وما إن كاد يصل إلى الثانية حتى لاحظ أحد السيدين أنها كانت القرية الثالثة حسب التسلسل. فطلبا من والدي بغضب أن يستدير بالسيارة فورًا لكي تجري زيارة القرى «بتسلسلها الصحيح». كان من شأن هذا مضاعفة مسافة الطريق ولكن والدي، كما أكد لي السيد تشارلس، قَبِلَ الطلب وكأنه طلب معقول جدًّا واستمر يتصرف على العموم بمجاملة لا تشوبها شائبة.

ما كان من السيد زيد والسيد عمرو الآن إلا أن يسلطا تحرشهما على أبي بعد أن أضجرهما بلا ريب عقم المناظر الخارجية، فأخذا يتآنسان بإطلاق ملاحظات غير سارة بشأن «غلطة» أبي. وتذكر السيد تشارلس وهو يحدثني كيف أنه أعجب بأبي إذ لم يظهر علامة واحدة من علامات الضيق أو الغضب، بل استمر يسوق السيارة وعليه ملامح متوازنة كل التوازن ما بين الوقار الشخصي والاستعداد للخدمة. بيد أن الظرف الذي ساد لم يتح لاتزان أبي أن يدوم. ذلك أن السيدين بعد أن ملَّا من توجيه الإهانات إلى أبي من خلفه أخذا يغتابان مضيفهما - ألا وهو مخدوم أبي، السيد جون سيلفرز. وتطورت الملاحظات إلى أقوال دنيئة وغادرة بحيث اضطر السيد تشارلس - وهذا ما زعمه في الأقل - إلى التدخل وإلى مخاطبة السيدين بأن كلامهما ينافي الذوق السليم. فما كان منهما إلا أن يسفها قوله بقوة دعته لا إلى احتمال جعله موضع استهزاء السيدين فحسب بل إلى خشيته من خطر هجوم بالأيدي عليه. من ثم وعلى حين غرة، في أعقاب تعريض شائن جدًّا بحق مخدوم أبي، أوقف والدي السيارة فجأة، أما الذي حدث بعد ذلك فهو الذي طبع ذهن السيد تشارلس بذكرى لا تُمحى.

انفتح باب السيارة الخلفي وشوهد أبي يقف هناك، إلى بضع خطوات بعيدًا عن المركبة، وهو يحملق باستمرار في داخلها. وعلى حد وصف السيد تشارلس للمشهد شعر الركاب الثلاثة جميعهم كأن على رؤوسهم الطير وقد أخذوا بما تراه عيونهم من قوة أبي البدنية الطاغية الظاهرة عليه. لقد كان أبي حقًّا فارع القوام يناهز طوله ست أقدام وثلاث بوصات، أما مظهره، وإن كان مما تطمئن إليه النفس إذا عرف المرء أنه إنما ينوي الخدمة المُرضية، فهو مظهر يمكن أن يبدو مريعًا جدًّا في ظروف معينة أخرى. لم يُظهر أبي، حسبما قاله السيد تشارلس، أي غضب مكشوف. لم يفعل فيما يبدو سوى أن فتح الباب. مع هذا كان هناك في مظهره شيء ينم عن التقريع بقوة شديدة، شيء لا يمكن في الوقت عينه مقاومته، وهو يقف بقامته المديدة مهيمنًا على الراكبين، حتى إن رفيقي السيد تشارلس المخمورين أخذا ينكمشان إلى الخلف كصبيين يقبض عليهما البستاني متلبسين بسرقة التفاح. ظل أبي واقفًا هناك بضع لحظات، لا يقول شيئًا، ولا يفعل سوى إمساكه بالباب مفتوحًا. أخيرًا قال أحد السيدين، إما السيد زيد أو السيد عمرو «ألا نستمر في مواصلة الرحلة؟».

لم يجب أبي بشيء، بل استمر واقفًا هناك بصمت، لا هو يطلب من الركاب النزول ولا هو يفصح عن أي دليل ينم عما يرغب فيه أو عما ينوي. أستطيع أن أتصوره جيدًا وقد وقف في ذلك اليوم أمام فتحة السيارة، وهو يحجب بحضوره القاتم، القاسي، مشاهد الطبيعة الرقيقة في هرتفورد شاير التي تمتد وراءه. كانت هذه، كما تذكرها السيد تشارلس، لحظات تهد الأعصاب بشكل غريب بحيث شعر هو أيضًا خلالها، رغم عدم اشتراكه بما بدر من سلوك الآخرين السابق، بالإحساس بالذنب يحدق به. استمر الصمت من دون انقطاع، إلى أن تجرأ أحد السيدين على أن يتمتم قائلًا: «أحسب أننا تكلمنا هنا بشيء من عدم الحكمة. لن يحدث هذا مرة أخرى».

فكر أبي لحظة بهذا القول ثم أغلق الباب برفق وعاد إلى عجلة القيادة ومضى يواصل الجولة بين القرى الثلاث - وكانت جولة، كما أكد لي السيد تشارلس، قد تمت فيما بعد بما يشبه الصمت المطبق.

أما وقد رويت هذه الحادثة فإن ثمة حادثة أخرى تخطر علي بالي وقعت في ذلك الحين خلال عمل والدي ولعلها تصور بشكل أكثر تأثيرًا هذه الصفة الخاصة التي كان يتمتع بها. عليَّ أن أوضح هنا أنني أحد شقيقين اثنين - وأن شقيقي الأكبر، ليونارد، كان قد قُتل في حرب الجنوب الأفريقي وأنا بعد صبي. وبطبيعة الحال كان لأبي أن يشعر بهذه الخسارة شعورًا عميقًا؛ ولكن مما فاقم الأمور ونقلها من سيئ إلى أسوأ، أن السلوى المعتادة التي يحس بها الأب في هذه الحالات - أي الفكرة التي تراوده بأن ابنه قد ضحى بحياته بفخر في سبيل الملك والوطن - قد تلوثت بحقيقة مفادها أن شقيقي قد هلك في موقعة عسكرية سيئة الصيت جدًّا. لم يقتصر الأمر على الادعاء بأن هذه الموقعة كانت هجومًا لا يتفق إلى أقصى حد مع التقاليد البريطانية إذ وقع على مستوطنات البوير المدنية بل تعدى ذلك إلى ظهور أدلة مفحمة بأن قيادة الهجوم جرت بشكل يخلو من المسؤولية مع استهانات متعددة بالمحاذير العسكرية الأولية بحيث إن عددًا من الذين قُتلوا - ومن بينهم شقيقي - إنما زهقت أرواحهم عبثًا. وبالنظر لما سأرويه فيما بعد فلن يكون من الصحيح لي أن أحدد الموقعة العسكرية بشكل أدق، وإن كنت ستستطيع أن تخمن إلى أية موقعة أشير إذا قلت إنها أحدثت ضجة في وقتها، مما أضاف كثيرًا إلى حدة الجدل الذي أثاره النزاع بأسره. وتعالت مطالبات بتنحية الجنرال المختص بل حتى بمحاكمته أمام محكمة عسكرية، ولكن الجيش دافع عنه وأتاح له أن يُتم الحملة. أما الذي هو غير معروف تمامًا فما جرى بعد انتهاء النزاع في الجنوب الأفريقي، إذ أحيل هذا الجنرال ذاته إلى التقاعد بدون ضجيج، فما كان منه عندئذ إلا أن دخل عالم الأعمال فزاول عمليات الشحن المصدرة من الجنوب الأفريقي. أنا لا أروي كل هذا إلا بسبب ما حدث بعد زهاء عشر سنين من انتهاء النزاع، أي حين كانت جروح الثكل قد التأمت سطحيًّا فقط، فقد كان أن استُدعي أبي إلى مكتب السيد جون سيلفرز لكي يخبر بأن هذه الشخصية

بالذات - سأطلق عليها اسم «الجنرال» لا غير - ستكون من الضيوف لعدد من الأيام وذلك لحضور حفلة في القصر كان يأمل مخدوم والدي أن يضع خلالها أسس صفقة تجارية مجزية. بيد أن السيد سيلفرز كان قد تذكر ما سيكون للزيارة من مغزى بالنسبة لأبي، فلذا استدعاه ليعرض عليه الخيار بأن يتمتع بإجازة لعدد من الأيام طوال إقامة الجنرال.

كانت مشاعر أبي نحو الجنرال هي، بطبيعة الحال، مشاعر الاشمئزاز الشديد، ولكنه أدرك أيضًا أن مطامح مخدومه التجارية أصبحت معلقة في الحال الحاضرة بإدارة حفلة القصر على نحو يخلو من العراقيل، وهو أمر غير هيِّن نظرًا لأن عدد الحاضرين سيكون ثمانية عشر شخصًا أو نحو ذلك. لذا أجاب والدي بأنه في الوقت الذي يشعر بالامتنان لأن أحاسيسه قد أُخذت بالحسبان فإنه أكد للسيد سيلفرز بأن الخدمة ستقدم وفق المستويات المعهودة.

وقد ظهر عندما اتضحت الأمور أن محنة والدي كانت حتى أسوأ مما كان متوقعًا. فمن جهة، ثبت أن أية آمال ربما ساورت أبي بأن لقاءه مع الجنرال شخصيًّا سيثير شعورًا بالاحترام أو التعاطف لتلطيف مشاعره ضده إنما كانت آمالًا لا أساس لها. فالجنرال كان رجلًا بدينًا، ودميمًا، وتصرفاته ليست مهذبة، وكلامه ينضح بالتلهف لتطبيق تشبيهات عسكرية على نطاق واسع جدًّا من الأمور المختلفة. والذي زاد في الطين بلة أن الرجل لم يأتِ بخادمه الخاص لمرضه. أدى هذا الوضع إلى نشوء مشكلة دقيقة بالنظر لأن ضيفًا آخر لم يكن يرافقه أيضًا خادمه الخاص، فمن من هذين الضيفين سيخصص له رئيس الخدم في القصر كخادم خاص له ومن يخصص له خادم بسيط من خدم المنزل. تطوع أبي على الفور، تقديرًا منه لوضع مخدومه، أن يخدم الجنرال شخصيًّا، وبهذا اضطر إلى أن يعاني التماس الوثيق بالرجل الذي يشمئز منه لمدة أربعة أيام. في تلك الأثناء كان الجنرال ينتهز الفرص، من دون أن تكون لديه أية فكرة عن مشاعر والدي، لرواية الحكايات عن منجزاته العسكرية - كما ينزع بالطبع عدد من الذوات العسكريين إلى مثل هذه الرواية مع خدمهم الخصوصيين في خلوة حجراتهم. مع هذا استطاع أبي أن يخفي مشاعره كل الإخفاء، وأن يقوم بواجباته على أحسن ما تفرضه المهنة، حتى إن الجنرال جامل السيد جون سيلفرز مهنئًا ومطريًا رئيس خدمه لحسن خدمته الممتازة وترك إكرامية كانت استثنائية لضخامة مبلغها للتعبير عن تقديره، فما كان من والدي إلا أن طلب من سيده من دون تردد أن يتبرع بالمبلغ لأعمال الخير والإحسان.

آمل أنك ستتفق معي أن أبي، في هاتين الحالتين اللتين استشهدت بهما من حياته العملية - وقد توثقت منهما كلتيهما وأعتقد أنهما صحيحتان - لم يعبر عما سمته جمعية هايز «وقارًا يتفق مع مركزه حسب» بل كاد يكون تجسيدًا له. فلو نظر المرء إلى الفرق بين أبي في مثل هذه اللحظات وغيره كالسيد جاك

نيبورز حتى وهو يعرض خيرة ما لديه من تنميقات في أداء العمل، لوجد أنه يستطيع تمييز ذلك الشيء الذي يفصل بين رئيس الخدم العظيم ورئيس الخدم الكفء فقط. لعلنا أيضًا نفهم الآن بشكل أفضل لماذا كان أبي مولعًا جدًّا بحكاية رئيس الخدم الذي لم يُصب بالذعر عند اكتشافه نمرًا تحت مائدة الطعام؛ وما ولعه بها إلا لأنه يعرف بالسليقة بأنها تنطوي على نواة «الوقار» الصحيح وعلى حقيقة لبابه ودعني الآن أعرض ما يلي:

إن «الوقار» له علاقة وثقى بقدرة رئيس الخدم على ألا يتخلى عن الكائن المهني الذي فيه. فرؤساء الخدم من الدرجة الأدنى سيتخلون عن كائنهم المهني تاركين مكانه لكائنهم الخاص عند أقل استفزاز. رئيس الخدم عند مثل هؤلاء هو كمن يقوم بدور ممثل صامت على المسرح؛ فما هي إلا عثرة بسيطة حتى يسقط عنه الحجاب ويكشف عن نفسه. إن رؤساء الخدم العظام هم عظام بسبب قدرتهم على تلبس دورهم المهني وعلى تلبسه إلى أقصى حد؛ إنهم لن تهزهم الأحداث الخارجية، مهما كانت مفاجئة أو مذعرة أو مزعجة. إنهم يلبسون مهنيتهم كما يلبس الرجل المهذب المحترم حلته: وهذا لن يسمح للشقاة أو لحالة طارئة بنزعها عنه أمام أنظار الناس؛ إنه لن يخلعها إلا بمشيئته وبمشيئته وحدها، وهذا لن يكون إلا إذا كان لوحده. فالأمر، كما أقول، هو مسألة «وقار».

يُقال أحيانًا إن رؤساء الخدم لا يوجدون حقًّا إلا في إنجلترا. في البلاد الأخرى لا يوجد إلا محض الخدم، مهما كان العنوان المستعمل لهم فعلًا. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن هذا القول صحيح. فأبناء القارة الأوروبية لا يمكنهم أن يكونوا رؤساء خدم لأنهم غير قادرين على الكبح العاطفي الذي لا يقدر عليه إلا الجنس الإنجليزي. وأبناء القارة الأوروبية - والسلتيون منهم على العموم كما ستتفق معي بلا ريب - غير قادرين كقاعدة عامة على السيطرة على أنفسهم عند جموح العاطفة، فهم لذلك غير قادرين على الحفاظ على سلوك مهني إلا في الحالات الاعتيادية الخالية من التحديات. وإذا سمحت لي بأن أعود إلى تشبيهي السابق - وستعذرني لِما في التشبيه من فظاظة - أنهم كمن سيمزق ما عليه من ثياب ويتراكض صائحًا عند أقل استفزاز. وباختصار أقول إن «الوقار» هو خارج طاقة مثل هؤلاء. نحن الإنجليز لدينا ميزة مهمة نمتاز بها على الأجانب في هذا المضمار ولهذا السبب فإنك حين تتخيل رئيسًا للخدم في ذهنك فلا بد أن يكون هذا بحكم تعريف الاسم، إنجليزيًّا.

بالطبع، لك أن تقرع حجتي بحجة أخرى كما كان يفعل السيد غراهام كلما كنت أفصل في كلامي وفق ذلك النهج خلال أحاديثنا الممتعة التي كنا نتجاذب أطرافها أمام نيران الموقد، وكانت حجته تفيد بأنني إن كنت مصيبًا فيما أقول فإن المرء لا يستطيع أن يتبين رئيسًا للخدم عظيمًا على النحو الذي أعرفه إلا إذا رآه وهو يؤدي عمله تحت اختبار ما عسير. على أن الحقيقة هي أننا نتقبل أشخاصًا مِثل السيد مارشال والسيد لين على أنهم عظام وإن كان أغلبنا لا

يستطيع أن يزعم بأنه قد محصهم تحت مثل تلك الظروف على الإطلاق. وعليَّ أن أقرَّ بوجاهة حجة السيد غراهام في ناحية من النواحي، ولكني أقول إن المرء يمكنه، بعد قضاء فترة طويلة في المهنة، أن يحكم بالغريزة على عمق مهنية الشخص من دون حاجة إلى رؤيتها تعمل تحت الضغط. ومن الحق أن أقول إن المرء إذا أسعده الحظ بلقاء رئيس للخدم عظيم فإنه لن يشعر بشكوك تحثه على المطالبة «باختبار»، بل سيكون واثقًا من استحالة تصوره لوضع يمكن فيه زعزعة المهنية وخلعها عن صاحبها، فهي مهنية لصيقة برئيس الخدم العظيم دون منازع. بل إني لعلى ثقة بأن إدراكًا من هذا النوع، إدراكًا ينفذ حتى من خلال الغشاوة الكثيفة التي تخلقها الكحول، هو الذي صعق الركاب الذين كانوا مع والدي ذات يوم قبل سنين فألزمهم صمتًا مخزيًا. وإنه لمع أولئك الممتهنين أن يشعر المرء، كما يشعر أمام الطبيعة الإنجليزية في أحسن مناظرها كالتي رأيت هذا الصباح، بأنه عند لقائه لهم إنما يكون في حضرة العظمة.

سيوجد بيننا دائمًا، كما أعلم جيدًا، من يقول إن أية محاولة لتحليل العظمة كما أفعل أنا هي محاولة لا جدوى منها. وستكون حجة السيد غراهام دائمًا كما يلي: «أنت تعرف حين تتوفر العظمة عند أحدهم وأنت تعرف حين لا تتوفر عنده. أما أكثر من هذا فليس عندك شيء مقنع تقوله». ولكني أعتقد بأن من واجبنا ألا نكون انهزاميين في هذه المسألة. إنها لمسؤولية مهنية بالتأكيد تقع على عواتقنا جميعًا وتدعونا أن نفكر عميقًا بهذه الأمور لكي يتسنى لكل واحد منا أن يسعى جاهدًا نحو بلوغ «الوقار» لأنفسنا.

اليوم الثاني - صباحًا

سالزبوري

لا يلائمني الفراش الذي لا يعود لي إلا نادرًا، لذا فبعد فترة وجيزة من غفوة مضطربة بعض الشيء أفقت قبل ساعة أو نحوها. كان الظلام لا يزال سائدًا، وبما أني أعرف أن أمامي يومًا كاملًا من السياقة حاولت أن أعود إلى النوم. كان هذا عبثًا، وعندما قررت أخيرًا أن أنهض كان الظلام لا يزال مخيمًا بحيث اضطررت إلى إضاءة المصباح الكهربائي لكي أحلق ذقني عند حوض الاغتسال في زاوية الغرفة. ولكن ما إن انتهيت من ذلك وأطفأت المصباح حتى رأيت نور الفجر على حواشي الستائر.

عندما فرقتها قبل لحظات كان النور في الخارج لا يزال شاحبًا جدًّا وشيء من ضباب يحجب عني رؤيتي للخباز وللصيدلية قبالتي. بل إنني، حين مددت بصري بعيدًا إلى الشارع حيث يمتد من فوق الجسر المنحني الصغير، رأيت الضباب يتصاعد من النهر، ويلف أحد أعمدة الجسر فيحجبها عني تمامًا. لم يكن هناك من أحد أراه، ولا من صوت أسمعه سوى طرق يأتيني صداه من بعيد، وسعال يصدر بين حين وحين من غرفة تقع خلف النُّزُل. من الواضح أن صاحبة البيت لم تفق من نومها بعد، مما يدل على أن طعام الإفطار لن يقدم قبل الوقت المقرر من قِبَلِها وهو السابعة والنصف.

والآن، في هذه اللحظات الساكنة وأنا أنتظر العالم يستيقظ من حولي، أجدني أراجع في ذهني مرة أخرى فقرات من رسالة الآنسة كنتون. بالمناسبة، كان ينبغي لي قبل الآن أن أوضح ما أعنيه بإشارتي إلى «الآنسة كنتون». «فالآنسة كنتون» في النعت الصحيح هي «السيدة بن» وكانت كذلك مدة عشرين سنة. ولكن ولأنني عرفتها معرفة وثيقة خلال سنوات شبابها فقط ولم أرها قَطُّ منذ ذهبت إلى غرب البلاد لتصبح «السيدة بن»، فلعلك ستعذرني لما بدر مني من عدم لياقة في تسميتها بالاسم الذي كنت أعرفها به، والذي واصلت تسميتها به في ذهني طوال هذه السنين. إن رسالتي أعطتني، بالطبع، سببًا إضافيًّا لكي أستمر بالتفكير فيها بصفتها «الآنسة كنتون» إذ يبدو، وهذا ما يدعو إلى الأسى، أن زواجها قد وصل أخيرًا حد الافتراق. رسالتها لا تذكر بالتحديد تفاصيل الأمر، ولا يتوقع المرء منها أن تفعل ذلك، ولكن الآنسة كنتون تذكر بشكل لا لبس فيه أنها في الواقع قد اتخذت حاليًّا خطواتها بالانتقال من بيت الزوجية في هلستون وأنها تقيم في الوقت الحاضر مع زميلة لها من معارفها في القرية المجاورة، وهي قرية ليتيل كومبتون.

إنه لأمر مفجع بالطبع أن ينتهي زواجها الآن بالفشل. ولا ريب أنها في هذه اللحظة بالذات تتفكر آسفة بقرارات اتخذت في الماضي البعيد فتركتها الآن، وقد جاوزت أواسط العمر، وحيدة وبائسة. وإن لمن السهل أن أتصور كيف أن تفكيرها بالعودة إلى قصر دارلنغتون من شأنه أن يريحها كثيرًا وهي على ما هي عليه من وضع نفسي. على أن من المسلم به أنها لم تذكر صراحة في أي مكان من رسالتها شيئًا عن رغبتها في العودة؛ لكن هذا هو بلاغها الذي لا يمكن الخطأ فيه وجاء التعبير عنه بما بين السطور من معانٍ عامة متدرجة في عدد من المقاطع، وكلها مقاطع مشربة بحنين عميق لأيامها في قصر دارلنغتون. وبالطبع لن تستطيع الآنسة كنتون أن تأمل، بعودتها في هذه المرحلة، في أن تسترجع تلك السنين الضائعة، وسيكون أول واجباتي أن أبيِّن هذا لها بجلاء عندما نلتقي. سيكون عليَّ أن أذكر أن الأمور مختلفة تمامًا في الوقت الحاضر - وأن أيام العمل مع مجموعة كبرى من المستخدمين رهن إشارتنا لا يحتمل أن تعود على الإطلاق ونحن على قيد الحياة. ولكن الآنسة كنتون امرأة ذكية ولا بد أنها أدركت هذه الأمور أصلًا. بل إني، على العموم، لا أستطيع أن أرى لماذا لا يكون خيارها بالعودة إلى قصر دارلنغتون وإتمامها لسني عملها فيه مدعاة لسلوان حقيقي لحياة صارت نهبًا لإحساس بالتبديد.

وبالطبع، ومن وجهة نظري المهنية، فإن من الواضح حتى بعد انقطاع دام سنين عديدة، فإن الآنسة كنتون ستثبت أنها الحل المثالي للمشكلة التي تزعجنا في الوقت الحاضر في قصر دارلنغتون. والواقع أنني بتسميتها «مشكلة» لعلِّي أضخم الأمر. وعلى أية حال، أنا إنما أشير إلى سلسلة من الأخطاء الصغيرة جدًّا من جانبي أما السبيل الذي أتبعه الآن فهو عبارة عن القضاء على «المشاكل» قبل ظهورها. صحيح، إن هذه الأخطاء التافهة نفسها سببت لي فعلًا شيئًا من القلق في البداية، ولكن ما إن توفر لديَّ الوقت لتحليلها على الوجه الصحيح كأعراض لنقص في عدد المستخدمين لا أكثر ولا أقل حتى أحجمت عن إيلائها مزيدًا من التفكير.

إن وصول الآنسة كنتون، على ما أقول، سيضع حدًّا نهائيًّا لها جميعًا.

ولكن لنعد إلى رسالتها. إنها أحيانًا تكشف عن قنوط معين بشأن حالتها الحاضرة - الأمر الذي يثير القلق بعض الشيء. إنها تبدأ إحدى جملها بقولها: «مع أنني لا أدري كيف سأملأ بشكل نافع البقية الباقية من حياتي، ولكن...»، ثم تكتب في موقع آخر: «إن الأيام الباقية من حياتي تمتد أمامي كأنها فراغ». على أن النبرة في أغلب الأحيان هي، كما قلت سابقًا، نبرة الحنين. فهي تكتب في أحد المقاطع:

«هذه الحادثة بأسرها تذكرني بأليس وايت، هل تذكرها؟ الواقع، لا يمكنني أن أتصور أنك تستطيع نسيانها. أما أنا فلا أزال مسكونة بأصوات حروف المد التي كانت تصدرها حنجرتها وبتلك الجمل المخالفة لقواعد النحو بشكل فريد، التي لا تستطيع إلا هي أن تؤلفها بخيالها؛ هل تعرف ماذا جرى لها؟».

لا أعرف ماذا جرى لها في حقيقة الأمر وعليَّ أن أقول إنه سرني نوعًا ما أن أتذكر تلك الخادمة التي كانت تثير السخط وهي التي تحولت في النهاية إلى واحدة من أكثر خادماتنا إخلاصًا. وفي مقطع آخر من الرسالة كتبت الآنسة كنتون تقول:

«لقد كنت مولعة جدًّا بذلك المنظر من غرف النوم في الطابق الثاني، المطل على المرج الأخضر، والسفوح المعشبة تلوح في المدى. هل إن المنظر لا يزال كذلك؟ كان هناك في أمسيات الصيف نوع من سمة سحرية في ذلك المنظر وسأعترف لك الآن أنني كنت متعودة على تبديد عدد من الدقائق الثمينة وأنا أقف أمام نافذة من تلك النوافذ وقد افتتنت بالمنظر».

ثم تمضي فتضيف:

«إذا كان ما سأقوله يثير ذكرى أليمة فأرجو المعذرة. ولكنني لن أنسى أبدًا تلك المرة التي كنا فيها نراقب والدك معًا وهو يمشي ذهابًا وإيابًا أمام السقيفة الصيفية في الحديقة، مطرقًا إلى الأرض، كأنه يرجو أن يعثر على جوهرة ثمينة أسقطها هناك».

إنه لشيء أشبه بمفاجأة تثير الدهشة أن تظل هذه الذكرى باقية مع الآنسة كنتون مدة ثلاثين سنة خلت كما ظلت باقية معي. والحق أنها لا بد حدثت بالضبط في إحدى تلك الأماسي الصيفية التي ذكرتها، لأنني أستطيع أن أتذكر بالتحديد صعودي إلى الطابق الثاني وإذا بي أرى أمامي سلسلة من حزم برتقالية يرسلها مغيب الشمس وهي تخترق ظلام الرواق حيث كانت أبواب غرف النوم كلها مفتوحة. وإذ مررت من أمامها رأيت من خلال أحد الأبواب جسم الآنسة كنتون يستدير كخيال الظل بإزاء النافذة وينادي برفق: «يا سيد ستيفنز، لحظة إذا سمحت». وعندما دخلت كانت الآنسة كنتون قد استدارت نحو النافذة مرة أخرى. رأيت أمامنا ظلال أشجار الحور على المرج الأخضر، وإلى اليمين من المنظر ينحني المرج مرتفعًا فوق سدة رقيقة إلى حيث تقع السقيفة الصيفية، في ذلك الموضع رأينا أبي يمد خطاه بتؤدة وعليه مخايل انشغال البال - بل كان، كما أحسنت الآنسة كنتون وصفه، كأنه يرجو أن يعثر على جوهرة ثمينة أسقطها هناك.

ثمة أسباب وجيهة جدًّا دعت أن تظل هذه الذكرى باقية معي، كما أود أن أوضح. كذلك فإني إذ أفكر بالأمر الآن أرى من غير المستغرب أن تترك هذه الذكرى أيضًا أثرًا عميقًا في ذهن الآنسة كنتون نظرًا لجوانب معينة في علاقتها مع والدي خلال أيامها الأولى في قصر دارلنغتون.

كانت الآنسة كنتون ووالدي قد وصلا إلى القصر في الوقت نفسه تقريبًا - أي في ربيع ١٩٢٢ - وذلك نتيجة لما حصل لي من خسارة اثنين من المستخدمين مرة واحدة وهما مدبرة المنزل ومساعد رئيس الخدم. وقع هذا لأن هذين الشخصين قررا أن يتزوج أحدهما من الآخر ويتركا المهنة. لقد وجدت دائمًا أن مثل هذه العلاقات الغرامية العابرة تمثل تهديدًا خطيرًا للنظام السائد في

منزل ما. ومنذ ذلك الحين فقدت عددًا من المستخدمين في ظروف كهذه. إن من المتوقع طبعًا حدوث مثل هذه الأمور ما بين خادمات وخدم، وعلى رئيس الخدم الجيد أن يأخذ ذلك في الحسبان عند التخطيط لعمله؛ ولكن مثل هذه الزيجات ما بين مستخدمين من درجات أعلى يمكن لها أن تربك العمل كثيرًا. وبالطبع، إذا حدث أن أُغرم اثنان من المستخدمين أحدهما بالآخر وقررا الزواج فإن إلقاء اللوم عليهما يكون من خشونة الأخلاق؛ ولكن الذي أجده مزعجًا جدًّا هو ما يصدر عن أولئك الأشخاص - ومدبرات المنزل مذنبات هنا على نحو خاص - الذين لا يشعرون بالتزام حقيقي بإزاء مهنتهم ويتنقلون من مكان إلى مكان لا لشيء إلا بحثًا عن الغرام. هذا النوع من الأفراد يعتبر آفة من الآفات التي تصيب المهنية الجيدة.

ولكن دعني أقل على الفور إنني لا أعني الآنسة كنتون على الإطلاق حين أقول هذا القول. إنها بالطبع هي كذلك تركت، بالنتيجة، الخدمة معي لكي تتزوج، لكن بوسعي أن أشهد لها أنها خلال الوقت الذي عملت فيه مدبرة للمنزل تحت إمرتي لم تكن إلا مخلصة في عملها ولم تدَع لشيء قَطُّ أن يؤثر في أوليات مهنتها فكانت هذه تأتي عندها في مقدمة الأمور.

لكنني أستطرد كثيرًا. كنت أوضح أننا كنا بحاجة إلى مدبرة منزل وإلى مساعد رئيس خدم معًا وفي الوقت ذاته، وصلت الآنسة كنتون - تحمل رسائل توصية فائقة، كما أذكر جيدًا - لتتولى الوظيفة الأولى. وحدث أن كان أبي في هذا الوقت قد بلغ نهاية عمله في الخدمة المتميزة في قصر لفبورو بوفاة مخدومه السيد جون سيلفرز. كما كان حائرًا في بحثه عن عمل وعن مسكن. ومع أنه كان بالطبع لا يزال من رجال المهنة من أعلى مرتبة فإنه الآن في السبعينات ويفتك به التهاب المفاصل وغيره من العلل. فلم يكن إذن من الواضح على الإطلاق كيف سيستطيع منافسة السلالة الفتية من رؤساء الخدم المختصين بالمهنة أحسن اختصاص، الذين يبحثون عن وظائف؟ وبالنظر لهذا بدا لنا أن من الحلول المعقولة أن نطلب من والدي أن يقدم خبرته الواسعة وتميزه الكبير إلى قصر دارلنغتون.

وذات صباح، كما أتذكر، وبعد فترة وجيزة من انضمام والدي والآنسة كنتون إلى مجموعة المستخدمين، كنت في حجرتي أجلس إلى المنضدة للنظر في الأوراق الخاصة بعملي. أتذكر أنني جفلت قليلًا حين فتحت الآنسة كنتون الباب ودخلت قبل أن آذن لها جاءت تحمل آنية كبيرة من الأزهار وقالت مبتسمة:

«أظن، يا سيد ستيفنز، أن هذه ستجعل مكانك مشرقًا بعض الشيء».

«عفوًا، ماذا يا آنسة كنتون؟».

«من المؤسف أن تكون غرفتك مظلمة وباردة بهذا الشكل، يا سيد ستيفنز، في حين أن الشمس مشرقة في الخارج. وخطر لي أن هذه الأزهار ستشيع بعض البهجة في جو الغرفة».

«هذا لطف كبير منك يا آنسة كنتون».

«من المؤسف ألا تدخل أشعة الشمس إلى هنا. والجدران رطبة قليلًا، أليس كذلك يا سيد ستيفنز؟».

استدرت منصرفًا إلى حساباتي وأنا أقول: «مجرد تكاثف الهواء كما أعتقد يا آنسة كنتون».

وضعت آنية الأزهار على المنضدة أمامي، ثم جالت بنظرها في أطراف حجرتي وقالت مرة أخرى: «إذا رغبت يا سيد ستيفنز فسأجلب مزيدًا من الورد».

«يا آنسة كنتون، أنا أقدر لطفك مع الامتنان، ولكن هذه الغرفة ليست للتسلية. وأفضل أن تكون الأشياء التي تشوش انتباهي قليلة إلى الحد الأدنى».

«ولكن لا حاجة بالتأكيد، يا سيد ستيفنز، إلى الإبقاء على غرفتك مقفرة وخالية من الألوان».

«لقد خدمت الغرفة أغراضي على أحسن وجه كما هي حتى الآن، يا آنسة كنتون، ولو أني أقدر ما تقولين. أما وأنت الآن فإن عندي نقطة معينة أود أن أثيرها معك».

«حقًّا، يا سيد ستيفنز».

«نعم، يا آنسة كنتون، نقطة بسيطة فقط. صادف أنني كنت سائرًا أمام المطبخ بالأمس فسمعتك تنادين أحدهم باسم وليم».

«أهذا، يا سيد ستيفنز».

«بالضبط، يا آنسة كنتون. سمعتك بأذني تنادين مرارًا على «وليم». بودي أن أسألك من هو هذا الذي تخاطبينه بهذا الاسم؟».

«يا للغرابة يا سيد ستيفنز، فقد كنت أخاطب والدك. لا يوجد غيره بهذا الاسم في هذا المنزل على ما أعلم».

قلت مبتسمًا قليلًا: «إنها غلطة من السهل ارتكابها. وبودي أن أطلب منك يا آنسة كنتون أن تخاطبي أبي في المستقبل باسم «السيد ستيفنز». فإذا كنت ترجعين الاسم إلى شخص ثالث فلك إذن أن تسميه «السيد ستيفنز الكبير» للتفريق بينه وبيني. ولك جزيل امتناني يا آنسة كنتون».

ما إن قلت هذا حتى عُدت إلى أوراقي. ولكن الآنسة كنتون لم تغادر الغرفة مستأذنة مما أثار دهشتي. قالت بعد هنيهة:

«اسمح لي، يا سيد ستيفنز».

«تفضلي، يا آنسة كنتون».

«أخشى أنني لم أفهم جيدًا ما تقوله. لقد تعودت في الماضي أن أخاطب مساعدي الخدم بأسمائهم الأولى ولا أرى سببًا يدعوني إلى خلاف ذلك في هذا المنزل».

«هذه غلطة مفهومة جدًّا، يا آنسة كنتون. ولكن لو نظرت إلى الوضع قليلًا لرأيت عدم اللياقة في شخص مثلك وهو يتكلم «باستصغار» مع شخص مثل والدي».

«لا يزال من غير الواضح عندي الشيء الذي تقصده يا سيد ستيفنز. فأنت تقول شخصًا مثلي، ولكني، على ما أعلم، مدبرة المنزل هنا في حين أن والدك هو مساعد رئيس الخدم».

«إنه بحكم عنوانه مساعد رئيس الخدم بالطبع، كما تقولين. ولكني أستغرب لأن قوة ملاحظتك لم تجعل من الواضح لك أصلًا أنه في واقع الأمر أكثر من هذا. أكثر من هذا بكثير».

«لا شك أنني كنت على قدر كبير من ضعف الملاحظة يا سيد ستيفنز. لم ألاحظ إلا أن والدك هو مساعد رئيس خدم قدير وخاطبته وفق ذلك. لا بد أن الأمر أثار حنقه جدًّا أن يخاطب باسمه الأول من قبل شخص مثلي».

«يا آنسة كنتون، من الواضح من لهجتك أنكِ ببساطة لم تلاحظي والدي كما يجب. لو كنتِ فعلتِ ذلك لاتضح لك تمامًا عدم اللياقة من أحد بعمرك ومركزك يخاطبه باسم «وليم»».

«يا سيد ستيفنز، ربما لم أعمل مدبرة منزل طويلًا، ولكن قابلياتي خلال مدة عملي السابقة لاقت تقديرًا كريمًا».

«أنا لا أشك بكفاءتك أبدًا، يا آنسة كنتون، ولكن عشرات الأمور من شأنها أن تبين لك أن والدي هو شخص ذو امتياز فائق ولك أن تتعلمي منه الكثير لو أنك أدق ملاحظة».

«أنا مدينة لك بالفضل إلى أقصى حد عن هذه النصيحة يا سيد ستيفنز. لذا قل لي أرجوك بالضبط ما الأمور الرائعة التي أستطيع أن أتعلمها من ملاحظتي لوالدك؟».

«كنت أظن ذلك واضحًا لكل ذي عينين، يا آنسة كنتون».

«ولكننا اتفقنا أصلًا على أن هذا هو ما ينقصني على الأخص، أليس كذلك؟».

«يا آنسة كنتون، إذا كنتِ تشعرين أنك بعمركِ هذا قد بلغتِ الكمال أصلًا، فلن ترتقي أبدًا إلى الذرى التي أنتِ قديرة عليها بلا ريب. ولعل من واجبي أن أذكر، مثلًا، أنكِ لا تزالين في غالب الأحيان غير واثقة من التفاصيل ومن الشيء يوضع في هذا المكان أو ذاك ومن التفريق بين هذا الشيء وذاك».

بدا لي أن قولي هذا قد حد من اندفاع الآنسة كنتون بعض الشيء، بل ظهر عليها أنها اضطربت قليلًا. ثم قالت:

«واجهت بعض الصعوبة عند بداية وصولي، ولكن هذا أمر طبيعي جدًّا بالتأكيد».

«ها أنتِ أصبتِ الحقيقة يا آنسة كنتون. لو أنكِ راقبتِ أبي الذي وصل بعدكِ بأسبوع واحد لرأيتِ أن معرفته بالشؤون المنزلية هي معرفة كاملة وكانت كذلك منذ أن وضع قدمه لأول مرة في قصر دارلنغتون».

بدا على الآنسة كنتون أنها كانت تفكر بكلامي قبل أن تقول بشيء من انقباض النفس:

«أنا واثقة من أن السيد ستيفنز الكبير جيد جدًّا في عمله، ولكني أؤكد يا سيد ستيفنز أنني جيدة جدًّا في عملي. سأتذكر أن أخاطب والدك باسمه الكامل في المستقبل. والآن اسمح لي بالخروج».

بعد هذه المواجهة لم تحاول الآنسة كنتون أن تأتي بأزهار أخرى إلى حجرتي. وكانت على العموم، وهو أمر يسرني أن أتذكره، قد أخذت تستقر بشكل حسن جدًّا. كما كان من الواضح أنها مدبرة منزل تأخذ عملها مأخذًا جديًّا تمامًا، ولم تجد صعوبة تذكر، برغم شبابها، أن تكسب احترام المستخدمين العاملين بإمرتها.

لاحظت كذلك أنها باشرت فعلًا تخاطب أبي باسم «سيد ستيفنز». على أنني كنت ذات يوم عصرًا، ربما بعد أسبوعين من محادثتنا في حجرتي، أقوم بعمل ما في المكتبة حين دخلت الآنسة كنتون فقالت:

«آسفة يا مستر ستيفنز، ولكن إذا كنت تبحث عن ممسحة الغبار العائدة لك فإنها هناك في الردهة».

«المعذرة، فلم أفهم يا آنسة كنتون».

«ممسحة الغبار العائدة لك يا سيد ستيفنز. لقد تركتها هناك. هل أجلبها لك؟».

«يا آنسة كنتون، أنا لم أستعمل ممسحة غبار».

«حسنًا، سامحني إذن يا سيد ستيفنز. فقد افترضت بالطبع أنك كنت تستعمل ممسحة الغبار العائدة لك وتركتها في الردهة. أنا آسفة لإزعاجك».

بدأت تغادر المكتبة، ولكنها من ثم استدارت وهي في الباب وقالت:

«عفوًا، يا سيد ستيفنز. أنا مستعدة لإعادتها بنفسي ولكني يجب أن أصعد إلى الطابق العلوي الآن. هل ستتذكرها يا ترى؟».

«طبعًا، وشكرًا لك على تنبيهي».

«هذا من واجبي».

أصغيت إلى وقع قدميها وهي تخترق الردهة وتأخذ بصعود السلم الفاره، ثم اتجهت أنا إلى الباب. إن الذي يقف هناك عند باب المكتبة يرى أمامه ردهة الاستقبال ممتدة حتى الأبواب الرئيسة للمنزل. رأيت بشكل واضح جدًّا، في وسط الأرضية الخالية والمدهونة على أحسن وجه، ممسحة الغبار التي أشارت إليها الآنسة كنتون.

حسبت هذا خطأ تافهًا ولكنه خطأ مزعج؛ فممسحة الغبار كانت ستُرى بوضوح بيِّن لا من الأبواب الخمسة في الطابق الأرضي التي تنفتح على الردهة فحسب بل كذلك من السلم ومن شرفات الطابق الأول. عبرت الردهة والتقطت الشيء المؤذي قبل أن أدرك ما ينطوي عليه إدراكًا كاملًا؛ فقد تذكرت أن أبي كان يمسح مدخل الردهة قبل نصف ساعة أو نحو ذلك. وجدت في البداية أن من الصعب أن أنسب مثل هذا الخطأ إلى أبي. ولكني سرعان ما ذكرت نفسي بأن مثل هذه الزلات التافهة عرضة لأن تحدث لأي شخص بين

حين وآخر. ولذا فسرعان ما تحول انزعاجي إلى الآنسة كنتون لمحاولتها أن تخلق مثل هذه الجلبة التي لا داعي لها حول هذه الحادثة.
لم يمض على ذلك أكثر من أسبوع حتى حدث أن كنت أسير في الرواق الخلفي قادمًا من المطبخ فخرجت الآنسة كنتون من غرفتها وألقت كلامًا من الواضح أنها كانت قد تمرنت عليه؛ خلاصة ما قالته إنها وإن كانت تشعر بالحرج الشديد عندما تستلفت انتباهي إلى أخطاء يرتكبها المستخدمون التابعون لي ولكن علينا، هي وأنا، أن نعمل كفريق، وأنها ترجو مني ألا أتردد في تنبيهها إذا لاحظت أخطاء ترتكبها المستخدمات. ثم مضت إلى القول بأن عددًا من أدوات الأكل الفضية قد وُضعت على مائدة الطعام وعليها بقايا من دهون التلميع. كما أن أسنان إحدى الشوكات كانت سودًا تقريبًا. شكرتها فعادت إلى غرفتها. لم يكن من الضروري لها بالطبع أن تذكر أن الفضيات كانت من مسؤولية والدي الرئيسة وهي مسؤولية يفخر بها كثيرًا.
كان هناك فيما يُحتمل جدًّا عدد من الأمثلة الأخرى من هذا النمط وقد طواها النسيان الآن. ولكني أتذكر حادثة بلغت فيها الأمور قمتها عصر يوم كالح لا ينقطع فيه الرذاذ وكنت حينذاك في غرفة البليارد أعتني بكؤوس اللورد دارلنغتون الرياضية. دخلت الآنسة كنتون وقالت من الباب:
«لاحظت الآن، يا سيد ستيفنز، شيئًا في الخارج حيرني».
«وما هو يا آنسة كنتون؟».
«هل هي رغبة فخامة اللورد في أن يُنزل تمثال الصيني من مكانه في مدخل السلَّم في الطابق العلوي ويوضع خارج هذا الباب في مكان تمثال آخر؟».
«تمثال الصيني؟».
«نعم، يا سيد ستيفنز. تمثال الصيني الذي في أعلى السلَّم عادة، وستجده الآن خارج هذا الباب».
«أخشى أن الأمر قد التبس عليكِ قليلًا، يا آنسة كنتون».
«لا أعتقد بذلك على الإطلاق يا سيد ستيفنز. إني أجعل من واجبي أن أتعرَّف على الأمكنة الصحيحة للأشياء في المنزل. إن تمثال الصيني قد جرى تنظيفه على ما أفترض من قبل شخص ما ثم استُبدل خطأ. إن كنت تشك في قولي يا سيد ستيفنز فلعلك تتفضل بالخروج إلى هنا وتشاهد التمثال بنفسك».
«يا آنسة كنتون أنا مشغول في الوقت الحاضر».
«ولكن لا يظهر عليك أنك تصدق ما أقوله. لذا أطلب منك يا سيد ستيفنز أن تأتي إلى خارج هذا الباب وترى بنفسك».
«أنا مشغول الآن وسأهتم بالأمر قريبًا. فالمسألة ليست مستعجلة».
«أنت توافق إذن أنني لست مخطئة في الأمر».
«لا أوافق على أي شيء ما لم تسنح لي الفرصة لأنظر في المسألة. على أنني مشغول في الوقت الحاضر».

انصرفت إلى عملي، ولكن الآنسة كنتون ظلت واقفة في الباب تراقبني أخيرًا قالت:
«أعتقد أنك ستنهي عملك قريبًا جدًّا يا سيد ستيفنز. سأنتظرك في الخارج لكي يتم إنهاء هذه المسألة عند خروجك».
«يا آنسة كنتون، أعتقد أنكِ تولين هذه المسألة استعجالًا لا تستحقه».
ولكن الآنسة كنتون كانت قد انصرفت، إلا أني كنت أسمع وأنا مستمر في عملي وقع خطوات بين حين وحين أو أسمع صوتًا آخر مما يذكرني بأنها كانت ولا تزال في خارج الباب. لذلك قررت أن أشغل نفسي ببعض الأعمال الأخرى في غرفة البليارد مفترضًا أنها ستكتشف بعد حين خطل الوضع الذي هي فيه فتترك المكان. بيد أنه بعد مضي بعض الوقت، وأنا قد استنفدت الأعمال التي يمكن أن أنجزها بالعدة التي كانت معي، ظهر لي أن الآنسة كنتون لا تزال في الخارج. فعقدت العزم على ألا أبدد مزيدًا من الوقت على هذا الأمر الصبياني، وفكرت بالمغادرة عن طريق النوافذ الواسعة. كانت العقبة أمام هذه الخطة هي الجو - أي وجود عدد من برك الأوحال الكبيرة وبقع الطين بادية للعيان - ثم إن على المرء أن يعود إلى غرفة البليارد مرة أخرى في إحدى المراحل وذلك لغلق النوافذ الواسعة بالمزلاج من الداخل. وأخيرًا قررت أن خير وسيلة لي هي أن أهرع خارجًا من الغرفة فجأة بخطى سريعة جدًّا. لذا تهيأت واتخذت بهدوء موقعًا يمكنني منه أن أنفذ مسيرتي الباغتة، وهكذا احتضنت عدتي بقوة وأفلحت في أن أقذف بنفسي من خلال الباب فما هي إلا عدة خطوات في الممر قبل أن تستطيع الآنسة كنتون المندهشة قليلًا أن تسترد صوابها. على أنها استردت صوابها سريعًا، وإن هي إلا لحظة واحدة حتى كانت قد تجاوزتني فوقفت أمامي وسدت عليَّ الطريق سدًّا.
«يا سيد ستيفنز، تمثال الصيني هذا هو في موقعه غير الصحيح، ألا توافق على ذلك؟».
«أنا، يا آنسة كنتون، مشغول جدًّا. وأستغرب ألا يكون لديك شيء تفعلينه أفضل من الوقوف في الممرات طول النهار».
«أهذا هو المكان الصحيح للتمثال يا سيد ستيفنز أم لا؟».
«يا آنسة كنتون، أنا أطلب منك أن تخفضي من صوتك».
«وأنا أطلب منك يا سيد ستيفنز، أن تستدير وتنظر إلى ذلك التمثال».
«اخفضي صوتك رجاء يا آنسة كنتون. ماذا سيقول الخدم وهم يسمعوننا نتصايح بأعلى الأصوات عن التمثال وهل هو في مكانه الصحيح أم لا؟».
«الواقع يا سيد ستيفنز أن التماثيل كلها في هذا البيت ظلت وسخة لبعض الوقت. والآن وُضعت في أماكن غير صحيحة».
«يا آنسة كنتون، أنت تتكلمين كلامًا سخيفًا جدًّا. فهل تسمحين لي الآن بأن أمر في طريقي؟».
«يا سيد ستيفنز، هل تتفضل وتنظر إلى التمثال خلفك؟».

«إذا كان هذا مهمًّا جدًّا لك يا آنسة كنتون فسأقول وأمري إلى الله إن التمثال الذي خلفي قد يكون في غير موضعه الصحيح. ولكن يجب أن أقول أيضًا إنني لا أفهم سبب اهتمامك الشديد هذا بهذه الأخطاء التافهة جدًّا».

«هذه الأخطاء قد تكون تافهة بذواتها، يا سيد ستيفنز، ولكن عليك أن تدرك مغزاها الأكبر».

«يا آنسة كنتون، أنا لا أفهم ما تقصدين. فهل تسمحين لي الآن بأن أمر في طريقي؟».

«الحقيقة يا سيد ستيفنز هي أن والدك قد عُهد إليه من الأعمال أكثر بكثير جدًّا مما يستطيع أداءها رجل بسنه».

«يا آنسة كنتون، من الواضح أنك لا تعرفين ما تقولين».

«لا بل أعرف. فمهما كان والدك فيما مضى فإن قواه الآن قد اضمحلت كثيرًا. وهذا هو ما تعنيه هذه «الأخطاء التافهة» كما تسميها، فإن لم تلتفت إليها فلن يطول الزمن قبل أن يرتكب والدك خطأً جسيمًا».

«أنتِ، يا آنسة كنتون، تجعلين من نفسك حمقاء».

«آسفة، يا سيد ستيفنز، ولكني يجب أن أستمر في كلامي. أنا أعتقد أن هناك عددًا من الواجبات يجب أن يُعفى والدك منها. يجب ألا يُطلب منه بعد الآن أن يحمل الأطباق المحملة بالأواني. فمن المفزع أن تراه يحملها بيديه المرتجفتين إلى العشاء. وإنها بالتأكيد مسألة وقت فقط فإذا بما يحمله يسقط من يديه في حجر سيدة أو سيد من الجالسين إلى المائدة. فضلًا عن ذلك فأنا آسفة جدًّا أن أقول ما سأقوله يا سيد ستيفنز، فقد لاحظت أنف والدك».

«حقًّا؟».

«نعم، وأنا آسفة. ففي الليلة قبل الماضية راقبت والدك يذهب ببطء شديد إلى قاعة الطعام حاملًا «الصينية»، فلاحظت بوضوح قطرة كبيرة تتدلى من أنفه فوق أواني الحساء. ولا أظن أن مثل هذا الأسلوب في خدمة الآكلين يثير شهيتهم للطعام كثيرًا».

غير أني إذ أمعن التفكير بهذا الحادث الآن أشعر بأنني لست واثقًا أن الآنسة كنتون قد تكلمت على هذا النحو الجسور جدًّا في ذلك اليوم. لقد كان يبلغ بنا الأمر، بالطبع، على مدى السنين من العمل المشترك، أن نتبادل بعض الكلام الصريح جدًّا. ولكن اليوم الذي أتحدث عنه كان من أوائل الأيام في علاقتنا، ولا يسعني أن أتصور حتى الآنسة كنتون وهي بمثل هذه الوقاحة. ولست متأكدًا إن كانت تستطيع فعلًا أن تذهب إلى حد التفوه بأقوال مثل: «هذه الأخطاء قد تكون تافهة بذواتها، ولكن عليك أن تدرك مغزاها الأكبر». والواقع أني أشعر الآن وأنا أفكر بهذا، أن اللورد دارلنغتون نفسه قد يكون هو الذي أبدى لي تلك الملاحظة بعينها حين استدعاني إلى مكتبه بعد حوالي الشهرين من تلك

المراشقة مع الآنسة كنتون خارج غرفة البليارد. كان الوضع بشأن أبي، عندما كلمني اللورد دارلنغتون، قد تغير كثيرًا على أثر سقوطه.

إن أبواب المكتبة هي تلك التي تواجه المرء عند نزوله السلم. يوجد في خارج المكتبة اليوم خزانة زجاجية عُرضت فيها زخارف الزينة المختلفة العائدة للسيد فاراداي، أما في أيام اللورد دارلنغتون فقد كانت تقوم في ذلك المكان رفوف تحوي عددًا من الموسوعات بضمنها المجموعة الكاملة للموسوعة البريطانية. كان من حيل اللورد دارلنغتون أن يقف أمام تلك الرفوف متدارسًا ما هو مكتوب على كعوب مجلدات الموسوعة عند نزولي السلّم، وكان أحيانًا يسحب مجلدًا من الرف ويتصنع الاستغراق فيه عند إكمالي النزول، وذلك لكي يزيد من أثر اللقاء العرضي. عندئذ، ما إن أمر من أمامه حتى يقول: «أوه، ستيفنز، لديَّ شيء بودي أن أقوله لك». ثم يعود إلى مكتبه ولا تزال عليه كل مظاهر الاستغراق في المجلد المفتوح بين يديه. كان حرجه مما يريد الإفصاح عنه هو الذي يجعله يتخذ هذا المدخل للحديث، بل كان في الغالب، حتى بعد غلق باب المكتبة من ورائنا، يقف عند النافذة ويتظاهر بمراجعة الموسوعة طوال حديثنا.

بهذه المناسبة فإن ما أصفه الآن ما هو إلا مثل واحد من أمثلة متعددة أستطيع أن أرويها لك حتى أبرز طبيعة اللورد دارلنغتون، وكانت بشكل جوهري طبيعة حييَّة ومتواضعة. لقد قيل وكُتب الكثير من الهُراء في السنين الأخيرة بشأن فخامته وبشأن الدور البارز الذي كان له أن يؤديه في شؤون كبرى، كما أن بعض التقارير المفعمة بالجهل المطبق قد أفادت بأنه كان مدفوعًا بدافع الأنانية، وإلا فبدافع الغطرسة. دعني أقل هنا إن هذا هو أبعد شيء عن الحقيقة. لقد كان من المناهض كليًّا لميول اللورد دارلنغتون الطبيعية أن يتخذ مثل تلك المواقف العامة التي كان له أن يتخذها، وبوسعي أن أقول باعتقاد جازم إن فخامته لم يتغلب على استحيائه إلا من خلال إحساسه العميق بالواجب الأخلاقي. ومهما قد يقال عن فخامته في هذه الأيام - وأغلب ما يقال كما ذكرت هو هُراء محض - فبوسعي أن أعلن أنه كان رجلًا طيب القلب حقًّا، رجلًا مهذبًا في ظاهره وباطنه، وإني لفخور اليوم أن كنت أنفقت خيرة أعوامي في خدمته.

في عصر ذلك اليوم الذي سأتكلم عنه الآن كان فخامة اللورد لا يزال في أواسط الخمسينات من عمره؛ ولكن شعره كما أتذكر كان قد غزاه المشيب، كما أن قامته الطويلة النحيفة كانت قد علتها أصلًا انحناءة كان لها أن تزداد انحناء في أعوامه الأخيرة. لم يرفع نظره من كتابه حين سألني قائلًا:

«هل إن والدك بحال أحسن الآن، يا ستيفنز؟».

«نعم، يا سيدي. ويسرني أن أقول إنه قد استعاد عافيته كاملة».

«يسرني جدًّا أن أسمع هذا. يسرني جدًّا».

«شكرًا لك، سيدي».

«لكن اسمع يا ستيفنز، هل هناك أية - أية - علامات على الإطلاق. أعني علامات تفيد بأن والدك ربما يكون راغبًا في تخفيف العبء عنه بعض الشيء؟ وهذا بصرف النظر عن مسألة سقوطه».

«إن والدي، يا سيدي، يبدو كما قلت لكم أنه استعاد عافيته كاملة، وأعتقد أنه لا يزال شخصًا يُعتمد عليه إلى حد كبير. صحيح أن غلطة أو اثنتين قد لوحظتا مؤخرًا في قيامه بواجباته ولكنهما في كل الأحوال من النوع التافه جدًّا».

«ولكننا جميعًا لا نرغب في أن يتكرر شيء من ذلك النوع مرة أخرى، أليس كذلك؟ أعني، والدك يسقط وما إلى ذلك».

«أجل يا سيدي، لا نرغب في ذلك».

«وبالطبع، إذا كان من الممكن أن يحدث سقوطه على ساحة العشب فإن من الممكن أن يحدث ذلك في أي مكان. وفي أي وقت».

«نعم، يا سيدي».

«قد يحدث ذلك مثلًا خلال العشاء حين يقوم والدك على خدمة المائدة».

«هذا ممكن، يا سيدي».

«اسمع يا ستيفنز. سيكون وصول أوائل المندوبين إلى هنا بعد أقل من أسبوعين».

«نحن على أتم استعداد يا سيدي».

«ما سيحدث في داخل هذا البيت عندئذ قد تكون له آثار بعيدة المدى».

«نعم، سيدي».

«أعني بعيدة المدى جدًّا. على مجرى الأمور كلها في أوروبا. ولا أحسبني مبالغًا، بالنظر للأشخاص الذين سيحضرون».

«كلَّا، سيدي».

«ليس هذا إذن هو الوقت الذي نجازف فيه بمخاطر يمكن تجنبها».

«حقًّا، سيدي».

«اسمع يا ستيفنز. إن ترك والدك لنا ليس موضع بحث. وأنا لا أطلب منك سوى أن تعيد النظر بواجباته». كان عندئذ، على ما أعتقد، أن فخامة اللورد وهو ينظر مرة أخرى في كتابه وهو يشير بأصبعه إلى فقرة ما من فقرات الكتاب بشكل مصطنع: «هذه الأخطاء قد تكون تافهة بذواتها، يا ستيفنز، ولكن عليك أن تدرك مغزاها الأكبر. إن أيام الاعتماد على والدك قد ولَّت الآن. ويجب ألا يُطلب منه القيام بأعمال يمكن لأي خطأ فيها أن يعرض للخطر نجاح مؤتمرنا القادم».

«حقًّا يا سيدي. وأنا أفهم هذا كل الفهم».

«طيب. سأترك لك إذن أن تفكر بذلك يا ستيفنز».

يجب أن أقول إن اللورد دارلنغتون قد شهد بنفسه سقوط والدي قبل أسبوع أو نحو ذلك. كان فخامته يستقبل ضيفين، سيدة شابة وأحد الذوات، في

السقيفة الصيفية في الحديقة، وكان يراقب والدي وهو يتقدم نحوهم عبر ساحة العشب الخضراء حاملًا ما لذ وطاب. الساحة الخضراء ترتفع منحنية على مسافة بضع ياردات أمام السقيفة، وكانت هناك كما هي الحال اليوم أربع بلاطات مدفونة في العشب تُتخذ كدرجات لتسلق هذا المنحنى. وكان عند هذه الدرجات أن سقط والدي فتناثر حمله من بين يديه - إبريق الشاي والأكواب والشطائر والحلوى - متساقطًا على العشب في أعلى الدرجات. وعندما تلقيت الخبر وخرجت إلى هناك وجدت فخامة اللورد وضيفيه قد مددوا والدي على جنبه، وكان قد جيء بمتكأ وبساط من السقيفة اتخذا كوسادة ودثار. كان والدي فاقد الوعي ووجهه أملح اللون بشكل غريب. كذلك كان الدكتور مريديث قد استُدعي أصلًا، ولكن فخامة اللورد رأى أن من الضروري نقل والدي خارج ضياء الشمس قبل وصول الطبيب؛ لذا جيء بكرسي الدفع فنُقل والدي بشيء من الصعوبة إلى داخل البيت. وعند وصول الدكتور مريديث كان أبي قد استرد وعيه إلى حد كبير وسرعان ما غادر الطبيب وهو يبدي تشخيصًا غامضًا لحالته مفاده أن أبي ربما كان «يفرط في العمل».

ولا يخفى أن الوضع بأسره كان محرجًا لأبي إحراجًا كبيرًا، ولكنه، عندما جرت تلك المحادثة في مكتبة اللورد دارلنغتون، كان قد عاد إلى الانصراف إلى أعماله كالسابق تمامًا. لذا لم تكن مفاتحته بموضوع التقليل من مسؤولياته بالمسألة السهلة. وكان مما يزيد في تفاقم صعوبتي أننا، والدي وأنا، كنا لعدد من السنين نميل بصورة متزايدة إلى الإقلال من مطارحة الكلام لسبب ما لم أستطع قَطُّ أن أسبر غوره على حقيقته. كان الأمر كذلك بحيث إننا، بعد وصول أبي إلى قصر دارلنغتون، كنا لا نتبادل حتى الكلام المقتضب الضروري لتبليغ المعلومات بشأن العمل إلا في جو من الحرج المتبادل.

في النهاية رأيت أن أفضل الخيارات هو أن نتحدث في خلوة حجرته. وبذلك أعطيه الفرصة ليتفكر في وضعه الجديد على انفراد بعد أن أستأذن بالخروج. كان الوقت الوحيد الذي يمكن لنا فيه أن نجد والدي في حجرته هو أول بداية الصباح وآخر نهاية الليل. فاخترت الوقت الأول وتسلقت السلَّم إلى علِّيَّته الصغيرة فوق جناح الخدم ذات صباح باكر وطرقت الباب برفق.

نادرًا ما دعتني الحاجة إلى دخول حجرة والدي قبل هذه المناسبة ولقد صُدمت مجددًا بصغرها وعريها. بل حسبت في ذلك الحين أنني أدخل إلى زنزانة في السجن. ولكني أعود فأقول إن هذا الشعور ربما كانت له علاقة بضياء الفجر الباهت بقدر ما له من علاقة بحجم الحجرة أو بعري حيطانها. ذلك أن أبي كان قد فتح الستائر وكان جالسًا، وقد حلق ذقنه وارتدى بزة العمل بكاملها، على حافة سريره حيث كان كما هو بيِّن يراقب السماء في استقبالها للفجر. فالذي يفترضه المرء في أقل تقدير هو أنه كان يراقب السماء، إذ لم يكن هناك من شيء يشاهد من نافذته الصغيرة سوى آجر السقوف وميازيب الأمطار. كان السراج الزيتي بجنب سريره قد أُطفئ، وعندما رأيت أبي يرمق

بامتعاض المصباح الذي أحمله لينير طريقي وأنا أصعد السلّم المتداعي أسرعت إلى تنزيل الفتيل. ما إن فعلت ذلك حتى لاحظت بجلاء أشد الضياء الباهت الداخل إلى الحجرة والطريقة التي بها ينير هذا الضياء وجه أبي وحدود قسماته المتغضنة، الموخوطة، التي لا تزال تثير الروع.

قلت وأنا أطلق ضحكة قصيرة: «آه، كان يجب أن أعرف أن الوالد سيكون مستيقظًا ومستعدًّا لعمل اليوم».

قال وهو يتأملني ببرود: «كنت مستيقظًا منذ الساعات الثلاث الأخيرة».

«آمل ألا يكون السبب هو آلام المفاصل».

«أنا أحصل على ما أحتاج إليه من النوم».

اتجه أبي بجسمه نحو الكرسي الوحيد في الغرفة، وهو مقعد خشبي صغير، ووضع كلتا يديه على ظهره فأقام نفسه على قدميه. حينما رأيته يقوم واقفًا أمامي لم أستطع أن أعرف أكان احديدابه بسبب الوهن أم كان بسبب التعود على الانحناء تحت سقف الحجرة المنحدرة كل الانحدار.

«جئتك يا أبتِ لكي أقول لك شيئًا».

«قله إذن باختصار وتحديد. لا وقت لديَّ صباحًا لأسمعك وأنت تثرثر».

«في هذه الحالة سأتكلم، يا أبتِ، بلا لف أو دوران».

«تكلم بلا لف أو دوران وانته. فبعضنا لديه عمل ينتظره».

«حسن جدًّا. وبما أنك تريدني أن أختصر فسأبذل جهدي لتنفيذ ما تريد. الحقيقة هي أن الوالد قد أصبح عليلًا واهنًا بشكل متزايد. وهذا إلى حدٍّ أصبحت معه الآن حتى واجبات مساعد رئيس الخدم أكثر من طاقته. ويرى فخامة اللورد، كما أرى أنا شخصيًّا أيضًا، أن الوالد إذا استمر في واجباته الحالية فسيكون بمثابة تهديد دائم للإدارة السليمة لهذا المنزل، لا سيما للاجتماع الدولي المهم الذي سيعقد في الأسبوع القادم».

لم يظهر على وجه أبي، في الضياء الباهت، أي اعتلاج عاطفي.

واصلت كلامي قائلًا: «الرأي هو بالأساس ألا يُطلب من الوالد بعد الآن أن يقوم على خدمة المائدة سواء عند وجود الضيوف أو عدمه».

قال والدي بصوت متأنٍّ جدًّا: «لقد قمت على خدمة المائدة في كل يوم في الأربع والخمسين سنة الماضية».

«وتقرر أيضًا ألا يحمل أبي أطباقًا محملة بالأواني من أي نوع من الأنواع حتى إلى أقصر المسافات. وبالنظر لهذه القيود، ولعلمي بتبجيلكم للدقة، دونت هنا في هذه القائمة الواجبات المعدلة التي يُرجى من الوالد القيام بها من الآن فصاعدًا».

شعرت بالتردد في تسليمه القصاصة التي كنت أحملها في يدي، لذا وضعتها على طرف فراشه. رمقها أبي ثم عاد يحملق بي. لم يظهر على ملامحه أي أثر من آثار الاعتلاج العاطفي الذي يمكن تبينه، وكانت يداه على ظهر المقعد مسترخيتين تمامًا. وسواء كان محدودبًا أم لا كان مِن المستحيل عليَّ ألا أتذكر

التأثير المحض لقوة حضوره الجسماني - ذلك التأثير نفسه الذي صعق اثنين من السادة السكارى ذات يوم وأعادهما إلى صوابهما في مقعدهما الخلفي من السيارة. قال أخيرًا:

«إني لم أسقط تلك المرة إلا بسبب تلك الدرجات. إنها مائلة ومعقوفة. يجب إخبار سيموس ليقوم بإصلاحها قبل أن يسقط غيري».

«فعلًا، وعلى أية حال، هل تطمئنونني بأنكم ستدرسون هذه الورقة؟».

«يجب إخبار سيموس ليقوم بإصلاح تلك الدرجات. لا بد أن يتم ذلك بالتأكيد قبل وصول أولئك السادة من أوروبا».

«فعلًا، والآن أسعدت صباحًا يا أبتِ». إن ذلك الأصيل الصيفي الذي تشير إليه الآنسة كنتون في رسالتها كان بعد تلك المواجهة بيني وبينها بوقت قصير - بل ربما كان في ذلك اليوم ذاته. لا أستطيع أن أتذكر الآن الغرض الذي صعدت من أجله إلى الطابق الأعلى في المنزل حيث تمتد غرف نوم الضيوف صفًّا واحدًا في الرواق. ولكني، كما أظنني قلت سابقًا، أستطيع أن أتذكر بوضوح تام الطريقة التي كانت بها آخر أشعة النهار تدخل من كل باب مفتوح وتسقط عبر الرواق في حزم برتقالية. وما إن مشيت من أمام تلك الغرف غير المسكونة حتى كان جسم الآنسة كنتون، كأنه خيال الظل بإزاء نافذة داخل إحدى الغرف، يشير إليَّ وينادني.

حين يفكر المرء بهذا، وحين يتذكر الطريقة التي بها كانت الآنسة كنتون تتكلم عن أبي مرارًا وتكرارًا أمامي وخلال تلك الأيام الأولى من خدمتها في قصر دارلنغتون، يبدو أن لا عجب في أن تظل ذكرى ذلك الأصيل حيَّة في ذهنها طوال هذه السنين. لا ريب أنها كانت تحس بشعور معين بالذنب إذ كنا نحن الاثنين نراقب من نافذتنا شخص أبي في الأسفل. كانت ظلال أشجار الحور قد سقطت فمالت على الجزء الأكبر من ساحة العشب الخضراء، ولكن الشمس كانت لا تزال تضيء الطرف الأقصى حيث ينحني المرج مرتفعًا نحو السقيفة الصيفية. كنا نرى أبي واقفًا قرب تلك الدرجات الحجرية الأربع مستغرقًا في التفكير. النسيم يلاعب شعره. ثم صعد الدرجات ببطء شديد. وصل إلى الأعلى فاستدار ونزل، أسرع قليلًا. وعندما استدار مرة أخرى وقف بلا حراك لثوانٍ معدودات، متأملًا في الدرجات أمامه. أخيرًا، صعدها مرة ثانية، بتأنٍّ شديد. في هذه المرة واصل سيره على العشب حتى كاد يصل إلى السقيفة، ثم استدار وعاد يمشي بتؤدة، وعيناه لا تتركان النظر إلى الأرض قَطُّ. والحق أنني لا أستطيع أن أصف وضعه في تلك اللحظة أحسن مما وصفته الآنسة كنتون في رسالتها، فقد كان فعلًا «كأنه يرجو أن يعثر على جوهرة ثمينة أسقطها هناك».

لكنني أرى أنني أخذت أنشغل بهذه الذكريات كثيرًا، ولعل هذا أمر على جانب غير قليل من الحماقة. فهذه الرحلة تمثل، على كل حال، فرصة نادرة لي لكي أستمتع إلى أقصى حد بمباهج الريف الإنجليزي، وأنا أعلم بأني سأندم

كثيرًا إذا أبحت لنفسي أن أنصرف عن هذه المباهج بشكل لا مبرر له. والواقع أني ألاحظ أن عليَّ بعد أن أسجل هنا كل شيء عن رحلتي إلى هذه المدينة - إلى جانب ما ذكرت باختصار عن ذلك التوقف في طريق الهضبة عند بداية السفرة. إن هذا لإهمال حقًّا، لا سيما أن سياقتي بالأمس كانت ممتعة لي كثيرًا.

لقد خططت للرحلة إلى هنا بعناية فائقة، فتجنبت إلى حد كبير الطرق الرئيسة؛ وقد يبدو خط الرحلة للبعض ملتويًا بشكل لا ضرورة له، ولكنه مكَّنني أن أشاهد عددًا لا بأس به من المناظر التي أوصت بها السيدة سايمونز في كتبها الممتازة، ولا بد لي أن أقول إنني مسرور تمامًا باختياري. سار بي خط الرحلة أغلب الوقت وسط أراضٍ زراعية بين شذا الحقول وروائحها اللطيفة، وكثيرًا ما أبطأت سرعة سيارة الفورد حتى كانت كأنها تحبو لكي أتملى جيدًا غديرًا أو واديًا مررت به.

ولكنني كما أتذكر لم أنزل من السيارة مرة أخرى حتى كنت على مقربة من سالزبوري.

كنت في ذلك الحين أسير في طريق طويل، مستقيم، والحقول على جانبيه. والحقيقة أن الأرض غدت مفتوحة ومنبسطة جدًّا هناك مما مكَّنني أن أرى إلى مسافة بعيدة في جميع الجهات، كما أن برج كاتدرائية سالزبوري أصبح مرئيًّا على الأفق أمامي. شعرت بالسكينة تغمرني، فكنت لهذا السبب على ما أعتقد أسوق السيارة ببطء شديد مرة أخرى - ربما بسرعة لا تزيد عن خمسة عشر ميلًا في الساعة. وكان هذا شيئًا حسنًا أيضًا لأنني رأيت في الوقت المناسب دجاجة تعبر الدرب على مهلها تمامًا. أوقفت السيارة على مسافة لا تزيد عن قدم أو قدمين من هذا الطير، فإذا به بدوره يوقف عبوره، متوقفًا هناك في وسط الطريق أمامي. وعندما لم يتحرك لجأت إلى منبه السيارة، ولكن هذا لم يكن له أثر سوى أن جعل هذا الكائن يبدأ بنقر شيء ما على الأرض. حنقت بعض الشيء وأخذت أترجل، وقد كانت إحدى قدمي لا تزال على العارضة حين سمعت صوت امرأة تنادي:

«أوه، أرجو معذرتك يا سيدي».

أجلت نظري من حولي فعرفت أنني جاوزت توًّا كوخًا ريفيًّا يقوم على جانب الطريق - ومنه جاءت تركض فتاة بمئزرها وقد أثار انتباهها بلا شك منبه السيارة. ما إن مرت الفتاة من أمامي حتى انقضَّت على الدجاجة وحملتها بين ذراعيها وأخذت تهدهدها وهي تعتذر مني مرة أخرى. وحين أكدت لها أن لم يقع أي ضرر قالت:

«أشكر لك توقفك وعدم دهسك نيللي المسكينة. إنها رائعة، وتزودنا بالبيض من أكبر الأحجام. إنه لطف كبير منك أن تقف. ولعلك كنت على عجل أيضًا».

قلت مبتسمًا: «لا، لست على عجل على الإطلاق. هذه هي المرة الأولى منذ سنوات عديدة أتمكن فيها أن أتمهل في أمري، ويجب أن أقول إنها تجربة ممتعة. أنا أقوم بهذه السياقة لمحض المتعة».

«هذا شيء لطيف يا سيدي. وأنتم في طريقكم إلى سالزبوري كما أتوقع».

«أنا في طريقي إليها فعلًا. وها هي الكاتدرائية ونستطيع رؤيتها هناك، أليس كذلك؟ يقال إنها بناية بديعة جدًّا».

«نعم يا سيدي، إنها لطيفة جدًّا، وأقول لك الحقيقة فأنا لا أذهب شخصيًّا إلى سالزبوري إلا نادرًا، لذا لا يمكنني أن أقول بالضبط كيف تبدو البناية من قرب. لكني أقول، يا سيدي، إننا نرى البرج من هنا يوميًّا. في بعض الأيام يكون الضباب كثيفًا فيختفي البرج تمامًا، أما في يوم مشرق كهذا فإن البرج منظر لطيف كما ترون».

«شيء رائع».

«أنا ممتنة لكم يا سيدي إذ لم تدهسوا دجاجتنا نيللي. قُتلت لنا قبل ثلاث سنوات سلحفاة إذ دهستها سيارة في هذا المكان بالضبط. فأزعجنا ذلك كثيرًا».

قلت باكتئاب: «شيء مأساوي حقًّا».

«نعم يا سيدي، كان مأساويًّا. بعض الناس يقول إن الفلاحين يتعودون على رؤية الحيوانات تُؤذى أو تُقتل، ولكن هذا غير صحيح أبدًا. ولدي الصغير بكى على السلحفاة أيامًا. ما أحسن ما فعلته لأنك توقفت من أجل نيللي يا سيدي، هل ترغب في الدخول فتتناول كوبًا من الشاي، الآن وقد نزلت من السيارة وتحملت ما تحملت، على الرحب والسعة».

«هذا لطف كبير، لكني يجب أن أواصل السير. أودُّ أن أصل إلى سالزبوري قريبًا لكي أشاهد مفاتن المدينة».

«نعم يا سيدي، وشكرًا لكم مرة أخرى».

بدأت السياقة وأخذت أحافظ على سرعتي البطيئة كالسابق، ربما لأنني توقعت مزيدًا من مخلوقات الحقول وهي تتهادى أمامي. ويجب عليَّ أن أقول إن شيئًا ما نبع من هذا اللقاء البسيط قد أنعش نفسيتي؛ فاللطف البسيط الذي أبديته وشُكرت عليه، واللطف البسيط الذي أبدي لي بالمقابل، جعلني أشعر بتفاؤل فائق بشأن ما سألاقي في الأيام القادمة. وإنه لبمثل هذه النفسية، إذن، أن واصلت السير من هنا إلى سالزبوري.

ولكني أشعر بأن عليَّ أن أعود لحظة إلى مسألة أبي؛ ذلك أنني أحس كأنني أشعرت القارئ آنفًا أنني عاملته بشيء من الصراحة الحادة فيما يتعلق بقدراته المضمحلة. والحقيقة لم يكن أمامي من خيار سوى أن أطرق المسألة على النحو الذي فعلته - وأنا واثق أنك ستتفق معي بعد أن أوضح الوضع الذي كنَّا فيه في تلك الأيام. والذي أعنيه هو أن المؤتمر الدولي المهم الذي كان

سينعقد في قصر دارلنغتون كان في ذلك الحين يخيِّم علينا، فلا يترك لنا مجالًا للتساهل بشيء، أو يتيح لنا أن نحوم حول الأمور من دون حسمها. هذا ومن المهم التذكير بأن قصر دارلنغتون، وإن كان سيشهد عددًا آخر من الأحداث المهمَّة جدًّا على مدى خمس عشرة سنة أخرى، ولكن ذلك المؤتمر المنعقد في آذار ١٩٢٣ كان أول تلك الأحداث التي سيشهدها القصر؛ وقد كنت أنا على ما أفترض قليل التجربة نسبيًّا، ولكني لم أكن أميل إلى ترك أي أمر من الأمور إلى المصادفة. والواقع أنني غالبًا ما أسترجع في ذهني ذلك المؤتمر فأعتبره - لأكثر من سبب واحد - بمثابة نقطة تحول في حياتي. أنا أعتبره فعلًا، من بعض النواحي، بصفته ذلك الوقت من عملي في المهنة الذي نضجت فيه حقًّا بوصفي رئيسًا للخدم. وهذا لا يعني أنني أصبحت بالضرورة، فيما أرى، رئيس خدم «عظيمًا»؛ فإصدار حكم من هذا القبيل لا يعود لي على أية حال. ولكن إذا عنَّ لأحد ما أن يعرض بأنني قد بلغت في الأقل شيئًا من تلك الصفة الجوهرية التي تُسمى «الوقار» خلال مهنتي فله إذا شاء أن يتخذ من ذلك المؤتمر في آذار ١٩٢٣ باعتباره يمثل الوقت الذي أظهر فيه لأول مرة أنني ربما لديَّ الطاقة على مثل هذه الصفة. كان ذلك المؤتمر حدثًا من تلك الأحداث التي تقع، في مرحلة حاسمة من مراحل تطور المرء، فتضعه أمام التحدي وتختبره بجعله يبذل أقصى طاقته وزيادة، بحيث تصبح لديه فيما بعد مستويات جديدة يحكم بموجبها على نفسه. كان ذلك المؤتمر أيضًا حدثًا مشهودًا بالطبع وذلك لأسباب أخرى غير هذه، كما أودُّ أن أبيِّن الآن.

كان مؤتمر ١٩٢٣ ذروة تخطيط طويل من جانب اللورد دارلنغتون؛ بل إن المرء ليرى بوضوح عند إرجاع البصر إلى الوراء كيف كان فخامته يتقدم صوب هذه النقطة منذ ثلاث سنوات أو نحوها. وكما أتذكر لم يكن اللورد في البداية منشغلًا هذا الانشغال بمعاهدة السلام حين كُتبت في نهاية الحرب العظمى، وأظن أن من الصحيح أن أقول إن اهتمامه لم يكن وليد التحليل للمعاهدة وإنما وليد صداقته مع الهر كارل - هاينز بريمان.

كانت زيارة الهر بريمان الأولى لقصر دارلنغتون بعد الحرب بفترة قصيرة جدًّا وكان لا يزال يرتدي بزته العسكرية برتبة ضابط، وقد اتضح للجميع أنه واللورد دارلنغتون قد ارتبطا برباط صداقة وثيقة. لم يثر هذا الأمر دهشتي، فالمرء يستطيع أن يرى من النظرة الأولى أن الهر بريمان كان رجلًا مهذبًا ومحترمًا جدًّا. وقد عاد إلى زيارة القصر بعد تركه الجيش الألماني مرات عديدة في فترات منتظمة خلال السنتين التاليتين، ولم يكن للمرء إلا أن يلاحظ بشيء من الفزع حالة التردي التي كانت تتفاقم في ظهورها عليه بين زيارة وأخرى. وقد غدت ملابسه رثة، وأمسى هيكله نحيلًا؛ وبدت في عينيه ملامح الرجل المضطهد؛ وكان في زياراته الأخيرة يقضي وقتًا طويلًا وهو يحملق في الفضاء غافلًا عن وجود فخامة اللورد معه أو غافلًا أحيانًا حتى عن الكلام الذي يوجهِ إليه. كنت سأستنتج من ذلكِ أن الهر بريمان إنما كان يعاني مرضًا خطيرًا

لولا أنني سمعت تلميحات معينة أبداها فخامة اللورد في ذلك الوقت أكدت لي أن الأمر ليس كذلك. لا بد أن التاريخ كان في نهاية ١٩٢٠ حين قام اللورد دارلنغتون برحلته الأولى من بين رحلات متعددة إلى برلين، وإني لأتذكر الأثر العميق الذي كانت تتركه تلك الرحلات عليه. كان يخيِّم عليه جو ثقيل من انشغال البال لمدة أيام بعد عودته، وأذكر أنني سألته مرة عن سفرته وكيف كان استمتاعه بها فأجابني يقول: «شيء مقلق يا ستيفنز. مقلق جدًّا. إن من المخزي لنا أن نعامل عدوًّا مهزومًا هكذا. شيء مناقض تمامًا لتقاليد بلادنا».

لكن هناك ذكرى أخرى ظلت عالقة في ذهني فيما يختص بهذا الأمر وكأنها حدثت بالأمس. إن قاعة الولائم الآن لم تعد تحتوي على مائدة، وهي بحجمها الفسيح وسقفها العالي البديع تُتخذ اليوم من قبل السيد فاراداي بمثابة صالة للعرض من نوع ما. أما في أيام فخامة اللورد فقد كان المطلوب أن تُتخذ تلك القاعة بصورة منتظمة، هي والمائدة الطويلة التي تشغلها، غرفة لجلوس ثلاثين أو أكثر من الضيوف لتناول العشاء؛ بل كانت قاعة الولائم هذه من السعة بحيث كان يُضاف، كلما دعت الضرورة، عدد من الموائد الأخرى إلى المائدة الرئيسة وذلك لجلوس حوالي الخمسين من الضيوف. وبالطبع كان اللورد دارلنغتون، مثله مثل السيد فاراداي اليوم، يتناول وجبات طعامه في الأيام الاعتيادية في غرفة الطعام بجوها الحميم الأكثر بساطة، وهي غرفة مثالية لخدمة عدد يناهز العشرة من الجالسين إلى مائدتها. أما في تلك الليلة بذاتها من ليالي الشتاء التي أستذكرها فقد كانت غرفة الطعام مغلقة لسبب من الأسباب، لذا كان اللورد دارلنغتون يتناول العشاء مع ضيفه الوحيد - وأعتقد أنه كان السير ريتشارد فوكس، زميله من أيام فخامة اللورد في وزارة الخارجية - في فضاء قاعة الولائم الفسيح جدًّا. ولا شك أنك ستتفق معي أن أصعب الأوضاع في الخدمة على مائدة العشاء يتجلى عند وجود اثنين فقط من الطاعمين. أنا شخصيًّا أفضل جدًّا أن أخدم طاعمًا واحدًا فقط حتى لو كان من الغرباء تمامًا. إنه لعندما يوجد اثنان من الطاعمين وإن كان أحدهما هو سيد الدار، أن يجد المرء صعوبة كبرى في تحقيق ذلك التوازن بين الانتباه للخدمة وبين الإيهام بالغيبة عن المكان، وهو توازن جوهري في الخدمة الحسنة حول مائدة الطعام؛ وإنه لفي مثل هذا الوضع أن يندر تحرر المرء من الشك بأن وجوده إنما يعيق المحادثة الجارية على المائدة ويكبحها.

في تلك المناسبة كانت الغرفة مظلمة تقريبًا، وكان السيدان يجلسان جنبًا إلى جنب في وسط المائدة - فهي أعرض من أن تتيح لهما الجلوس وجهًا لوجه - وهما في بركة الضياء الساقط من شموع المائدة ومن الموقد الذي يطلق شراره بإزائهما. قررت أن أجعل وجودي غير ملموس إلى أقصى حد وذلك بوقوفي في الظل بعيدًا عن المائدة بمسافة تزيد عن المعتاد. كان لهذا الترتيب بالطبع عيبه الواضح لأنني كلما تقدمت نحو الضياء لخدمة السيدين أرسلت خطواتي صداها الطويل العالي قبل وصولي إلى المائدة، فأثير بذلك

الانتباه بشكل فاضح جدًّا؛ ولكن كان لهذا الترتيب حسنة كبيرة إذ لم يكن شخصي وأنا واقف بلا حراك يُشاهد في الظل إلا جزئيًّا. وإنه حين كنت واقفًا هكذا في الظل بعيدًا بعض الشيء عن مجلس السيدين بين تلك الصفوف من الكراسي الفارغة، سمعت اللورد دارلنغتون يتحدث عن الهر بريمان، بصوته الهادئ الرقيق كالمعتاد، ولكنه يرن بقوته على نحو ما حول تلك الجدران الفسيحة الشاهقة.

كان يقول: «إنه كان عدوًّا لي ولكنه تصرف دائمًا تصرف السيد المهذب، وقد عامل أحدنا الآخر معاملة كريمة على مدى ستة أشهر من قصف أحدنا للآخر. كان مهذبًا في قيامه بعمله ولم أحمل له ضغينة في صدري. قلت له: اسمع، نحن أعداء الآن وسأقاتلك بكل ما أملك. ولكن ما إن ينتهي هذا الشيء البغيض حتى يزول العداء بيننا، وعندئذ سنتناول كأسًا من الشراب معًا؛ أتعس ما في الأمر أن هذه المعاهدة تجعلني أظهر بمظهر الكذاب. أريد أن أقول إنني أخبرته أننا ما إن تنتهي الحرب حتى تعود المياه إلى مجاريها فلا نكون أعداء. ولكن كيف لي أن أواجهه وأقول له إن ذلك أصبح حقيقة واقعة؟».

بعد قليل من هذا في تلك الليلة قال فخامة اللورد بشيء من الصرامة وهو يهز رأسه: «أنا خضت تلك الحرب للمحافظة على العدالة في هذا العالم. لم أكن أشارك، بقدر ما استطعت أن أفهمه آنئذٍ، في عملية انتقامية من الجنس الألماني».

وعندما أسمع اليوم الكلام الذي يقال عن فخامته وأسمع ذلك النمط من التكهنات السخيفة بشأن دوافعه فإنني أستذكر بسرور تلك اللحظة عندما نطق بتلك الكلمات الصادرة عن قلب مخلص في قاعة الولائم شبه الخالية. ومهما كانت المضاعفات التي نشأت في حياته خلال الأعوام التالية فإني شخصيًّا لن أشك أبدًا بأن رغبته في أن يرى «العدالة في هذا العالم» إنما تكمن في الصميم من أعماله جميعًا.

لم تمر إلا فترة وجيزة على تلك الأمسية حتى حملت إلينا الأنباء الأليمة بأن الهر بريمان قد انتحر وهو في قطار بين هامبورغ وبرلين بإطلاق رصاص مسدسه على نفسه. وبطبيعة الحال حزن فخامة اللورد حزنًا شديدًا عليه وبادر من فوره إلى إجراء الترتيبات لإرسال المال والتعازي إلى السيدة بريمان. بيد أنه لم يتمكن، بالرغم من مرور عدد من الأيام سعى فيها جهده، وبذلت فيها أنا شخصيًّا ما وسعني للمساعدة، من أن يكتشف محل إقامة أي فرد من أفراد أسرة الهر بريمان. والظاهر أن الهر بريمان كان متشردًا لبعض الوقت وقد تفككت أسرته، وتفرق شملها.

أنا أعتقد أن اللورد دارلنغتون كان سيمضي في السبيل الذي اتخذه حتى لو لم تحدث هذه المأساة؛ إن رغبته بأن يرى نهاية للظلم والشقاء كانت منغرسة في طبيعته بشكل أعمق من أن تتيح له اتخاذ سبيل آخر. لذا ففي الأسابيع التي أعقبت وفاة الهر بريمان بدأ فخامة اللورد بتكريس المزيد من الساعات

لموضوع الأزمة في ألمانيا. وغدا بعض السادة من المشاهير والأقوياء زوارًا للدار بانتظام - بضمنهم على ما أذكر شخصيات مثل اللورد دانيالز والأستاذ ماينارد كينز والسيد إيتش. جي. ويلز المؤلف المعروف، إضافة إلى آخرين لن أسميهم هنا لأنهم كانوا يأتون «بشكل غير رسمي» - وكان كل هؤلاء ينهمكون مع فخامة اللورد في مباحثات تستمر ساعات.

والواقع أن بعض الزائرين كانوا يأتون بشكل غير رسمي جدًّا بحيث كنت أُوصى ألا أدع المستخدمين يتعرفون على هوياتهم، وألا أدعهم، في بعض الحالات، ينظرون إليهم ولو نظرة عابرة. بيد أن اللورد دارلنغتون - وأنا أقول هذا بشيء من الفخر وحفظ الجميل - لم يبذل قَطُّ أي جهد لإخفاء الأمور عني سمعًا ونظرًا؛ أتذكر عددًا من المناسبات كان فيها بعض الشخصيات المهمَّة يقطعون كلامهم وهم ينظرون بحذر نحو شخصي، فما يكون من فخامة اللورد إلا أن يقول: «لا بأس، لا بأس. يمكنكم أن تقولوا أي شيء أمام ستيفنز بالتأكيد».

وباطِّراد، إذن، وعلى مدى سنتين أو نحو ذلك بعد وفاة الهر بريمان، نجح فخامة اللورد، بالاشتراك مع السير ديفيد كاردينال الذي أصبح حليفه المقرب خلال تلك الفترة، في جمع مجموعة متنوعة من الشخصيات التي ترى أن الحالة في ألمانيا يجب ألا يُسمح لها بالتمادي. لم تكن هذه الشخصيات من البريطانيين والألمان فقط بل كذلك من البلجيكيين والفرنسيين والإيطاليين والسويسريين؛ كانوا من الدبلوماسيين ومن رجال السياسة من مرتبة عليا؛ ومن رجال الكنيسة المرموقين؛ وكبار العسكريين المتقاعدين، والكتاب والمفكرين. كان بعضهم من السادة الذين تحسسوا كل التحسس، كفخامة اللورد نفسه، بأن التعامل المنصف لم يكن سائدًا في فرساي وبأن مما يجافي قواعد الأخلاق الاستمرار في معاقبة أمة عن حرب قد انتهت الآن، ثمة آخرون أظهروا، كما كان واضحًا، اهتمامًا أقل بمصالح ألمانيا أو مصالح سكانها، ولكنهم كانوا يرون أن الفوضى الاقتصادية في تلك البلاد قد تنتشر، إن لم تُوقف عند حد، بسرعة مخيفة إلى العالم بأسره.

عند انصرام سنة ١٩٢٢ كان فخامة اللورد يعمل وفي ذهنه هدف واضح. وكان هدفه هذا هو أن يجمع تحت سقفنا في قصر دارلنغتون رجالًا هم من أكثر المتنفذين، وقد جرى كسب معونتهم على أساس عقد مؤتمر دولي «غير رسمي» - مؤتمر يبحث في الوسائل التي من شأنها تعديل أقسى الشروط الواردة في معاهدة فرساي. ولكي يكون مثل هذا المؤتمر ذا قيمة فينبغي أن يكون له من الوزن ما يكفي للتأثير الحاسم على المؤتمر الدولي «الرسمي» - وقد عُقد أصلًا عدد من هذه المؤتمرات الرسمية بهدف إعادة النظر في المعاهدة ولكنها لم تفلح إلا بإثارة البلبلة والمرارة. كان رئيس وزرائنا في ذلك الحين، السيد لويد جورج قد دعا إلى عقد مؤتمر كبير آخر على أن يُعقد في إيطاليا في ربيع ١٩٢٢، فكان هدف فخامة اللورد في البداية يتلخص بتنظيم

اجتماع في قصر دارلنغتون يرمي إلى ضمان نتيجة مُرضية لذلك الحدث الكبير. على أنه برغم الجهود التي بذلها اللورد والسير ديفيد كان الموعد أقرب جدًّا مما يمكن معه تنظيم الاجتماع المنشود؛ ولكن ما إن انتهى مؤتمر السيد جورج بالفشل مرة أخرى في اتخاذ قرارات حاسمة حتى عزم فخامة اللورد على الدعوة إلى مؤتمر كبير آخر يعقد في سويسرا في السنة التالية.

وإني لأتذكر، وأنا أحمل القهوة إلى اللورد دارلنغتون في غرفة الإفطار ذات صباح حوالي ذلك التاريخ، أنه قال لي وهو يطوي جريدة التايمز بشيء من الاشمئزاز: «هؤلاء الفرنسيون؛ نعم وأنا أعنيها يا ستيفنز. الفرنسيون».

«نعم، سيدي».

«تصور أن علينا أن نظهر أمام العالم يدًا بيد معهم، يا له من مشهد قذر».

«نعم، سيدي».

«في المرة الأخيرة التي كنت فيها في برلين جاءني البارون أوفراث، وهو صديق قديم لوالدي، وقال لي: «لماذا تفعلون هذا بنا؟ ألا ترون أننا لا نستطيع الاستمرار على هذا النحو؟» فكدت أقول له إن السبب هو أولئك الفرنسيون الحقراء. وأردت أن أقول له إن هذه ليست هي الطريقة الإنجليزية في التعامل. ولكن يجب على المرء ألا يطعن بالحلفاء الأعزاء».

ولكن الحقيقة ذاتها التي مفادها أن الفرنسيين هم أشد المتعنتين بشأن تخليص ألمانيا من الشروط القاسية التي فرضتها عليها معاهدة فرساي، هذه الحقيقة هي التي حتمت الحاجة إلى الإتيان برجل فرنسي واحد في الأقل من ذوي النفوذ الواضح على سياسة بلاده الخارجية إلى اجتماع قصر دارلنغتون. بل إني سمعت فخامة اللورد يعبر عن رأيه مرارًا بقوله إن البحث في موضوع ألمانيا بدون اشتراك شخصية كهذه سيكون بمثابة مضيعة للوقت. لذلك تصدى اللورد والسير ديفيد للقيام بالخطوة الحاسمة النهائية في استعداداتهم، وكانت مشاهدتي لعزيمتهما التي لا تنثني؛ والتي واصلا بها مهمتهما في وجه الإحباطات المتكررة؛ من التجارب التي علمتني درسًا في الصبر على الشدائد؛ فقد أرسل من الرسائل والبرقيات ما لا يُعد ولا يُحصى، كما أن فخامة اللورد قام بنفسه بثلاث رحلات متعاقبة إلى باريس في بحر شهرين. وأخيرًا، وبعد أن تم الحصول على موافقة رجل فرنسي شهير جدًّا - ولن أسميه باسمه بل سأدعوه «المسيو دوبونت» فقط - لحضور الاجتماع على أساس «غير رسمي جدًّا وللغاية» جرى تحديد موعد عقد المؤتمر. وأعني بهذا ذلك اليوم المشهود من شهر آذار ١٩٢٣.

ما إن أخذ ذلك اليوم بالاقتراب حتى أخذت الضغوط تتزايد عليَّ، وهي وإن كانت أبسط من تلك التي كانت تنيخ على فخامة اللورد ولكنها مع ذلك لم تكن غير ذات بال. كنت على إدراك تام لاحتمال بعينه بأنه إذا وجد أحد الضيوف أن إقامته في قصر دارلنغتون لا ترتقي إلى إقامة مريحة فقد تكون لهذا ردود فعل من حجم لا يتصوره العقل. يضاف إلى هذا ما أصاب تخطيطي للحدث من

تعقيد بسبب عدم التأكد من عدد الحاضرين. كان قد حُدد عدد المشاركين في المؤتمر، نظرًا لمستواه العالي جدًّا، بثمانية عشر من الرجال البارزين جدًّا وسيدتين - كونتيسة ألمانية والسيدة اليانور أوستن ذات الشهرة العريضة المحترمة وكانت لا تزال تقيم في ذلك الوقت في برلين؛ ولكن كل واحد من هؤلاء قد يستصحب معه كما هي العادة عددًا من السكرتارين والخدم الخصوصيين والمترجمين وقد عجزنا عن معرفة العدد الدقيق بالضبط من هؤلاء الذين نتوقع مجيئهم. وقد أصبح من الواضح أيضًا، إضافة إلى ذلك، أن عددًا من الوفود سيصل في غضون أيام قبل انعقاد المؤتمر الذي سيستغرق ثلاثة أيام، وذلك ليتسنى لأعضائها التحضير لاستعداداتهم والتعرف عن كثب على زملائهم الضيوف الآخرين وتحسس اتجاهاتهم، هذا ولو أن تواريخ وصولهم لم تكن معروفة أيضًا على وجه اليقين. كان من الواضح، إذن، أن على المستخدمين لا أن يبذلوا أقصى جهودهم فحسب وأن يكونوا على يقظة تامة من أمرهم بل أن يتحلوا كذلك بالمرونة بشكل يفوق العادة. والواقع أنني كنت أرى لبعض الوقت أننا لن نستطيع مواجهة هذا التحدي العظيم أمامنا ما لم آتِ بمستخدمين إضافيين من خارج القصر. بيد أن من شأن هذا الخيار أن يستتبع اعتمادي على من لا أعرف في حين أن غلطة واحدة لن تحمد عقباها، وهذا بالإضافة إلى المحاذير التي ستراود بال فخامة اللورد بشأن انتشار الأقاويل في الخارج على ألسنة خدم غرباء. لذلك باشرت بالاستعداد للأيام القادمة كما يستعد قائد، على ما أتصور، لمعركة من المعارك؛ وضعت بعناية تامة خطة عمل خاصة للمستخدمين تخيلت فيها حدوث شتى الاحتمالات؛ وحللت نقاط ضعفنا ومواقعها وباشرت بوضع خطط للطوارئ لكي نستند إليها إذا بانت لنا نقاط الضعف هذه؛ وذهبت إلى أبعد من هذا، حتى إنني خاطبت المستخدمين على الطريقة العسكرية في «شحذ الهمم» مبينًا لهم أنهم سيشعرون، على كل ما سيبذلونه من جهود منهكة، بشعور الفخر العظيم في أدائهم لواجباتهم خلال الأيام القادمة. قلت لهم: «إن من المحتمل جدًّا أن يُكتب التاريخ تحت سقفنا هذا». وقد فهموا جيدًا، وهم يعرفون أنني لا أنزع إلى المبالغات، أن شيئًا ما ذا طبيعة استثنائية هو على وشك الحدوث.

إنك ستفهم إذن شيئًا من الجو السائد في قصر دارلنغتون في ذلك الوقت الذي سقط فيه أبي أمام السقيفة الصيفية - وقد حدث هذا قبل أسبوعين فقط من التاريخ المحتمل لوصول أوائل المشاركين من ضيوف المؤتمر - كما ستفهم ما أعنيه حين أقول إنه لم يكن أمامنا مجال لكي نحوم حول الأمور دون حسمها. على أن والدي اكتشف سريعًا طريقة للالتفاف على حدود فعاليته، التي ينطوي عليها الأمر القاضي بألا يحمل صينية محملة بالأشياء. كان مشهده وهو يدفع عربة محملة بأدوات التنظيف والتجفيف والمسح والكنس وقد رُتبت بصورة متنافرة عما حولها، وإن كانت مرتبة دائمًا بشكل أنيق، فيما بين أباريق الشاي والأكواب والصحون، بحيث كانت تشبه أحيانًا عربة بائع

متجول، قد أصبح مشهدًا مألوفًا في أرجاء الدار. من الواضح أنه كان لا يزال غير قادر على الحيلولة دون تخليه عن واجبات الخدمة في قاعة الطعام، ولكن عربته قد مكنته من إنجاز عدد مدهش من الواجبات. والواقع أن تغييرًا مذهلًا طرأ على والدي عندما أخذ التحدي العظيم للمؤتمر بالاقتراب. لكأن قوة ما خارقة للطبيعة قد حلَّت فيه فطرحت عشرين حولًا من عمره؛ وزالت من وجهه الملامح الغائرة التي اعترته مؤخرًا، ومضى يقوم بعمله بحيوية الشباب حتى إن الشخص الغريب عنا كان سيظن أن هناك عددًا من الأشخاص يدفعون العربات في أروقة قصر دارلنغتون، فبمثل هذه الحيوية كان والدي يتصدى للعمل.

أما بالنسبة للآنسة كنتون فإني لأتذكر مدى التوتر المتزايد في تلك الأيام وأثره الواضح فيها. أذكر مثلًا المناسبة التي حدثت قبيل ذلك الوقت عندما صادف أن قابلتها في الممر الخلفي. والممر الخلفي هذا، وهو بمثابة العمود الفقري لمساكن المستخدمين في القصر، كان دائمًا شيئًا يوحي بالكآبة لعدم نفوذ ضوء النهار في امتداده الطويل جدًّا. هذا الممر يكون، حتى في يوم مشمس، معتمًا بصورة توحي للمرء كأنه يسير في باطن نفق. في تلك المناسبة بالذات ولولا أنني ميَّزت وقع خطوات الآنسة كنتون على الألواح الخشبية، إذ هي تتقدم نحوي، لما استطعت تشخيصها إلا من خطوط بدنها. توقفت عند بقعة مضيئة من البقع القليلة التي يسقط على ألواحها شريط برَّاق من الضياء وقلت حين اقتربت مني:

«آ، هذه الآنسة كنتون».

«نعم، ماذا يا سيد ستيفنز؟».

«أود أن ألفت انتباهك، يا آنسة كنتون، إلى أن أغطية الأسرَّة في غرف الطابق العلوي يجب أن تكون جاهزة بعد غد على أقصى تقدير».

«هذه مسألة مفروغ منها، يا سيد ستيفنز، ستكون الأغطية جاهزة في الوقت المحدد».

«أنا مسرور أن أسمع هذا، كل ما في الأمر أنها خاطرة خطرت في فكري».

كنت أهم بمواصلة السير، ولكن الآنسة كنتون لم تتحرك من مكانها. ثم خطت خطوة أخرى نحوي فسقطت على وجهها حزمة من الضياء ورأيت ملامح الغضب فيه. قالت:

«يا سيد ستيفنز، أنا لسوء الحظ مشغولة جدًّا الآن وليس عندي دقيقة واحدة من الفراغ. لو كان عندي بقدر ما عندك من أوقات الفراغ، وعندك منه الكثير كما هو واضح، لكنت أقابلك بالمثل بكل سرور وأتجول في أرجاء هذا البيت لأذكرك أنت بالذات بالمهام المفروغ منها تمامًا وهي تحت سيطرتك كليًّا».

«على مهلك يا آنسة كنتون، ولا داعي لانزعاجك. لم أكن أريد سوى أن أطمئن إلى أن المسألة لم تغب عن بالك...».

«يا سيد ستيفنز، هذه هي المرة الرابعة أو الخامسة في اليومين الماضيين التي تقول لي فيها مثل هذا الكلام. ومن أغرب الأمور أن يكون لديك من الفراغ الكثير ما يجعلك تتجول في أرجاء هذا البيت فتزعج الآخرين بتعليقات لا مبرر لها».

«يا آنسة كنتون، إن كنتِ تعتقدين حقًّا أن لديَّ شيئًا من الفراغ فهذا يدل بكل وضوح على عدم خبرتك بدرجة كبيرة. وأنا واثق أنكِ ستدركين في سنين قادمة بشكل أوضح ماذا يحدث في بيت كهذا».

«أنت تتكلم دائمًا عن عدم خبرتي يا سيد ستيفنز، ولكنك فيما يظهر لا تستطيع أن تضرب لي مثلًا واحدًا على أي نقص في عملي. ولو كان هناك مثل هذا النقص لكنت بلا شك قد تحدثت عنه منذ أمد طويل وبتفصيل. والآن، فإن لديَّ الكثير من العمل وأرجو منك ألا تتبعني هنا وهناك وتقاطعني على هذا النحو. إذا كان عندك الكثير من الفراغ فأقترح عليك أن تقضي وقتك هذا بشكل نافع بأن تتفسح قليلًا في الهواء الطلق».

مضت تدك الأرض في الممر، فقررت ألا أدع الأمر يتطور إلى أكثر من هذا، لذا واصلت سيري. ما إن وصلت باب المطبخ حتى سمعت وقع الخطوات الغاضبة تتجه نحوي مرة أخرى.

نادتني الآنسة تقول: «يا سيد ستيفنز، أريد أن أطلب منك ألا تكلمني بصورة مباشرة مطلقًا من الآن فصاعدًا».

«ما هذا، ما هذا الذي تقولينه؟».

«إذا كان من الضروري أن تبلغني بشيء فأنا أطلب منك أن تبلغني به بوساطة رسول. وإلا فلك أن تكتب ورقة وترسلها لي. هذه الطريقة ستجعل علاقات العمل بيننا تسير بدون شك بصورة أسهل كثيرًا».

«يا آنسة كنتون...».

«أنا مشغولة جدًّا يا سيد ستيفنز. ابعث بورقة إذا كان التبليغ الشفهي معقدًا. وإلا يمكنك أن تكلم، إذا شئت، مارثا أو دوروثي، أو أي رجل من المستخدمين من الذين تثق بهم. وعليَّ أن أعود الآن إلى عملي وأتركك إلى تجوالك».

وعلى الرغم مما كان في سلوك الآنسة كنتون من إثارة للأعصاب لم يكن بوسعي أن أفكر بذلك كثيرًا، فأوائل الضيوف كانوا حينئذ قد وصلوا. أما المندوبون القادمون من الخارج فكان يُتوقع وصولهم خلال يومين أو ثلاثة أيام، ولكن الذوات الثلاثة الذين كان فخامة اللورد يشير إليهم بصفتهم «فريقه الوطني» - وهم اثنان من الوزراء في وزارة الخارجية اللذان يحضران «بصفة غير رسمية جدًّا» والسير ديفيد كاردينال - فقد جاؤوا مبكرين لتهيئة الاستعدادات على أدق ما يمكن. وكما هي العادة دائمًا لم يُتخذ أي إجراء لإخفاء أي شيء عني عند دخولي وخروجي بين الغرف المتعددة التي كان يجلس فيها هؤلاء السادة وقد انهمكوا بمباحثاتهم، ولذا لم أستطع أن أتحاشى الحصول على فكرة معينة بشأن الجو العام في هذه المرحلة من مراحل

الاجتماع. كان فخامة اللورد وزملاؤه مهتمين بالطبع بإطلاع أحدهم الآخر على ما يعرفونه عن كل من المشاركين القادمين على أدق ما يمكن؛ ولكن اهتمامهم الأكبر انصب على شخصية واحدة - تلك هي شخصية المسيو دوبونت، السيد الفرنسي - كما انصب على اتجاهات هذا الرجل وعلى ما يحبذه وما يعارضه. بل إني دخلت مرة إلى غرفة التدخين فسمعت أحد الذوات يقول:

«إن مصير أوروبا معلَّق بقدرتنا على إقناع دوبونت بهذه النقطة».

وإنه لفي خضم تلك المباحثات التمهيدية أن عهد لي فخامة اللورد مهمة كانت استثنائية بما يكفي كي تظل باقية في ذاكرتي حتى هذا اليوم، جنبًا إلى جنب مع تلك الأحداث الأخرى التي لا يمكن نسيانها من باب أولى وكان لها أن تحدث خلال ذلك الأسبوع المشهود. استدعاني اللورد دارلنغتون إلى مكتبته فرأيته أول دخولي عليه في حالة من الانفعال بعض الشيء. كان جالسًا إلى منضدة الكتابة، وقد لجأ على عادته إلى مسك كتاب مفتوح بين يديه - كان هذه المرة كتاب «من هو من» - وهو يقلب إحدى صحائفه إلى هذه الجهة وتلك.

«آه، ستيفنز»، قالها بطابع زائف من عدم الاكتراث، ولكنه ما إن قالها حتى بدت عليه الحيرة وهو لا يعرف كيف يواصل الكلام. بقيت واقفًا هناك وأنا على استعداد لإنقاذه من حيرته عند سنوح أول فرصة. مضى فخامته يمر بإصبعه على صفحته المفتوحة هنيهة، ثم انحنى عليها بحثًا عن بند من بنودها، وأخيرًا قال:

«أنا أعلم، يا ستيفنز، أن ما أطلبه منك هو شيء غير معتاد بعض الشيء».

«ماذا يا سيدي؟».

«والسبب لأن الكثير من الأمور المهمَّة تشغل بال المرء الآن».

«سيسرني جدًّا أن أقوم بالمساعدة يا سيدي».

«ولكني آسف لإثارة أمر كهذا يا ستيفنز. وأنا أعلم أنك شخصيًّا لا بد أن تكون مشغولًا جدًّا. إنما لا يمكنني مطلقًا إبعاد الموضوع عن خاطري».

انتظرت هنيهة بينما عاد اللورد دارلنغتون ينظر إلى كتاب «من هو من». ثم قال من دون أن يرفع نظره: «أحسب أنك على اطلاع بحقائق الحياة».

«ماذا سيدي؟».

«حقائق الحياة يا ستيفنز. الطيور، النحل. أنت على اطلاع، أليس كذلك؟».

«أخشى يا سيدي أنني لا أفهم تمامًا ما تقول».

«فلأصارحك بكل شيء. إن السير ديفيد صديق قديم جدًّا. وكانت جهوده لا تثمن في تنظيم المؤتمر الحالي، ويجب أن أقول إننا بدونه ما كنا سنحصل على موافقة المسيو دوبونت بالحضور».

«حقًّا، سيدي».

«بيد أن للسير ديفيد جانبه الغريب يا ستيفنز. لعلك لاحظت ذلك بنفسك. لقد جلب معه ابنه ريجينالد. سيكون سكرتيرًا له. والمسألة هي أنه أعلن خطوبته

ليتزوج. أعني الفتى ريجينالد».
«نعم، سيدي».
«كان السير ديفيد يحاول أن يخبر ابنه بحقائق الحياة خلال السنوات الخمس الأخيرة. هذا الشاب يبلغ الآن الثالثة والعشرين من العمر».
«نعم، سيدي».
«سأعود إلى صلب المسألة. فأنا عرَّاب هذا الشاب. لذا طلب مني السير ديفيد أن أطلع الفتى ريجينالد على حقائق الحياة».
«نعم، سيدي».
«السير ديفيد نفسه يجد المهمَّة مثبطة للهمم ويعتقد أنه لا يستطيع إنجازها قبل زفاف ولده».
«نعم، سيدي».
«المسألة هي أنني مشغول جدًّا. كان ينبغي للسير ديفيد أن يعرف ذلك، مع ذلك طلب مني هذا الطلب».
توقف فخامته عن الكلام ومضى يتدارس صفحة الكتاب.
قلت: «هل أفهم من ذلك يا سيدي أنك ترغب أن أقوم أنا بالذات بنقل المعلومات إلى السيد الشاب؟».
«هذا إن لم يكن لديك مانع يا ستيفنز. وبذلك أبعد الأمر عن ذهني. والسير ديفيد يسألني بين ساعة وأخرى هل لبيت طلبه».
«أنا أقدر وضعك يا سيدي. لا بد أن الأمر صعب جدًّا في ظل الضغوط الحالية».
«إن ما أطلبه منك يا ستيفنز يخرج بالطبع عن نطاق واجباتك».
«سأبذل جهدي يا سيدي. بيد أني قد أجد صعوبة في العثور على اللحظة المناسبة لنقل مثل تلك المعلومات».
«سأكون ممتنًّا لك جدًّا يا ستيفنز حتى لو أنك حاولت فقط. شيء جميل منك. اسمع لا داعي لتضخيم المسألة. اقتصر على نقل الحقائق الأساسية وانتهِ. ونصيحتي هي اتباع المدخل البسيط».
«نعم، سيدي».
«أنا ممتن لك جدًّا يا ستيفنز. خبرني عن التطورات».
فاجأني هذا الطلب، كما لك أن تتخيل، وكانت المسألة في الأحوال الاعتيادية ستقتضي بعض الوقت مني للتفكير بها، بيد أنها، وقد وقعت على عاتقي وأنا في خضم فترة حاشدة بالمشاغل، كانت شيئًا لا يسعني أن أدعها تشغل بالي بشكل لا موجب له، لذلك قررت أن أنتهي منها بأقرب فرصة. وعلى ما أذكر لم تمر ساعة واحدة على ما عهد إليَّ من مهمة حتى لاحظت الشاب السيد كاردينال وحده في المكتبة، جالسًا إلى إحدى مناضد الكتابة وقد استغرق في بعض الوثائق. وقد اتضح لي وأنا أتأمل السيد الشاب عن كثب أن المرء يمكنه أن يقدر الصعوبة التي واجهت فخامة اللورد - بل كذلك الصعوبةِ التي واجهت

والد الفتى. فقد بدا لي ابن المعمودية لسيدي ورب عملي شابًّا جادًّا، مثقفًا، ويمكن للمرء أن يرى في قسماته عددًا من الصفات الحسنة؛ لذا وبالنظر لطبيعة الموضوع الذي يُراد إثارته، كان من الأفضل حتمًا لو أن الشخص المعني هو من نمط الشباب المرح العابث اللعوب. وعلى أية حال، وبما أنني عزمت على الوصول بالمسألة كلها إلى نتيجة مُرضية بأسرع ما يمكن، فقد تقدمت نحو المكتبة ووقفت على مقربة من منضدة الكتابة بحيث يجلس السيد كاردينال، وتنحنحت.

«معذرة يا سيدي، ولكني أحمل رسالة لك».

فقال السيد كاردينال بلهفة وهو يرفع نظره عن أوراقه: «حقًّا؟ رسالة من الوالد؟».

«نعم يا سيدي، أعني، من الناحية الفعلية».

«أمهلني دقيقة واحدة».

مد السيد الشاب يده نحو حقيبته اليدوية وكانت عند قدميه على الأرض وأخرج منها دفترًا وقلمًا. «هلم يا ستيفنز».

سعلت مرة أخرى وجعلت صوتي يتخذ نبرة موضوعية على قدر استطاعتي.

«يرغب السير ديفيد أن تعلم، يا سيدي، أن السيدات والسادة يختلفون في نواحٍ أساسية متعددة».

لا بد أنني توقفت قليلًا لكي أؤلف جملتي التالية، ذلك أن السيد كاردينال تنهد وقال: «أنا أدرك ذلك كل الإدراك يا ستيفنز، فهل لك أن تتحدث عن صلب الموضوع؟».

«أنت تدرك ذلك يا سيدي؟».

«إن الوالد يقلل من شأني دائمًا. لقد قمت بقراءات واسعة وبحثت في الخلفيات عن هذه الناحية بأسرها».

«هكذا إذن يا سيدي؟».

«ولم أفكر بأي شيء آخر خلال الشهر الماضي».

«نعم يا سيدي، وفي هذه الحالة لعل رسالتي تكون من تحصيل الحاصل».

«يمكنك أن تؤكد للوالد أنني محيط بالمعلومات بشكل حسن جدًّا. وهذه الحقيبة - ورفسها بقدمه - مليئة بالقصاصات عن كل ما يمكن أن يخطر بالبال من جميع النواحي».

«هكذا إذن يا سيدي».

«وأنا أعتقد كل الاعتقاد أنني قد أوفيت الأمر حقه وزيادة. أرجو أن تطمئن الوالد عن هذا أيضًا».

«سأطمئنه يا سيدي».

بدا على السيد كاردينال أنه ارتاح قليلًا. لمس حقيبته مرة أخرى - وقد شعرت أنني أميل إلى تحويل عيني عنها - وقال: «أظن أنك تتساءل لماذا لا

أفارق هذه الحقيبة أبدًا. طيب، أنت تعرف لماذا الآن. تخيل لو أن الشخص الخطأ يفتحها».

«سيكون هذا شيئًا مربكًا جدًّا يا سيدي».

اعتدل الشاب في مجلسه مرة أخرى فجأة وقال: «هذا بالطبع إذا لم يأتِ الوالد بعامل جديد كليًّا يريدني أن أفكر به».

«لا أتصور يا سيدي أن لديه مثل ذلك».

«لا يوجد عامل جديد؟ لا شيء يضاف إلى موضوع هذا الشخص دوبونت؟».

«لا أظن ذلك يا سيدي».

قمت بما وسعني لكيلا يند عني أي شيء من سخطي وأنا أكتشف أن المهمَّة التي ظننتها انتهت وصارت ورائي كانت لا تزال في واقع الأمر أمامي كما هي من دون معالجة. أعتقد أنني كنت أجمع أفكاري لكي أفتح الموضوع مجددًا حين نهض السيد الشاب على قدميه وقال وهو يصر حقيبته إلى صدره:

«طيب، أظن أنني سأخرج إلى الهواء الطلق. أشكرك يا ستيفنز على مساعدتك».

كان في نيتي أن أسعى لترتيب مقابلة أخرى مع السيد كاردينال بأقل ما يمكن من التأخير، ثم ظهر أن هذا مستحيل، وذلك بالدرجة الأولى لوصول المستر لويس، عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، عصر ذلك اليوم نفسه، وكان وصوله قبل الموعد المحدد بيومين. كنت في الطابق السفلي في حجرتي أدقق قوائم التجهيزات حين سمعت فوق رأسي أصواتًا لا تخطئها الأذن من سيارات تقف في الفناء. هرعت إلى الطابق العلوي فصادف أن واجهت أمامي الآنسة كنتون في الممر الخلفي - وهو بالطبع مشهد خلافنا الأخير - ولعل هذه المصادفة التعيسة هي التي شجعتها على سلوكها ذلك السلوك الصبياني الذي اتبعته في المناسبة الماضية. ذلك أنني حين استفسرت منها عمن وصل ظلت الآنسة كنتون سائرة في طريقها وهي تقول ببساطة: «ابعث برسالة إذا كان الأمر مستعجلًا يا سيد ستيفنز». كان هذا تصرفًا مزعجًا للغاية ولكني بالطبع لم أجد أمامي خيارًا سوى الإسراع بالصعود إلى الطابق العلوي.

الذي أتذكره عن السيد لويس هو أنه رجل ذو بسطة في الجسم مع ابتسامة لطيفة لا تكاد تفارق محياه، كان وصوله قبل الموعد شيئًا غير مريح لفخامة اللورد وزملائه الذين كانوا يأملون بتخصيص يوم أو يومين يختلفون خلالهما لإتمام استعداداتهم. بيد أن التصرف غير الرسمي المحبب الذي أبداه السيد لويس، وما قاله على العشاء من أن الولايات المتحدة «ستقف دائمًا إلى جانب العدالة وهي لا مانع لديها من الاعتراف بأخطاء ارتُكبت في فرساي» قد أسهما كثيرًا على ما يظهر في كسب ثقة «الفريق الوطني» الخاص بفخامة اللورد؛ وما إن كان تناول العشاء يسير في مجراه حتى أخذت المحادثة تنتقل ببطء ولكن بتصميم من الكلام عن موضوعات متفرقة مثل الحسنات التي تتصف بها ولاية بنسلفانيا، وهي ولاية السيد لويس، إلى مسائل المؤتمر القادم مرة

أخرى. وبحلول الوقت الذي أشعل فيه هؤلاء السادة السيجار، كانت بعض التكهنات التي عُرضت شبيهة بما جرى تبادله قبل وصول السيد لويس وفي جو حميم من ائتمان الموجودين بعضهم لبعض. قال السيد لويس للجماعة في أثناء ذلك:

«أنا أتفق معكم، أيها السادة، بأن هذا المسيو دوبونت الذي نتكلم عنه يمكن أن يكون متقلبًا جدًّا بشكل لا نستطيع التنبؤ به. ثمة شيء واحد لا يمكنكم أن تخطئوا فيه». وانحنى إلى الأمام وهو يلوِّح بالسيجار لكي يشدد على أقواله. «إن دوبونت يكره الألمان. كان يكرههم قبل الحرب وهو يكرههم الآن وبدرجة من العمق ستجدون من الصعب عليكم أيها السادة أن تسبروا أغوارها». قال السيد لويس قوله هذا واعتدل في مجلسه مرة أخرى والابتسامة اللطيفة تعود عريضة على محياه. واستمر يقول: «ولكن بالله عليكم أيها السادة، هل تلومون الفرنسيين على كراهيتهم للألمان؟ إن الفرنسي، على أية حال، لديه سبب جيد يبرر له كرهه هذا، أليس كذلك؟».

ظهر شيء من الوضع النشاز عندما كان السيد لويس يدور بأنظاره حول المائدة. عندئذ قال اللورد دارلنغتون:

«من المحتم بطبيعة الحال وجود شيء من المرارة. إنما، بالطبع، نحن الإنجليز أيضًا قاتلنا الألمان طويلًا وبشدة».

فقال السيد لويس: «ولكن الفرق بالنسبة لكم أنتم الإنجليز هو أنكم فيما يظهر لم تعودوا تكرهون الألمان كراهية حقيقية. أما المسألة كما يراها الفرنسيون فهي أن الألمان قد حطموا الحضارة هنا في أوروبا وهم يستحقون أشد العقاب على ذلك. هذا، بالطبع يبدو لنا في الولايات المتحدة شيئًا غير عملي، ولكن الذي يحيرني دائمًا هو كيف أنكم أيها القوم الإنجليز لا تشاطرون الفرنسيين وجهة نظرهم. فعلى كل حال، كما قلتم، فإن بريطانيا قد خسرت كثيرًا في تلك الحرب أيضًا».

طرأ توقف آخر، نشاز، قبل أن يقول السير ديفيد بشيء من التردد:

«نحن الإنجليز غالبًا ما تكون لدينا طريقة مختلفة للنظر في مثل هذه الأمور، طريقة تختلف عن الفرنسيين يا سيد لويس».

«أي نعم، نوع من الاختلاف في المزاج، كما يمكنك أن تقول».

كانت ابتسامة السيد لويس تتسع قليلًا وهو يقول هذا. هز رأسه لنفسه، فكأن أشياء عديدة قد غدت واضحة له الآن. ولا أدري هل ما سأقوله هو حالة من حالات الإدراك المتأخر للأمور هي التي تلون ذاكرتي الآن، ولكن لديَّ إحساسًا واضحًا بأنني كنت في تلك اللحظة من العشاء قد شعرت للمرة الأولى بأن ثمة شيئًا غريبًا، شيئًا ازدواجيًّا لعله شبيه بالنفاق، يحف بهذا السيد الأمريكي الذي يبدو في ظاهره فاتنًا. أما اللورد دارلنغتون فلم تساوره فيما يظهر مثل هذه الشكوك، هذا إذا كانت قد ساورتني فعلًا أنا شخصيًّا في تلك اللحظة. ذلك

أن فخامة اللورد بدا، بعد لحظات قليلة من الصمت النشاز، وكأنه قد اتخذ قرارًا، فقد قال:
«يا سيد لويس، دعني أقلها بصراحة، فأغلبنا هنا في إنجلترا يجدون الموقف الفرنسي الحاضر مستهجنًا، لك أن تُسمي ذلك اختلافًا مزاجيًّا، ولكننا نتكلم عن شيء أكثر من هذا. ليس من اللائق الاستمرار في كراهية العدو هكذا طالما أن النزاع قد انتهى. إنك بعد أن تطرح خصمك أرضًا فينبغي أن يكون ذلك نهاية الجولة. أنت لا تباشر بعد انتهائها برفسه. إن السلوك الفرنسي كما نراه قد أصبح سلوكًا بربريًّا بشكل متزايد».
بدا أن هذا الكلام وكأنه أرضى السيد لويس بعض الشيء. تمتم بتعاطف وابتسم باطمئنان لزملائه على المائدة من خلال سحب الدخان المتعالية من لفافات التبغ وقد خيمت الآن بكثافة فوق مائدة العشاء.
ما كان صباح اليوم التالي حتى وصل عدد آخر من المبكرين قبل موعد المؤتمر. فقد وصلت السيدتان من ألمانيا - وقد سافرتا معًا على الرغم مما يمكن أن يتصوره المرء من التباين الكبير في خلفيتيهما - وجلبتا معهما مجموعة من الوصيفات والخدم وعددًا كبيرًا من الصناديق. ثم وصل بعد الظهر السيد الإيطالي مصحوبًا بخادم خاص وسكرتير و«خبير» واثنين من الحراس الشخصيين، ولا أستطيع أن أتخيل ترى أي نوع من المكان كان هذا الرجل يتصور مجيئه إليه بحيث جلب معه الحارسين، ولكن الذي أثار شيئًا غريبًا هو أن يرى المرء في قصر دارلنغتون هذين الرجلين الضخمين الصامتين وهما يحملقان بارتياب في جميع الاتجاهات على بضع ياردات من السيد الإيطالي أيان يكون. بالمناسبة فإن نمط العمل لهذين الحارسين، كما اتضح لنا في الأيام التالية، كان يقضي بأن ينام أحدهما في ساعات غير اعتيادية لكي يتيح للآخر أن يؤدي خفارته طيلة الليل. ولكني حين سمعت بهذا الترتيب للمرة الأولى حاولت إخبار الآنسة كنتون به فإذا بها ترفض مرة أخرى أن تتحدث معي، ولكي أقوم بإنجاز الأمور على أسرع ما يمكن اضطررت في الحقيقة أن أكتب لها رقعة وأدسها تحت باب غرفتها.
في اليوم التالي جاء عدد آخر من الضيوف، فكان قصر دارلنغتون، في حين لا يزال أمامنا يومان آخران لبدء المؤتمر، يعج بالناس من جميع الجنسيات وهم يتحدثون في الغرف أو يقفون هنا وهناك، على غير هدى فيما يظهر، يقفون في الردهة، في الممرات، في أعلى السلالم، يتفحصون اللوحات الفنية أو غيرها من الأشياء. كان هؤلاء الضيوف يجاملون بعضهم بعضًا ولكن، وبالرغم من ذلك، كان يسود نوع من الجو المتوتر يتصف بالدرجة الأولى بالشكوك عند هذه المرحلة. كان ينعكس هذا على الخدم الخصوصيين وغيرهم ممن جاؤوا مع الضيوف إذ كانت علاقاتهم بعضهم ببعض تتسم بالبرود وكان من حسن حظ المستخدمين العاملين بإمرتي أن تلهيهم أشغالهم الكثيرة عن قضاء الوقت معهم.

في تلك الأثناء، وأنا في خضم المشاغل المتعددة التي تتطلب اهتمامي، حدث أن نظرت من إحدى النوافذ فرأيت السيد كاردينال الصغير يتجول في الهواء الطلق في الحدائق. كان يقبض على حقيبته اليدوية بشدة كالعادة ورأيته يسير ببطء في الممشى الذي يدور حول ساحة العشب الخضراء. وقد استغرق في تفكير عميق. ذكّرني هذا بالطبع بمهمتي الخاصة بهذا السيد الشاب فخطر لي أن مكانًا مفتوحًا ونحن في أحضان الطبيعة، لا سيما أن أمثولة الإوز أمامنا عن كثب، هو المكان المناسب لنقل رسالة من هذا النوع الذي أحمله. فضلًا عن هذا رأيت لو أنني أخرج سريعًا وأختفي خلف الشجيرات الوردية المزهرة على جانب الممشى فلن يمر وقت طويل حتى يصلني السيد كاردينال. عندئذ أخرج من مكاني وأبلغه رسالتي. أنا أعلم أن هذا الترتيب لم يكن من أحسن الترتيبات ولكنك ستقدر أن هذه المهمَّة بعينها، ولو أنها مهمَّة بذاتها بلا شك، لم تكن ذات أسبقية أولى في أعمالي آنئذٍ.

كان هناك جليد رقيق يغطي الأرض والشجر، ولكن النهار كان معتدلًا بالنسبة لذلك الفصل من السنة. عبرت ساحة العشب سراعًا واختبأت خلف الشجيرات، وما هي إلا دقائق حتى سمعت وقع خطوات السيد كاردينال يتقدم نحو مكاني. ولسوء الحظ أخطأت قليلًا في توقيت لحظة ظهوري. كنت أنوي أن أظهر والسيد كاردينال لا يزال بعيدًا بمسافة معقولة، لكي يراني في الوقت المناسب فيظن أنني في طريقي إلى السقيفة الصيفية أو ربما إلى كوخ البستاني. كان يمكنني عندئذ أن أتصنع رؤيته للمرة الأولى فأبادره بكلام يكون ابن ساعته. أما الذي حدث فهو أنني ظهرت متأخرًا قليلًا وأظن أنني أجفلت السيد الشاب، فما كان منه إلا أن أبعد حقيبته عني وصرَّها إلى صدره بكلتا ذراعيه. قلت:

«أنا آسف جدًّا يا سيدي».

«ما هذا يا ستيفنز؟ لقد أفزعتني. حسبت أن الأمور قد اشتدت هناك».

«أنا آسف جدًّا يا سيدي. ولكن حدث أن لديَّ شيئًا لأقوله لك».

«هذا وليس غيره، نعم، فقد أخفتني تمامًا».

«سأدخل إلى صلب الموضوع إذا سمحت لي يا سيدي، أنت ترى الإوز هناك، غير بعيد منا».

«الإوز؟» نظر حواليه منذهلًا قليلًا ثم أردف: «أي نعم، الإوز».

«ومثلها الأزهار والشجيرات. هذا في الواقع ليس هو أحسن الفصول في السنة لتراها في أبهى فتنتها، ولكنك ستقدر يا سيدي أننا سنرى تغييرًا بحلول الربيع - تغييرًا من نوع خاص جدًّا في هذه الأماكن».

«نعم أنا متأكد أن الحدائق ليست في أحسن أحوالها الآن. ولكني أقول لك بصراحة تامة يا ستيفنز إنني لم أكن أعير اهتمامًا كبيرًا لمفاتن الطبيعة. والمسألة مقلقة. أن يصل المسيو دوبونت بأتعس نفسية يمكن تصورها، آخر ما كنا نريده حقًّا».

«المسيو دوبونت وصل إلى هنا في هذا البيت؟».
«قبل نصف ساعة تقريبًا، وهو بأسوأ مزاج».
«اسمح لي أن أذهب يا سيدي. يجب عليَّ أن أكون في خدمته فورًا».
«طبعًا يا ستيفنز. وكان لطيفًا منك أن تأتي لتتحدث معي».
«أرجو أن تسمح لي بالذهاب يا سيدي، كان لديَّ شيء آخر لأقوله لك عن موضوع مفاتن الطبيعة كما سميتها أنت شخصيًّا. وسأكون ممتنًّا لك إذا تفضلت بالإصغاء إليَّ، ولكن لا بد من تأجيل ذلك إلى مناسبة أخرى».
«أنا بانتظار ذلك يا ستيفنز. هذا ولو أني شخصيًّا أحب صيد السمك أكثر بكثير وأعرف الكثير عنه، سواء في المياه العذبة أو المالحة».
«ستكون جميع الكائنات الحية الأخرى مناسبة لحديثنا القادم يا سيدي ولكنني أرجو منك الآن أن تسمح لي بالذهاب. لم أكن أعرف قَطُّ أن المسيو دوبونت قد وصل».
هرعت عائدًا إلى الدار فقابلني في الحال الخادم الأول وهو يقول:
«كنا نبحث عنك في كل مكان يا سيدي. السيد الفرنسي وصل».
كان المسيو دوبونت سيدًا طويلًا، رشيقًا، ذا لحية بيضاء و«مونوكل». وقد وصل وهو يرتدي ذلك النوع من الملابس التي غالبًا ما يراها المرء على رجال القارة وهم يسيحون في الأرض في عطلهم، بل إن الرجل حافظ طوال إقامته على مظهر حرص على أن يبدو فيه، وكأنما جاء إلى قصر دارلنغتون للمتعة والصداقة ليس إلا. وصل المسيو دوبونت، كما ذكر السيد كاردينال، ومزاجه ليس حسنًا؛ لا أستطيع أن أتذكَّر الآن شتى الأمور التي أزعجته منذ وصوله إلى إنجلترا قبل مجيئه إلى القصر ببضعة أيام، ولكنه كان على ما أذكر جيدًا قد أصيب بقرح مؤلمة في قدميه أثناء تجوله لمعاينة المشاهد السياحية في لندن، وكان يخشى أن تتطور هذه القرح إلى بثور متقيحة. حولت خادمه الخاص على الآنسة كنتون، ولكن هذا لم يمنع المسيو دوبونت من أن يطق إصبعيه مشيرًا إليَّ بين ساعة وأخرى قائلًا: «يا رئيس الخدم؛ أنا بحاجة إلى ضمادات أخرى».
ويبدو أن نفسيته قد انتعشت عند رؤيته للسيد لويس. فقد حيا، هو والشيخ الأمريكي، أحدهما الآخر تحية زملاء قدامى وكانا يُشاهدان معًا في أغلب ساعات النهار وهما يضحكان إذ يتبادلان الذكريات. والواقع أن تقارب المستر لويس من المسيو دوبونت كان مضايقة جدية للورد دارلنغتون، فقد كان فخامته توافًا لإقامة علاقة شخصية وثيقة مع هذا السيد المرموق قبل بدء المباحثات. وقد شهدت فخامة اللورد في مناسبات متعددة يحاول أن ينتحي بالمسيو دوبونت جانبًا لكي يحادثه حديثًا خاصًّا، فإذا بالسيد لويس يفرض نفسه باسمًا عليهما بأن يقول شيئًا ما، وهكذا سرعان ما يجد فخامة اللورد نفسه مضطرًّا للاستماع إلى مزيد من حكايات السيد لويس المرحة. بيد أن الضيوف الآخرين كانوا، عدا السيد لويس هذا، يتجنبون المسيو دوبونت ويحاذرون منه، إما عن شعور بالرهبة وإما عن شعور بالعداء، الأمر الذي كان

واضحًا حتى في ذلك الجو المحترس عمومًا، والذي يُظهر إحساسًا بأن المسيو دوبونت هو الشخص الذي بيده بصورة من الصور مفتاح النتيجة المنتظرة في الأيام التالية.

بدأ المؤتمر صباح يوم مطير خلال الأسبوع الأخير من آذار ١٩٢٣ في مكان لا يتوقع عقده فيه وهو قاعة الاستقبال - مكان جرى اختياره ليلائم الطبيعة «غير الرسمية» لحضور عدد من المشاركين فيه. أنا شخصيًّا رأيت أن المظهر غير الرسمي قد مُطَّ إلى درجة تثير السخرية الصامتة. كان من الغرابة بمكان أن ترى تلك الغرفة الأنثوية الطابع نوعًا ما وقد اكتظت بكثير من الرجال المتجهمين وهم بملابسهم الداكنة، جالسين كتفًا إلى كتف بأعدادهم على الأريكة الواحدة؛ ولكن ما العمل أمام تصميم البعض بإضفاء هذا المظهر الذي يراد منه أن يدل على أن الاجتماع ما هو إلا مناسبة اجتماعية؟ وقد دفعهم تصميمهم هذا إلى المبالغة حتى إنهم كانوا يضعون المجلات والجرائد مفتوحة على ركبهم.

كنت أنا مضطرًّا، أثناء ذلك الصباح الأول، أن أدخل إلى القاعة وأخرج منها باستمرار، لذا لم أتمكن من تتبع ما يجري بصورة وافية. ولكني أتذكر اللورد دارلنغتون يفتتح المباحثات بالترحيب رسميًّا بالضيوف، قبل أن يمضي في تلخيصه للقضية الأخلاقية القوية القاضية بتخفيف أعباء معاهدة فرساي في شتى جوانبها، مشددًا على الشقاء الذي شهده بنفسه في ألمانيا. كنت بالطبع قد سمعت مثل هذه العواطف ذاتها تجري على لسان فخامة اللورد في مناسبات متعددة في السابق، ولكن عمق الإيمان الذي به تحدث في هذا المحفل المعظم كان شديدًا إلى درجة لم أستطع معها إلا أن أشعر بعواطفي تجيش من جديد. ثم تكلم السير ديفيد كاردينال، ومع أنني كنت منشغلًا ففاتني القسم الأكبر من خطابه، إلا أن الخطاب فيما يبدو كان في جوهره فنيًّا وهو بصراحة فوق مستواي. ولكن فحواه على ما يظهر كان قريبًا من فحوى خطاب اللورد، وقد اختتم السير ديفيد كلامه بالدعوة إلى تجميد دفع التعويضات الألمانية وإلى انسحاب القوات الفرنسية من منطقة الرور. عندئذ بدأت الكونتيسة الألمانية بالكلام، ولكني كنت مضطرًّا لسبب ما لا أستطيع تذكره إلى مغادرة قاعة الاستقبال لفترة طويلة. ما إن عدت إليها حتى وجدت الضيوف منهمكين في نقاش مفتوح، وكانت المباحثات - مع كثير من الكلام حول التجارة ومعدلات الفائدة - فوق مستواي تمامًا.

لم يكن المسيو دوبونت، على قدر ما استطعت أن ألاحظ، يسهم بشيء في المباحثات، وكان من الصعب عليَّ أن أعرف وهو في وضعه النكد الحرون هل كان يتابع ما يقال متابعة دقيقة أم كان مستغرقًا في أفكار أخرى. وعندما خرجت من الغرفة أثناء خطاب كان يلقيه أحد السادة الألمان نهض المسيو دوبونت فجأة وتبعني إلى الخارج.

ما إن كنا في الردهة حتى قال: «يا رئيس الخدم، قل لي هل يمكن تغيير الضمادات في قدميَّ. فالقروح تزعجني كثيرًا الآن فلا أستطيع أن أصغي لما يقوله هؤلاء السادة».

وعلى ما أذكر ناشدت الآنسة كنتون المساعدة - عن طريق رسول، بطبيعة الحال - وتركت المسيو دوبونت جالسًا في غرفة البليارد بانتظار الممرضة، فإذا بالخادم الأول ينزل مسرعًا من السلَّم وعليه مخائل الكرب ويأتي ليخبرني أن والدي قد سقط مريضًا في الطابق العلوي.

هرعت صاعدًا إلى هناك وما إن استدرت في صحن السلَّم حتى دهمني مشهد غريب. ففي الطرف الأقصى من الرواق، وأمام النافذة الكبيرة، وكانت آنئذٍ تسبح بضياء قاتم وبالمطر، رأيت أبي متجمدًا في وضع يشي بأنه يقوم بأحد الطقوس الاحتفالية. كان قد سقط على إحدى ركبتيه وقد انحنى رأسه وكأنه يدفع عربة الخدمة أمامه، وكانت لسبب ما تستعصي على الحركة. هناك اثنتان من خادمات الغرف تقفان على مسافة غير قصيرة وهما تراقبانه بشيء من الرهبة. ذهبت إلى أبي وفككت يديه من قبضتيهما على حافة العربة، وأنزلت جسمه ليستقر على السجادة. كانت عيناه مغمضتين، ووجهه شاحبًا شحوب الموتى، مع قطرات من العرق على جبينه. ثم ساعدني بعضهم، وجيء بكرسي المقعدين، فنُقل والدي إلى غرفته في الطابق الأعلى.

ما إن مددنا أبي في سريره حتى شعرت بشيء من الحيرة بشأن ما سأفعله؛ فقد بدا للوهلة الأولى أن من غير المرغوب فيه أن أترك والدي وهو على هذه الحالة، ولكني في واقع الأمر لم يكن عندي لحظة واحدة من فراغ. وإذ وقفت مترددًا في الباب أطلت الآنسة كنتون ووقفت إلى جانبي تقول: «يا سيد ستيفنز، عندي من الوقت أكثر مما عندك الآن. سأعتني أنا بوالدك، إذا شئت، وسأستقبل الدكتور مريديث وأصعد به إلى هنا ثم أبلغك إذا كان لديه ما يستحق التبليغ».

قلت لها: «شكرًا لك يا آنسة كنتون»، واستأذنت بالخروج. حين عدت إلى قاعة الاستقبال كان أحد رجال الكنيسة يتكلم عن الشدائد التي يقاسيها الأطفال في برلين. وقد وجدت نفسي على الفور منشغلًا كل الانشغال بخدمة الضيوف وأنا أضيف إلى أكوابهم القهوة أو الشاي. لاحظت اثنين من السادة كانا يحتسيان الكحول، كما بدأ بعضهم بالتدخين على الرغم من وجود السيدتين في القاعة. كنت أغادر قاعة الاستقبال على ما أذكر وبيدي إبريق الشاي الفارغ حين استوقفتني الآنسة كنتون وقالت:

«يا سيد ستيفنز، إن الدكتور مريديث سيغادر الآن».

كنت أرى هذا الطبيب، وهي تقول ذلك، يرتدي معطفه المطري وقبعته في الردهة، لذا ذهبت إليه وإبريق الشاي لا يزال في يدي. نظر إليَّ وعليه مخائل السخط وقال: «والدك ليس في حال حسنة. فإذا تردى وضعه اطلب حضوري مرة أخرى فورًا».

«نعم، سيدي. شكرًا، سيدي».
«كم يبلغ والدك من العمر يا ستيفنز».
«اثنين وسبعين يا سيدي».
فكر الدكتور مريديث بهذا ثم قال مرة أخرى: «إذا تردى وضعه اطلب حضوري مرة أخرى فورًا».
شكرته مجددًا وشيعته إلى الباب.
وإنه لفي تلك الأمسية، قبيل العشاء، أن تسمعت مصادفة لمحادثة بين السيد لويس والمسيو دوبونت. كنت قد صعدت لسبب ما إلى غرفة المسيو دوبونت وأوشكت أن أطرق الباب، ولكني قبل أن أفعل ذلك، كما هي عادتي المتبعة، توقفت لثانية واحدة لكي أصغي عند الباب. لعلك شخصيًّا لا تتبع هذه العادة باتخاذ هذه الحيطة البسيطة لكي تتحاشى الطرق في لحظة تكون غير مناسبة جدًّا، ولكنني كنت أتبعها دائمًا وبوسعي أن أدعي أن هذه العادة شائعة بين عدد من المحترفين للمهنة. بعبارة أخرى، لا ينطوي مثل هذا العمل على أية حيلة، وأنا شخصيًّا لم أكن أنوي أن أسترق السمع إلى الحد الذي قمت به في تلك الأمسية. ولكن القدر قضى بما حدث، فحين وضعت أذني على باب المسيو دوبونت صادف أن سمعت صوت السيد لويس، ومع أني لا أستطيع أن أستذكر بالضبط الكلمات ذاتها التي سمعتها أولًا، ولكن نبرة صوته هي التي أثارت شكوكي، كنت أصغي إلى الصوت اللطيف، البطيء ذاته الذي به فُتن السيد الأمريكي منذ وصوله، ومع هذا فإن الصوت يحتوي الآن على شيء مقنع لا يمكن أن تخطئه الأذن. كان هذا الإدراك، إلى جانب وجود الرجل في غرفة المسيو دوبونت وهو يخاطب فيما يُفترض هذه الشخصية النافذة جدًّا، هو الذي دعاني إلى عدم طرق الباب والاستمرار عوضًا عن ذلك بالاستماع. إن أبواب غرف النوم في قصر دارلنغتون مصنوعة بسمك معين فلا أستطيع بأي حال أن أسمع الكلام المتبادل كاملًا؛ بالتالي فإن من العسير عليَّ الآن أن أتذكر بالضبط الحديث الذي استرقت السمع إليه، كما كان وضعي تمامًا حين نقلت الأمر إلى فخامة اللورد فيما بعد في تلك الأمسية ذاتها. مع ذلك فإن هذا لا يعني أنني لم أستطع أن أكوِّن فكرة واضحة بعض الشيء عما كان يجري في داخل الغرفة. كان السيد الأمريكي في حقيقة الأمر يطرح رأيًا مفاده أن المسيو دوبونت يُتخذ ألعوبة من لدن فخامة اللورد والمشاركين الآخرين في المؤتمر؛ وأن المسيو دوبونت قد دُعي بتاريخ متأخر عمدًا لتمكين الآخرين من بحث الموضوعات المهمَّة في غيابه؛ وأنه حتى بعد وصوله كان من الملاحظ أن فخامة اللورد يجري محادثات خاصَّة تقتصر على أهم المندوبين دون دعوته إليها. ثم بدأ السيد لويس بنقل ملاحظات معينة أبداها فخامة اللورد والآخرون على العشاء في تلك الليلة الأولى بعد وصوله.
سمعت السيد لويس يقول:

«بصراحة يا سيدي كنت مذهولًا تجاه موقفهم نحو أبناء وطنك. وقد استعملوا فعلًا كلمات مثل «بربري» و«مستهجن». حتى إنني سجلتها في دفتر يومياتي بعد ذلك بقليل».

قال المسيو دوبونت شيئًا باقتضاب لم أستطع أن ألتقطه، ثم قال السيد لويس مرة أخرى: «أقولها لك يا سيدي كنت مذهولًا. أهذه كلمات تستعمل عن حليف وقفتم إلى جانبه يدًا بيد قبل بضع سنين فقط؟».

وأنا لست متأكدًا الآن إن كنت قد طرقت الباب على الإطلاق؛ من الممكن جدًّا، بالنظر للطبيعة المفزعة لما سمعته، أنني رأيت من الأفضل أن أنسحب نهائيًّا. وعلى أية حال لم أتخلف عند الباب طويلًا - كما أوضحت لفخامة اللورد بعد ذلك بقليل - لكي أسمع شيئًا ينبئ بموقف المسيو دوبونت من ملاحظات السيد لويس.

في اليوم التالي بلغت المباحثات في قاعة الاستقبال مستوى جديدًا من الشدة، وما إن حل موعد الغداء حتى أصبح التراشق حادًّا. وكان انطباعي أن ثمة أقوالًا كانت توجه بصيغة الاتهام، وبجسارة متزايدة، نحو المقعد الوثير حيث يجلس المسيو دوبونت وهو يعبث بلحيته، ولا يقول شيئًا. وكلما تأجل المؤتمر ألاحظ، كما كان فخامة اللورد يلاحظ بلا ريب بشيء من الاهتمام، أن السيد لويس يسرع إلى المسيو دوبونت وينتحي به جانبًا فيتحادثان بهدوء. بل أذكر مرة أنني أقبلت عليهما بعد الغداء بقليل فشاهدتهما يتكلمان خلسة في مجاز المكتبة، وكان انطباعي الأكيد أنهما قطعا حديثهما عند اقترابي منهما. وفي هذه الأثناء كانت حالة أبي مستقرة فلا هي تتحسن ولا هي تسوء. وقد علمت أنه كان ينام أغلب الوقت، بل إني وجدته نائمًا في المرات القليلة التي اختلست فيها لحظة فراغ من وقتي للصعود إلى تلك الغرفة العليَّة الصغيرة. لم تسنح لي الفرصة في الواقع لأتحدث معه إلا في تلك الليلة التي عاوده فيها المرض.

كان والدي في تلك المرة التي ذهبت فيها إليه نائمًا أيضًا حين دخلت عليه. ولكن الخادمة التي عهدت إليها الآنسة كنتون أن تقوم على رعايته وقفت حين رأتني وبدأت تهز كتف أبي. نهرتها قائلًا: «يا حمقاء، ماذا تفعلين؟».

«قال لي السيد ستيفنز أن أوقظه إذا أتيت يا سيدي».

«دعيه ينم. فالإنهاك هو الذي سبَّب مرضه».

«قال لي يجب أن أوقظه، يا سيدي»، وكانت الفتاة تهز كتف أبي مرة أخرى.

فتح أبي عينيه، وأدار رأسه قليلًا على الوسادة، ونظر إليَّ. قلت:

«آمل أن يكون الوالد في حال أحسن الآن».

ظل يحملق بي، ثم سألني: «هل كل شيء تحت السيطرة في الطابق السفلي؟».

«الوضع متقلب نوعًا ما: الساعة الآن تجاوزت السادسة بقليل، فيستطيع الوالد أن يتصور الجو السائد في المطبخ الآن».

ظهرت على وجه والدي ملامح صبر نافد. قال مرة أخرى:
«ولكن هل كل شيء تحت السيطرة؟».
«نعم، وأؤكد ذلك. وأنا مسرور أن أرى الوالد في حال أحسن».
سحب ذراعيه من تحت الأغطية بتأنٍّ وحدَّق بظاهر يديه على نحو متعب. واستمر يحدِّق بهما لبعض الوقت.
قلت بعد ذلك مرة أخرى: «أنا مسرور أن أرى الوالد في حال أحسن كثيرًا. والآن عليَّ أن أعود. فكما قلت الوضع متقلب نوعًا ما؟».
استمر أبي ينظر إلى يديه هنيهة. ثم قال ببطء: «أرجو أنني كنت أبًا جيدًا لك».
ضحكت قليلًا وقلت: «أنا مسرور جدًّا أن أراك في حال أحسن الآن؟».
«أنا فخور بك. أنت ولد صالح. أرجو أنني كنت أبًا جيدًا لك. ولا أظن أنني كنت كذلك؟».
«نحن مشغولون جدًّا الآن، ولكن يمكننا أن نتحدث مرة أخرى صباحًا؟».
كان والدي لا يزال ينظر إلى يديه كأنه كان منزعجًا منهما. قلت وأنا أستأذن بالخروج: «أنا مسرور جدًّا أن أراك في حال أحسن الآن».
نزلت إلى المطبخ فوجدته على شفا حالة من الهرج والمرج، وقد توتر الجو جدًّا على مختلف مستويات المستخدمين. بيد أن مما يسرني أن أتذكر أن كل شيء كان على ما يرام عند حلول موعد تقديم العشاء، ولم يُظهر الفريق العامل بإمرتي سوى الكفاءة والهدوء المهني.
من المشاهد التي لا تُنسى أن يرى المرء قاعة الولائم الكبرى، تلك القاعة البهية الرائعة، وقد اكتظت بالناس، وكانت هذه حالها في تلك الأمسية. غير أن التأثير الذي تحدثه الصفوف المتراصة من الرجال بملابس السهرة، بعددهم الذي يطغى على ممثلتي الجنس اللطيف، كان تأثيرًا حادًّا بالطبع، ولكن كانت الثريات الكبيرة المعلقة فوق المائدة لا تزال تعمل في تلك الأيام بالزيت - مما يشيع في القاعة ضوءًا خافتًا، رقيقًا - فلم تكن تُحدث بريقًا يُعشي البصر كالذي أخذت تحدثه منذ كهربتها. كانت الجماعة في ذلك العشاء الثاني والأخير الخاص بالمؤتمر - وشمل الضيوف سيتفرق بعد غداء اليوم التالي - قد زال عنها الكثير من التحفظ الذي كان ملحوظًا طوال الأيام السابقة.
فالأحاديث كانت تنطلق بحرية وبأصوات عالية، وليس هذا فحسب بل إننا وجدنا أنفسنا نقدم النبيذ بمعدل متزايد بشكل جلي. وعند انتهاء العشاء، الذي تم على أكمل وجه وبدون صعوبات تُذكر من وجهة النظر المهنية، نهض فخامة اللورد لكي يلقي كلمة بالضيوف.
افتتح كلمته بالتعبير عن امتنانه من الحاضرين جميعًا لأن المباحثات خلال اليومين الماضيين قد جرت بروح الصداقة وبالرغبة في أن يسود الخير، «ولو أنها كانت في بعض الأحيان صريحة بشكل منعش».

وقال إن الوحدة التي شهدها اليومان الماضيان كانت أكبر بكثير مما توقعه على الإطلاق، وأنه واثق من أن الجلسة المتبقية التي ستعقد صباح الغد «لإجمال الموضوع» ستكون غنية بالالتزامات من جانب المشاركين بشأن العمل الذي سيأخذه كل منهم على عاتقه قبل انعقاد المؤتمر الدولي المهم في سويسرا.

وهنا - ولا أدري إن كان فخامته قد خطط لذلك سابقًا - بدأ يروي ذكرياته عن صديقه المُتوفَّى الهر كارل - هاينز بريمان. كان هذا من سوء الطالع، فالموضوع عزيز على قلب فخامة اللورد وهو يميل إلى الإطناب فيه كثيرًا. ولعل من الضروري أن أقول إن اللورد دارلنغتون لم يكن قَطُّ مجبولًا على ما يُسمى بالخطيب العمومي، لذا فسرعان ما أخذت تتعالى في القاعة أصوات التململ التي تشي بزوال انتباه المستمعين. فما إن آن الأوان لكي يصل اللورد دارلنغتون إلى الختام ويرجو الضيوف أن يقفوا ويشربوا نخب «السلام والعدالة في أوروبا» حتى كان مستوى الضجيج - ربما بسبب الكميات الكبيرة التي احتسيت من النبيذ - قد وصل حدًّا شعرت أنه يتاخم سوء التصرف.

ما إن جلس الجمع مرة أخرى وأوشكت الأحاديث على أن تبدأ مجددًا حتى سمعت صوت يد تدق على خشب المائدة بشكل ينم عن حزم وعزم، ونهض المسيو دوبونت فوقف على قدميه. وفي الحال خيَّم السكوت على القاعة. نظر هذا السيد المرموق حوله في أرجاء المائدة نظرة تكاد تكون قاسية. ثم قال: «أرجو ألا أكون قد تجاوزت على واجب مفروض على شخص آخر موجود هنا، ولكني لم أسمع أحدًا يقترح علينا أن نشرب نخب مضيفنا عربونًا للشكر، مضيفنا اللورد دارلنغتون المحترم، صاحب الأفضال»، وسمعت أصواتًا تغمغم بالاستحسان. فمضى المسيو دوبونت قائلًا: «لقد قيلت أشياء كثيرة ذات أهمية خلال الأيام الماضية في هذه الدار. أشياء كثيرة مهمَّة». وتوقف، فكان هناك الآن سكوت مطبق في القاعة.

استمر المتكلم يقول: «كان ثمة الكثير من الأقوال التي انتقدت وهذه ليست كلمة قوية جدًّا - وأشدد على الكلمة، انتقدت، صراحة أو ضمنًا، سياسة بلادي الخارجية». وتوقف مرة أخرى وقد بدا عليه العبوس. بل ربما ظنه المرء غاضبًا. ثم قال: «لقد استمعنا في هذين اليومين لتحليلات متعددة ذكية وشاملة للوضع الحاضر المعقد جدًّا في أوروبا. ولكنها كلها، إذا سمحتم، لم تكن محيطة كل الإحاطة بالأسباب التي تدعو فرنسا إلى اتخاذ الموقف الذي تتخذه نحو جارتها. بيد أن هذا» - ورفع سبابته - «ليس وقت الدخول في مثل هذه المناقشات. والواقع أنني أحجمت عمدًا عن الدخول في مثل هذه المناقشات خلال الأيام الماضية لأنني جئت إلى هنا بالأساس لكي أسمع. ودعوني أقل الآن إنني أعجبت ببعض الحجج المعينة التي سمعتها هنا. ولكن قد تسألون كيف أعجبت؟» وهنا توقف المسيو دوبونت توقفًا آخر فكان نظره الحاد خلال ذلك يتجول متمهلًا بين جميع العيون المسلطة عليه. ثم قال أخيرًا: «أيها السادة -

عفوًا، والسيدات - لقد فكرت كثيرًا في هذه الأمور وأود أن أقول هنا ثقة بكم إنني، برغم ما ظل عالقًا من اختلافات بيني وبين عدد من الحاضرين حول تفسير ما يجري فعلًا في أوروبا في الوقت الراهن، أقول إنني مقتنع أيها السادة، مقتنع، بالنقاط الرئيسة التي أثيرت في هذه الدار من ناحية عدالة هذه النقاط وعمليتها معًا». وسادت على المائدة غمغمة من الارتياح والانتصار معًا، ولكن المسيو دوبونت رفع هذه المرة صوته قليلًا وأعلن من فوق الغمغمة السائدة يقول: «يسعدني أن أؤكد لكم جميعًا هنا بأنني سأوجه ما لديَّ من نفوذ متواضع نحو تشجيع تغييرات معينة في بعض النواحي التي تشدد عليها السياسة الفرنسية وذلك وفقًا لكثير مما قيل هنا. وسأسعى للقيام بذلك في وقت يسبق انعقاد المؤتمر في سويسرا».

تعالت موجة من التصفيق، ورأيت فخامة اللورد يتبادل النظرات مع السير ديفيد. رفع المسيو دوبونت يده، وإن لم يكن من الواضح هل كان ذلك تقبلًا منه للتصفيق أم كان إيقافًا له. ثم قال:

«ولكن قبل أن آتي إلى إزجاء الشكر لمضيفنا اللورد دارلنغتون لديَّ شيء بسيط أود أن أزيحه عن صدري. قد يقول بعضكم إن من سوء التصرف إزاحة مثل هذه الأشياء عن الصدر ونحن على مائدة العشاء». هنا تعالى التصفيق الحاد «بيد أني من أنصار الصراحة في هذه الأمور، فكما أن من اللازم إبداء الامتنان رسميًّا وعلنًا إلى اللورد دارلنغتون الذي جمعنا هنا وجعل من الممكن ظهور هذه الروحية الحالية، روحية الوحدة وحسن النية، فإن من اللازم أيضًا على ما أعتقد أن نشجب صراحة من جاء إلى هنا لكي يستغل ضيافة المضيف، ويبذل نشاطه الجم لا لشيء إلا لمحاولة زرع التذمر والريبة. إن مثل هؤلاء لا يثيرون الاشمئزاز اجتماعيًّا في مناخ اليوم فحسب بل هم من العناصر الخطرة جدًّا». توقف مرة أخرى فكان هناك مجددًا سكون مطبق. ثم استمر المسيو دوبونت يقول بصوت هادئ، متأنٍّ: «إن سؤالي الوحيد من السيد لويس هو هذا: إلى أي مدى يمثل تصرفه الكريه موقف الحكومة الأمريكية الحاضرة؟ سيداتي وسادتي، دعوني أبادر شخصيًّا إلى تخمين الجواب، ذلك أن مثل هذا الرجل القادر على ذلك النوع من الخداع الذي أظهره في هذه الأيام الماضية لا ينبغي الاعتماد عليه في إعطاء جواب صادق. لذا سأبادر إلى إعلان ما أخمنه. إن أمريكا مهتمة بالطبع بشأن دفع ديوننا لها في حالة تجميد التعويضات الألمانية، ولكن سنحت لي بعض الفرص خلال الأشهر الستة الماضية لبحث هذه المسألة بالذات مع عدد من الأمريكيين ذوي المكانة الرفيعة، ويبدو لي أن التفكير في تلك البلاد أبعد نظرًا بكثير من التفكير الذي يمثله ابن وطنهم هنا. إننا جميعًا، نحن الذين يهمنا مستقبل الرفاهية في أوروبا، سنجد بعض العزاء حين نعلم أن السيد لويس - وكيف سأقولها - أنه الآن ليس ذلك المؤثر صاحب النفوذ الذي كانه حينًا من الدهر. لعلكم ستظنونني فظًّا بشكل لا موجب له في إفصاحي عن هذه الأمور بهذه الصراحة. ولكن الحقيقة، أيها السيدات

والسادة، هي أنني رحيم به. أجل، فأنا أحجم عن تلخيص ما طفق يقوله هذا الرجل - عنكم جميعًا. وأشدد: عنكم جميعًا. ويقوله بأسوأ وسيلة وأكثرها ارتباكًا وفيها ما فيها من الوقاحة والفظاظة ما لا أكاد أستطيع تصديقه. ولكن كفانا شجبًا. وقد حان الوقت الآن لتقديم الشكر. أرجو أن تشاركوني، إذن، أيها السيدات والسادة، في رفع كؤوسكم إكرامًا للورد دارلنغتون».

لم ينظر المسيو دوبونت ولو مرة واحدة باتجاه السيد لويس خلال هذا الخطاب، لا بل حالما جلس الجمع بعد أن شربوا نخب فخامة اللورد حتى كان الجميع يتحاشون النظر إليه بشكل متعمد. وساد صمت منبعث عن عدم ارتياح، ثم نهض السيد لويس أخيرًا ووقف على قدميه. كان يبتسم بانشراح على شاكلته المعتادة.

قال: «طيب. وحيث إن الجميع يلقون خطابات، فسآخذ دوري الآن في الكلام». كان واضحًا في الحال مما يدل عليه صوته أنَّه قد احتسى كثيرًا من الخمر. واسترسل يقول: «ليس لديَّ ما أقوله تجاه الهُراء الذي تفوه به صديقنا الفرنسي. لقد حاول البعض أن يفرضوا عليَّ شخصًا مرات عديدة في حياتي ودعوني أقل لكم أيها السادة أنهم لم ينجحوا. نعم، لم ينجحوا». وتلجلج السيد لويس كأنه لا يعرف ماذا سيقول بعدئذٍ. أخيرًا ابتسم مرة أخرى وقال: «وكما قلت فأنا لن أضيِّع وقتي على صديقنا الفرنسي هنا. ولكنْ عندي شيء أريد أن أقوله. فنحن قد صرنا جميعًا من أنصار الصراحة، وسأكون أنا صريحًا أيضًا. فما أنتم أيها السادة هنا إلا شرذمة من الحالمين الساذجين، واسمحوا لي أن أقولها، فإذا لم تصروا على التدخل في الشؤون الكبرى التي تؤثر في الكرة الأرضية فستكونون حقًّا وفعلًا موضع الإعجاب الشديد. فلنأخذ مضيفنا الطيِّب هنا. من هو؟ رجل مهذب. ولا أعتقد أن أحدًا هنا سيخالفني في هذا. رجل مهذب إنجليزي كلاسيكي. مستور، شريف، حسن النية. ولكن هذا اللورد هاوٍ من الهواة». توقف وهو ينطق هذه الكلمة ونظر إلى الجالسين حول المائدة.

«إنه هاوٍ، والشؤون الدولية اليوم لم تعد تخص الرجال المهذبين الهواة. وستحسنون صنعًا إذا أدركتم هذه الحقيقة، أنتم في أوروبا، إدراكًا سريعًا. ودعوني أسألكم، كلكم أيها الرجال المهذبون والمستورون، حسنو النية، هل لديكم فكرة عما أصبح عليه العالم من حولكم؟ إن الأيام التي كنتم تعملون فيها بدافع غرائزكم النبيلة قد انتهت. وباستثنائكم أنتم بالطبع، فأنتم هنا في أوروبا يبدو أنكم لا تعرفون ذلك. إن رجالًا مهذبين من أمثال مضيفنا الطيِّب لا يزالون يعتقدون أن من واجبهم التدخل في أمور لا يفهمونها. لقد قيل الكثير من الكلام التافه هنا خلال اليومين الماضيين. كلام تافه ساذج، حسن النية. إنكم هنا في أوروبا بحاجة إلى محترفين لإدارة شؤونكم. فإن لم تدركوا ذلك سريعًا فإنكم سائرون نحو الكارثة. أسألكم أن تشربوا نخبًا، أيها السادة. أقترح أن نشرب نخبًا. نخبًا للاحتراف».

ساد صمت مطبق ولم يتحرك أحد. فهز السيد لويس كتفه ورفع كأسه لجميع الجالسين وشربها ثم جلس. وفي الحال نهض اللورد دارلنغتون.

قال فخامته: «أنا لا أرغب في الدخول في مهاترة في هذه الليلة الأخيرة من اجتماعنا معًا وكلنا له الحق بالاستمتاع به بصفته مناسبة سعيدة وظافرة. ولكن، واحترامًا مني لآرائك يا سيد لويس، فأنا أشعر أن من الواجب عدم طرحها جانبًا وكأنها قيلت على لسان شخص شاذ من على منبر في الهواء الطلق. دعني أقل لك ما يلي: إن الذي تصفه بـ«الهواية» يا سيدي هو ما لا نزال نحن جميعًا هنا نفضل أن نسميه «الشرف»».

أثار هذا غمغمة عالية من الموافقة مع أصوات كثيرة تقول:

«نعم، نعم»، وبعض التصفيق.

ومضى فخامة اللورد يقول: «فضلًا عن هذا يا سيدي فأنا أعتقد أن عندي فكرة جيدة عما تقصده أنت بـ«الاحتراف». يبدو أنها تعني أن يشق المرء طريقه بالخداع والتلاعب. وتعني أن ينظم المرء أولوياته بموجب الجشع والنفع بدلًا من الرغبة في أن يسود الخير والعدل في العالم. إذا كان هذا هو «الاحتراف» الذي تشير إليه يا سيدي فأنا لا أعبأ به كثيرًا ولا أرغب في اكتسابه».

لاقى هذا الكلام استحسانًا صارخًا لم يسبق له مثيل، مع تصفيق حاد ومستمر. كنت أرى السيد لويس يبتسم ناظرًا إلى كأس النبيذ أمامه وهو يهز رأسه متعبًا. وفي هذه اللحظة ذاتها أدركت أن الخادم الأول يقف إلى جانبي. همس في أذني يقول: «تريد الآنسة كنتون أن تكلمك يا سيدي. إنها عند الباب».

خرجت وأنا أسترق الخطى في اللحظة التي كان فخامة اللورد فيها يبدأ بنقطة جديدة في كلمته.

كانت الآنسة كنتون تبدو منقبضة النفس. قالت:

«اشتد المرض على والدك جدًّا يا سيد ستيفنز. وقد استدعيت الدكتور ميريديث، ولكني أظن أنه سيتأخر قليلًا».

لا بد أنني كنت مشوشًا بعض الشيء، لأن الآنسة كنتون أردفت تقول: «يا سيد ستيفنز، إنه في حالة سيئة فعلًا. من الأفضل لك أن تأتي وتراه».

«خلال دقائق. فالسادة سينتقلون إلى غرفة التدخين في أية لحظة».

«بالطبع. ولكن يجب أن تأتي الآن يا سيد ستيفنز، وإلا فقد تندم على ذلك فيما بعد».

كانت الآنسة كنتون قد سارت أمامي أصلًا، فهرعنا نخترق البيت ونصعد إلى عليَّة أبي الصغيرة. كانت الطاهية، السيدة مورتيمر، تقف عند سرير أبي وهي لا تزال بمئزر العمل.

قالت عند دخولنا: «أوه، يا سيد ستيفنز. لقد ساءت حالته جدًّا».

وبالفعل كان قد اعترى وجه أبي لون أحمر كامد لم أرَ مثله قَطّ على كائن حي. سمعت الآنسة كنتون تقول بصوت رقيق من خلفي: «نبضه ضعيف جدًّا». حدقت بأبي لحظة، ولمست جبينه لمسًا خفيفًا، ثم سحبت يدي.

قالت السيدة مورتيمر: «في رأيي أنه أصيب بذبحة. رأيت اثنين في حياتي وأظن أنه أصيب بذبحة». وأخذت تبكي. كانت تفوح منها روائح الطبخ القوية. التفت وقلت للآنسة كنتون: «هذا شيء محزن جدًّا. مع ذلك يجب أن أعود الآن إلى الطابق الأرضي».

«بالطبع يا سيد ستيفنز. سأخبرك عندما يصل الطبيب. أو إذا حدثت تغيرات».

«شكرًا يا آنسة كنتون».

هرعت أنزل السلَّم وعندما وصلت كنت أرى السادة الحاضرين يتوجهون إلى غرفة التدخين. بدا الارتياح على وجوه الخدم حين رأوني فأشرت إليهم في الحال أن ينصرفوا إلى مواقعهم.

لا أدري ماذا حدث في قاعة الولائم الكبرى بعد مغادرتي. ولكني وجدت الآن جوًّا احتفاليًّا حقيقيًّا يسود بين الضيوف. كان أولئك السادة يقفون في أرجاء غرفة التدخين في تجمعات متراصة وهم يضحكون ويربت بعضهم على أكتاف بعض. وبقدر ما استطعت أن أتبين كان السيد لويس قد انصرف أصلًا. وجدت نفسي أطوف بين الضيوف حاملًا قنينة النبيذ «البورت» حلو المذاق. ما إن صببت كأسًا لأحد السادة هناك حتى سمعت صوتًا من خلفي يقول: «آه، ستيفنز، فأنت تهتم بالأسماك كما قلت».

استدرت فوجدت السيد كاردينال ينظر إليَّ وقد أضاء وجهه المرح. ابتسمت أنا أيضًا وقلت: «الأسماك يا سيدي؟».

«حين كنت صغيرًا كنت أجمع أنواع الأسماك الاستوائية كافة في برميل. حوض صغير للعرض. قل لي يا ستيفنز، هل أنت بخير؟».

ابتسمت مرة أخرى وقلت: «بخير تمامًا، شكرًا يا سيدي».

«ينبغي لي، كما أشرت أنت بصواب، أن أعود إلى هنا في الربيع. لا بد أن يكون قصر دارلنغتون عندئذ بديعًا جدًّا. في المرة الأخيرة التي كنت فيها هنا أظن كان الفصل شتاء أيضًا عندئذ. قل لي يا ستيفنز، هل أنت بخير حقًّا؟».

«بكل خير، شكرًا يا سيدي».

«ألا تشكو من شيء؟».

«أبدًا يا سيدي، أرجو أن تسمح لي».

مضيت أصب نبيذ «البورت» لبعض الضيوف الآخرين. سمعت من خلفي ضجة عالية من الضحك والقس البلجيكي يصيح:

«هذه هرطقة حقيقية! هرطقة بالتأكيد!» ثم ضحك هو شخصيًّا ضحكًا عاليًا. شعرت بشيء يمس ساعدي فاستدرت ورأيت اللورد دارلنغتون.

«هل أنت بخير يا ستيفنز؟».

«نعم يا سيدي، بكل خير».

«أنت تبدو وكأنك تبكي».
ضحكت وأخرجت منديلًا من جيبي ومسحت وجهي سريعًا. «أنا آسف جدًّا يا سيدي هذه ضغوط يوم صعب».
«نعم، كان عملكم شاقًّا».
خاطب أحدهم فخامته فاستدار نحوه ليجيبه: كنت أنا على وشك أن أدور دورتي في الغرفة حيث رأيت الآنسة كنتون من خلال الباب المفتوح، وهي تشير لي. بدأت أتجه نحو الباب وقبل أن أصل إلى هناك لمس المسيو دوبونت ذراعي وقال:
«يا رئيس الخدم؛ هل يمكن أن تجد لي بعض الضمادات النظيفة؟ قدماي لا تحتملان مجددًا».
«نعم، سيدي».
ما إن باشرت سيري نحو الباب حتى أدركت أن المسيو دوبونت يتبعني، استدرت نحوه وقلت: «أنا سآتي إليك يا سيدي، حالما أجد المطلوب».
«أسرع يا رئيس الخدم رجاء. ألمي غير قليل».
«نعم سيدي. آسف جدًّا سيدي».
كانت الآنسة كنتون لا تزال واقفة في الردهة حيث رأيتها أول مرة. وعندما اتجهت نحوها أخذت تسير صامتة نحو السلَّم، وفي تصرفها تمهل غريب. عندئذ استدارت وقالت: «يا سيد ستيفنز، أنا آسفة جدًّا. تُوفِّي والدك قبل حوالي أربع دقائق».
«هذا إذن».
نظرت إلى يديها، ثم إلى وجهي. قالت: «يا سيد ستيفنز، أنا آسفة جدًّا». ثم أضافت: «ليتني أستطيع أن أقول شيئًا».
«لا حاجة إلى ذلك يا آنسة كنتون».
«لم يصل الدكتور ميريديث بعد». ثم أحنت رأسها وندت عنها جهشة بكاء. ولكنها استعادت رباطة جأشها فورًا وقالت بصوت متزن: «هل تصعد لتراه».
«أنا مشغول جدًّا الآن يا آنسة كنتون. ربما آتي بعد قليل؟».
«هل تسمح لي في هذه الحالة، يا سيد ستيفنز، أن أغمض له عينيه؟».
«سأكون ممتنًّا لك عن ذلك يا آنسة كنتون».
بدأت تصعد السلَّم، ولكني استوقفتها، قائلًا: «يا آنسة كنتون، أرجو ألا تظنينني أتصرف بشكل غير لائق لأنني لا أصعد لأرى أبي في هذه اللحظة وقد لفظ أنفاسه الأخيرة. ألا ترين، فأنا أعلم أن أبي كان سيود أن أواصل عملي الآن».
«بالطبع، يا سيد ستيفنز».
«وإلا فسأخيب ظنه».
«بالطبع، يا سيد ستيفنز».

انصرفت ولا تزال قنينة النبيذ بيدي وعدت إلى غرفة التدخين. كانت تلك الغرفة الصغيرة نسبيًّا كأنها غاب من ملابس السهرة السوداء والرؤوس الشيباء ودخان السيجار. اتخذت سبيلي بين أولئك السادة بحثًا عن كؤوس فارغة لأصب فيها المزيد من النبيذ. ربت المسيو دوبونت على كتفي وقال:

«يا رئيس الخدم، هل رتبت لي أمري؟».

«أنا آسف جدًّا يا سيدي، ولكن المطلوب غير متوفر في هذا الوقت».

«ماذا تعني يا رئيس الخدم؟ هل نفدت ذخيرتكم من التجهيزات الطبية الأساسية؟».

«حدث يا سيدي، إن طبيبًا هو في طريقه إلينا».

«هذا شيء جميل؛ هل استدعيت طبيبًا؟».

«نعم يا سيدي».

«عظيم، عظيم».

استأنف المسيو دوبونت حديثه مع صاحبه فواصلت أنا سيري في أرجاء الغرفة. وبعد قليل ظهرت أمامي الكونتيسة الألمانية من بين الرجال الملتفين حولها، وقبل أن تتاح لي الفرصة لأصب لها في كأسها أخذت هي تصب لنفسها من قنينة النبيذ. قالت:

«أرجو أن تنقل إطرائي إلى الطاهية يا ستيفنز».

«بالطبع، مدام. شكرًا، مدام».

«وأنت وفريقك قمتم بالخدمة جيدًا كذلك».

«شكرًا جزيلًا، مدام».

«في إحدى اللحظات يا ستيفنز كنت أراك وكأنك ثلاثة أشخاص، أقسم بالله»، قالت ذلك وضحكت.

ضحكت أنا ضحكة سريعة وقلت: «أنا مسرور لقيامي بخدمتك، مدام».

بعد لحظات شاهدت السيد كاردينال الشاب واقفًا وحده، غير بعيد، وقد شعرت أن هذا السيد الشاب ربما كان يحس برهبة شديدة وهو بحضرة هؤلاء الرجال. كانت كأسه على أية حال فارغة لذا اتجهت نحوه. انتعش كثيرًا وهو يراني أصل إليه فمد كأسه إليَّ.

قال لي وأنا أصب النبيذ: «شيء بديع يا ستيفنز أن تكون أنت من محبي الطبيعة. ولا بد أن هذا أمر مفيد جدًّا للورد دارلنغتون، إذ عنده من ينظر بعين الخبير إلى عمل البستاني».

«عفوًا سيدي، لم أفهم».

«الطبيعة يا ستيفنز. كنا نتكلم قبل أيام عن مفاتن دنيا الطبيعة. وأنا أتفق معك تمامًا أننا جميعًا قنوعون جدًّا بشأن المفاتن العظمى المحيطة بنا، فكأنها مفروغ منها».

«نعم، سيدي؟».

«أعني، كل هذه الأمور التي كنا نتكلم عنها. المعاهدات والحدود والتعويضات والاحتلال. ولكن أمنا الطبيعة تمضي في طريقها الحبيب. شيء غريب أن نفكر بالأمور هكذا، ألا تظن؟».

«نعم، بالفعل، سيدي».

«تُرى ألم يكن من الأفضل لو أن الباري عز وجل كان قد خلقنا كنوع - يعني - نوع من النباتات. وتعرف كيف، مثبتين في التربة بصورة لا تتزحزح. عندئذ ما كان هذا الهراء عن الحروب والحدود سيقع أصلًا».

ظهر لي أن هذا السيد الشاب قد وجد في ما يقوله فكرة مؤنسة. فقد ضحك، ثم فكر وضحك مرة أخرى. فشاركته في الضحك. عندئذ نخسني وقال: «هل يمكنك أن تتصور ذلك يا ستيفنز؟» وضحك مجددًا.

قلت وأنا أضحك كذلك: «نعم، أتصور ذلك يا سيدي، وهو بديل يثير الغرابة جدًّا».

«إنما يمكن مع ذلك أن يكون عندنا أشخاص مثلك لحمل الرسائل وأجوبتها، ولجلب الشاي، وما أشبه. وإلا فكيف سنستطيع أن نعمل أي شيء؟ هل يمكنك أن تتصور ذلك يا ستيفنز؟ كلنا مجذورون في التربة تصور!».

في تلك اللحظة بالذات ظهر أحد الخدم ورائي، وقال:

«ترغب الآنسة كنتون في أن تكلمك يا سيدي».

استأذنت من السيد كاردينال واتجهت نحو الباب. لاحظت أن المسيو دوبونت مرابط هناك، فما إن أقبلت حتى قال: «يا رئيس الخدم، هل الطبيب هنا؟».

«أنا ذاهب الآن لأتحقق من ذلك يا سيدي. لحظة واحدة».

«أنا أعاني الألم».

«يؤسفني ذلك جدًّا يا سيدي. لن يتأخر الطبيب كثيرًا».

في هذه المرة تبعني المسيو دوبونت عند خروجي. كانت الآنسة كنتون واقفة مرة أخرى في الردهة. قالت:

«يا سيد ستيفنز، وصل الدكتور ميريديث وصعد إلى الطابق الأعلى».

تكلمت بصوت واطئ، ولكن المسيو دوبونت صاح من ورائي فورًا: «هذا جيد».

استدرت إليه وقلت: «أرجو أن تتفضل وتتبعني، سيدي». أخذته إلى غرفة البليارد حيث وضعت خشبًا في الموقد لإضرام النار في حين جلس هو في أحد المقاعد الجلدية وبدأ يخلع حذاءه.

«أنا آسف يا سيدي، فهذه الغرفة باردة. لن يتأخر الطبيب كثيرًا».

«شكرًا لك يا رئيس الخدم. لقد قمت بما يجب».

كانت الآنسة كنتون لا تزال تنتظرني في مجاز الردهة فمضينا نخترق البيت بصمت وصعدنا السلَّم. كان الدكتور ميريديث في غرفة أبي يكتب شيئًا والسيدة مورتيمر تبكي بكاء مرًّا. كانت لا تزال ترتدي مئزر العمل، الظاهر أنها كانت تستعمله لمسح دموعها؛ لذلك كانت هناك آثار دهون على وجهها كله

أضفى عليها طابع الاشتراك في عرض مسرحي لتقليد الزنوج. كنت أتوقع أن أشم في الغرفة رائحة الموت. ولكن، ومن جراء وجود السيدة مورتيمر - أو مئزرها - كانت الغرفة تفوح برائحة الشواء.

نهض الدكتور ميريديث وقال: «أقدم التعازي يا ستيفنز. لقد أصيب بذبحة صدرية حادة وقاضية لذا أحسبه لم يتألم كثيرًا، إذا كان هذا الكلام يريحك في شيء».

«شكرًا لك يا سيدي».

«سأخرج الآن. وستهتم أنت بالترتيبات؟».

«نعم، سيدي. ولكن، إذا سمحت، هناك رجل مهم جدًّا في الطابق الأرضي يحتاج إلى معاينة».

«مسألة مستعجلة؟».

«إنه أبدى رغبة شديدة في رؤيتك يا سيدي».

أخذت الدكتور ميريديث إلى الطابق الأرضي، وأدخلته إلى غرفة البليارد، ثم عدت سريعًا إلى غرفة التدخين حيث وجدت الجو السائد قد ازداد مرحًا ونشوة.

ليس من شأني أنا شخصيًّا بالطبع أن أقول إنني جدير بأن أوضع جنبًا إلى جنب مع أمثال رؤساء الخدم «العظام» في جيلنا كالسيد مارشال أو السيد لين - ولو أن هناك من سيقول ذلك بالضبط، ربما إكرامًا لخاطري، الأمر الذي هو في غير محله. ودعني أوضح أنني حين أقول إن مؤتمر ١٩٢٣، وتلك الليلة بالذات، كانا نقطة تحول في تطوري المهني، فإنما أتكلم وفق مستوياتي المتواضعة. ومع هذا، وإذا نظرت إلى الضغوط التي طرأت عليَّ في تلك الليلة، فلعلك لا تظن أنني أخادع نفسي بشكل لا مبرر له، إذا ذهبت إلى حد القول إنني ربما أظهرت، في مواجهة كل ما جرى، شيئًا متواضعًا بعض الشيء من «الوقار» الجدير بأمثال السيد مارشال - أو إذا شئت فالجدير بأبي. بل لم أجدني أنكر ذلك؟ فرغم الذكريات الحزينة كلها التي صاحبت تلك الأمسية فإني كلما أتذكرها اليوم أجدني أذكرها بشعور ضخم من الانتصار.

اليوم الثاني - عصرًا

مورتيمرز بوند، دورسيت

يبدو أن جانبًا بأسره من جوانب المسألة المتعلقة بـ«من رئيس الخدم العظيم» لم أبحث فيه حتى الآن بحثًا صحيحًا. وعليَّ أن أقول إن هذا الإغفال شيء مقلق، لأنه يتعلق بموضوع قريب من قلبي جدًّا كنت قد أوليته كثيرًا من تفكيري خلال السنين. فمما يلفت نظري أنني كنت متسرعًا بعض الشيء في رفضي لنواحٍ معينة من المعيار الذي وضعته «جمعية هايز» للعضوية فيها. ودعني أوضح أنني لا أرغب مطلقًا في التراجع عن أية فكرة من أفكاري الخاصة بـ«الوقار» وعلاقته الوثيقة بـ«العظمة». ولكني أمعنت النظر بشأن ذلك التصريح الآخر الذي أعلنته جمعية هايز وقالت فيه إن من شروط العضوية فيها «أن يكون مقدم الطلب من المنتسبين إلى خدمة بيت مرموق». إن شعوري باقٍ كما كان عليه في السابق من أن هذا الشرط يمثل تكبرًا بعيدًا عن التفكير السليم من جانب الجمعية. بيد أن الذي خطر لي هو أن المرء إنما يعترض على الأخص على الفهم العتيق لمعنى «البيت المرموق» لا على المبدأ العام الذي جرى الإفصاح عنه. والواقع أنني الآن، وقد أمعنت النظر في الموضوع، أعتقد أن من الصحيح القول بأن ما يسبق شروط العضوية: أن يكون الطالب «من المنتسبين إلى بيت مرموق» - طالما اعتبرنا أن كلمة «مرموق» تعني هنا معنى أعمق من المعنى الذي قصدت إليه جمعية هايز.

بل إن مقارنة ما بين تفسيري «للبيت المرموق» والمعنى الذي قصدت إليه الجمعية من هذه العبارة تصور كل التصوير، على ما أعتقد، الاختلاف الجوهري بين القيم التي يؤمن بها جيلنا من رؤساء الخدم وبين القيم التي كان يؤمن بها الجيل السابق. وأنا حين أقول هذا فإنما ألفت الانتباه فقط إلى أن جيلنا كان أقل تكبرًا في موقفه من أرباب العمل، ومن منهم هو من الذوات من أصحاب الأراضي ومن منهم من «رجال الأعمال». والذي أحاول قوله هو - ولا أظن قولي يجافي الإنصاف - أننا كنا جيلًا أكثر مثالية من الجيل السابق. ففي حين كان ينصب اهتمام الأسبقين على ما إذا كان رب العمل من ذوي الألقاب، أو كان من سلالة أسرة من الأسر «القديمة»، فإننا نحن نميل إلى أن نولي اهتمامًا أكبر بالوضع «الأخلاقي» لرب العمل. ولا أعني بهذا أننا كنا نشغل أنفسنا بسلوك رب العمل الخاص. الذي أعنيه أننا كنا نطمح، بطريقة كانت ستعتبر غير اعتيادية قبل جيل واحد، في خدمة سادة من المعنيين بتقدم الإنسانية. في السابق كان يُنظر إلى المهنة على أنها أجدر بالاعتبار لو كانت

في خدمة سيد مثل السيد جورج كيتيريدج، على سبيل المثال، الذي قدم، بصرف النظر عن منشئه المتواضع، إسهامًا لا ينكر في سبيل مستقبل خير الإمبراطورية، وليس في خدمة سيد متعطل يقضي وقته في النوادي أو في ساحات لعب الغولف، بصرف النظر عن أصله الأرستقراطي.

أما من الناحية العملية، فهناك بالطبع عدد من السادة المنحدرين من أنبل الأسر وهم ميالون لتكريس أنفسهم للتخفيف عن كاهل المشاكل الكبرى القائمة، ولذا يبدو للوهلة الأولى أن طموحات جيلنا لا تختلف كثيرًا عن طموحات الجيل الذي سبقنا. ولكني أستطيع أن أزعم أن ثمة فارقًا جوهريًّا في الموقف، وينعكس هذا الفارق ليس فقط في نوع الكلام الذي يتبادله الزملاء المهنيون بل في الطريقة التي اختار بها أكفأ العناصر في جيلنا أن يتركوا مراكزهم إلى مراكز أخرى. مثل هذه القرارات لم تعد مسألة مقدار الأجر، أو حجم عدد المستخدمين الذين بإمرة رئيس الخدم، أو الصيت الباهر لاسم الأسرة التي يخدم فيها؛ وأظن أن من العدل أن أقول إن الشهرة المهنية تكمن بالدرجة الأولى، بالنسبة لجيلنا، في القيمة الأخلاقية التي يتحلى بها رب العمل.

أعتقد أن بوسعي أن أبرز الفرق بين الجيلين وذلك بأن أتخذ من نفسي مثلًا للتشبيه. فرؤساء الخدم من جيل والدي كانوا ينحون إلى النظر إلى العالم بصفته سُلَّمًا - ففي الأعلى بيوت الأسرة المالكة والدوقات ثم اللوردات من أعرق العائلات، ومن تحتهم أصحاب «الأموال الجديدة»، وهكذا حتى ننزل إلى نقطة تتقرر فيها درجة السلَّم بمقدار الثروة فقط - أو انعدامها. كان أي رئيس للخدم من ذوي الطموح يبذل ما وسعه لتسلق هذا السلَّم إلى أعلى ما يستطيع، وكلما ارتفع صعودًا على السلَّم ازدادت شهرته المهنية. وهذه بالطبع هي بالضبط القيم التي تجسدت في فكرة جمعية هايز عن «البيت المرموق»، كما أن الحقيقة التي مفادها أن الجمعية كانت تعلن بثقة عن تصريحات كهذه حتى في تاريخ متأخر كسنة ١٩٢٩ تبين بوضوح لماذا كان زوال الجمعية محتَّمًا، هذا إن لم يكن أمده قد طال كثيرًا. ذلك أن مثل هذا التفكير، بحلول ذلك الوقت، أخذ يتعارض مع تفكير خيرة الرجال الذين برزوا إلى المقدمة في مهنتنا. وأعتقد أن من الصحيح أن أقول إن السبب هو أن جيلنا لا ينظر إلى العالم بصفته سلَّمًا وإنما بصفته عجلة. ولعل من المفيد أن أشرح هذا الأمر قليلًا.

إن انطباعي هو أن جيلنا كان سبَّاقًا في أن يرى شيئًا غاب عن ناظر الأجيال السابقة كلها: هذا الشيء هو أن القرارات المهمة في العالم لا يجري التوصل إليها في حقيقة الأمر في المحافل العامة، أو خلال أيام تُعد على أصابع اليد الواحدة تُخصص لمؤتمر دولي تحت أنظار الجمهور والصحافة. إنما هناك مناقشات تجري وقرارات أساسية يتم التوصل إليها في خلوة البيوتات الكبيرة لهذه البلاد وفي سكينتها. أما ما يحدث تحت أنظار الجمهور مع كثير من

الفخفخة والحفاوة فهو في الغالب الخاتمة، أو محض التصديق على ما كان قد جرى خلال أسابيع أو أشهر بين جدران مثل تلك البيوتات. فالعالم بالنسبة لنا، إذن، هو عجلة، وهذه العجلة تدور وهذه البيوتات الكبيرة في المركز منها، وقراراتها العظمى تنبثق إلى الآخرين جميعًا من الأغنياء والفقراء على السواء، الذين يدورون حولها. كانت بغيتنا جميعًا، نحن ذوي الطموح المهني، أن نسعى فنشق طريقنا إلى أقرب نقطة يستطيعها كل واحد منا من مركز هذه العجلة. ذلك أننا كنا، كما قلت، جيلًا يتمسك بالمثل العليا والمسألة بالنسبة له ليست مسألة ممارسة المرء لمهاراته وإلى أي مدى من الكمال، وإنما هي مسألة الغاية التي من أجلها يمارس المهارات؛ إن كل واحد منا يطوي في جوانحه الرغبة في القيام بإسهامه البسيط في خلق عالم أفضل، ونحن جميعًا كمهنيين نرى أن الوسيلة الوثقى للقيام بذلك تتمثل بخدمة السادة العظام في زماننا الذين وُضعت الحضارة أمانة في أيديهم.

أنا أتكلم الآن، بالطبع، على نحو من التعميمات الفضفاضة، وسأبادر إلى الإقرار بوجود عدد غير قليل من الأشخاص في جيلنا لم يكونوا ليصبروا على مثل هذه الاعتبارات الرهيفة. وعلى الضد من هذا فأنا على ثقة بوجود عدد من أبناء جيل والدي أدركوا بالسليقة هذا البعد «الأخلاقي» في عملهم. ولكني أعتقد على العموم أن هذه التعميمات صحيحة، لا بل إن مثل هذه الدوافع «المثالية» كالتي وصفتها قد أدت دورًا كبيرًا في مهنتي شخصيًّا. فأنا تنقلت على عجل من مستخدم إلى آخر خلال أيام عملي الأولى - فقد كنت أعلم أن أوضاعي هذه غير قادرة على أن تأتيني برضا دائم - حتى كوفئت أخيرًا بالفرصة لخدمة اللورد دارلنغتون.

من الغريب أنني لم أفكر بالأمر على هذا النحو قَطُّ حتى اليوم؛ ففي خلال الساعات المتعددة كلها التي قضيناها في بحث طبيعة «العظمة» أمام نيران الموقد في ردهة الخدم، فإننا، من أمثال السيد غراهام وأمثالي، لم ننظر قَطُّ في هذا البعد بأسره الذي تنطوي عليه القضية. وفي حين أنني لن أتراجع عن أي شيء ذكرته سابقًا بشأن نوعية «الوقار»، فإن عليَّ أن أقر بوجود شيء من السداد في الرأي الذي يقول بأنه مهما كانت الدرجة التي يبلغها رئيس الخدم في مثل هذه النوعية فلا يمكنه أن يتوقع اعتباره من قبل زملائه كرئيس خدم «عظيم» إذا لم يفلح في العثور على منفذ مناسب لإنجازاته. ومن الملحوظ بالتأكيد أن شخصيات مثل المستر مارشال والمستر لين لم يخدموا إلا سادة من ذوي المقام الأخلاقي الذي لا نزاع فيه - اللورد ويكلنغ، اللورد كمبرلي، السير ليونارد غراي - ولا يستطيع المرء إلا أن يعتقد أنهم ما كانوا سيقدمون مواهبهم لسادة من عيار أقل من الذوات المذكورين. والحق أنه كلما أمعن المرء النظر في الأمر تجلى له أن الانتساب إلى بيت مرموق حقيقة هو شرط سابق «للعظمة». إن رئيس الخدم «العظيم» لا يمكنه بالتأكيد أن يكون كذلك

إلا إذا استطاع أن يشير إلى سنوات خدمته فيقول إنه كان قد وضع مواهبه في خدمة سيد عظيم - وفي خدمة الإنسانية عن طريق سيده هذا.

كما قلت فإني لم أفكر قَطُّ خلال هذه السنوات كلها بالمسألة على هذا النحو؛ ولكن لعل من شأن الخروج في رحلة كهذه أن يحفز المرء إلى اتخاذ وجهات نظر جديدة مدهشة حول أمور كان يتصور أنه قد أشبعها تفكيرًا منذ أمد بعيد. ولا شك أن الذي حفزني كذلك إلى التفكير على هذا النحو هو الحادث البسيط الذي وقع لي قبل ساعة أو نحوها - الأمر الذي هزني بعض الشيء.

كنت قد استمتعت بسياقة جيدة في الصباح في طقس رائع، ثم تناولت غداء حسنًا في نُزُل ريفي، وبعد ذلك عبرت حدود المنطقة إلى دورسيت. عند ذلك أخذت أشم رائحة حارة تنبعث من محرك السيارة. كان ما خطر ببالي من أنني قد أوقعت ضررًا ما بالفورد العائدة إلى مخدومي شيئًا مفزعًا جدًّا فأوقفت المركبة على عجل. وجدت نفسي في درب ضيق، محاط من الجانبين بأغصان كثيفة الأوراق بحيث لم أستطع أن أكون فكرة عما يحيط بي. ولم أستطع كذلك أن أرى بعيدًا إلى الأمام، فالدرب يميل مستديرًا استدارة حادة على مسافة عشرين ياردة مني. خطر لي أنني لا يسعني الوقوف حيث كنت لمدة طويلة دون المخاطرة باحتمال مجيء مركبة قادمة من منحنى الدرب نفسه فتصطدم بسيارة رب عملي. لذا أدرت المحرك مرة أخرى واطمأنت نفسي بعض الاطمئنان، إذ لم تكن الرائحة التي شممتها بالقوة التي كانت عليها سابقًا.

كان سبيلي الأمثل هو البحث عن مرآب، أو عن بيت كبير من بيوت سادة القوم فقد تسنح لي هناك فرصة طيبة للعثور على سائق يمكنه أن يعرف الخلل الحاصل. لكن الدرب استمر يتعرج إلى مسافة ما، كما أن الأسيجة المزهرة العالية على الجانبين ظلت متشابكة فكانت تحجب عني الرؤية. ورغم مروري ببوابات متعددة، وبعضها ينفتح على ممرات للسيارات، لم أتمكن من مشاهدة البيوت نفسها. واصلت المسير لنصف ميل آخر أو نحوه، والرائحة المقلقة تشتد الآن لحظة بعد أخرى، حتى وصلت أخيرًا إلى طريق مفتوح يمتد أمامي. استطعت أن أرى مسافة أمامي، وإذا بي أشاهد إلى يساري بينًا فكتوري الطراز يتسامق عاليًا مع ساحة عشب خضراء كبيرة في واجهته وممر للسيارات كان واضحًا أنه من دروب العربات القديمة فجرى تحويله إلى هذا الممر الجديد. ما إن توجهت نحو هذا الممر حتى شجعتني رؤيتي لسيارة «بنتلي» فارهة من خلال أبواب المرآب المفتوحة، والمرآب نفسه متصل بالدار.

كانت بوابة الممر قد تُركت مفتوحة فدخلته بالسيارة وسرت فيه إلى مسافة قصيرة، ثم ترجلت ومشيت إلى باب الدار الخلفي. فتحه لي رجل بقميص دون رباط، ولكنه عند استفساري منه عن السائق الخاص أجابني بمرح قائلًا إنني

«أصبت الهدف بالضربة الأولى». ما إن سمع الرجل بمشكلتي حتى خرج إلى الفورد بدون تردد وفتح غطاء المحرك وأخبرني بعد لحظات معدودات من الفحص قائلًا: «ماء، يا رجل. «الراديتر» يحتاج إلى ماء». بدا عليه وكأنه قد استأنس بالوضع، ولكنه كان خدومًا. عاد إلى داخل البيت ثم رجع خلال لحظات مع جردل من الماء وقمع. أخذ يملأ «الراديتر» وقد أحنى رأسه فوق المحرك، وهو يواصل الكلام بشكل ودود، وعندما علم أنني أقوم بجولة في المنطقة بالسيارة أوصاني أن أزور موقعًا محليًّا من مفاتن جمال الطبيعة، وهو بركة تبعد حوالي نصف الميل.

في هذه الأثناء سنحت لي فرصة وافية أن أتفحص البيت؛ كان مرتفعًا ارتفاعه أطول من عرضه، ويتألف من أربعة طوابق، وقد غطى اللبلاب واجهته حتى سقوف البيت المثلثة. بيد أنني استطعت أن أرى من خلال النوافذ أن نصف البيت في الأقل مهجور وقد غُطي أثاثه لمنع الغبار. أشرت للرجل إلى هذا الأمر عندما انتهى وسد غطاء المحرك.

قال: «شيء مؤسف. هذا بيت بديع من البيوت القديمة. والكولونيل يحاول بيعه، لا حاجة إليه الآن ببيت من هذا الحجم».

لم أستطع عندئذ إلا أن أستفسر منه عن عدد المستخدمين في الدار، ولم أستغرب كثيرًا حين قال إنه لا يوجد سواه شخصيًّا وطاهية تأتي في المساء فقط. كان هذا الرجل على ما يبدو هو رئيس الخدم والخادم الخاص وسائق السيارة والمنظف العام. وقد كان في السابق يعمل «مراسلًا»[(1)*] بخدمة الكولونيل في الحرب كما قال؛ كانا معًا في بلجيكا عند وقوع الغزو الألماني وكانا معًا أيضًا حين بدأ إنزال الحلفاء. ثم قال لي بعد أن تفحصني مليًّا:

«الآن حزرت، لم أستطع أن أعرف من أنت أولًا، أما الآن فقد عرفت، أنت من رؤساء الخدم الكبار. من أحد تلك القصور الفخمة الفاخرة».

وعندما أخبرته أنه أقرب إلى الصواب أردف يقول: «الآن حزرت. لم أستطع أن أعرف من أنت أولًا، نعم، لأنك تتكلم مثل الذوات. ثم وأنت تسوق هذه السيارة الجميلة» - وأشار بيده إلى الفورد - «فحسبتك في البداية من العظماء الغرباء عن المنطقة. وها أنت أمامي يا رجل، وأعني عظيم فعلًا. أما أنا فلم أتعلم شيئًا من هذا قَطُّ، نعم. ما أنا إلا «مراسل» بسيط تسرح من الجندية».

ثم سألني أين أعمل أنا، فأخبرته، فأمال رأسه إلى طرف وبدت عليه ملامح الحيرة.

قال لنفسه: «قصر دارلنغتون. قصر دارلنغتون. لا بد أنه قصر فاخر فعلًا، والاسم يذكِّر بشيء حتى بالنسبة لغبي مثل خادمكم المطيع. قصر دارلنغتون. انتظر يا رجل، هل تعني قصر دارلنغتون؟ مكان اللورد دارلنغتون؟» فأعلمته قائلًا: «كان ذلك مكان إقامة اللورد دارلنغتون حتى وفاته قبل ثلاث سنوات. والبيت الآن مكان إقامة السيد جون فاراداي، وهو سيد أمريكي».

«لا بد أنك شيء كبير وأنت تعمل في مكان مثل هذا. لا يوجد الكثير من أمثالك اليوم، أليس كذلك؟» ثم تغير صوته بشكل ملحوظ وهو يستفسر قائلًا: «هل صحيح أنك كنت تعمل فعلًا في خدمة ذلك الرجل، اللورد دارلنغتون؟».

وأخذ يرمقني بعناية، فقلت:

«لا، لا، أنا مستخدم الآن من قبل السيد جون فاراداي، وهو السيد الأمريكي الذي اشترى البيت من أسرة دارلنغتون».

«فإذن أنت لم تكن تعرف ذلك الرجل، اللورد دارلنغتون. كنت أتساءل ماذا كان يا ترى؟ وأي نوع من الرجال هو؟».

قلت للرجل إن عليَّ أن أستأنف طريقي وشكرته جزيل الشكر على مساعدته. لقد كان، على أية حال، امرءًا ودودًا، وتجشم صعوبة إرشادي وأنا أسوق السيارة إلى الخلف للخروج من البوابة، ثم انحنى عليَّ قبل أن أغادر وأوصاني مجددًا بزيارة البركة القريبة، وأعاد توجيهاته عن كيفية عثوري عليها وأضاف يقول:

«إنها بقعة صغيرة جميلة. وستندم كثيرًا إذا فاتتك مشاهدتها. والواقع أن الكولونيل يقوم الآن بشيء من صيد السمك هناك في هذه اللحظة».

كانت سيارة الفورد تبدو في حالة جيدة مجددًا، وبما أن البركة موضوع البحث لا تبعد سوى تحويلة قصيرة عن طريقي، فقد قررت أن أنفذ اقتراح «المراسل». بدت توجيهاته من الوضوح بمكان، ولكني ما إن استدرت وابتعدت عن الطريق الرئيس في محاولة مني لاتباع تلك التوجيهات حتى وجدت نفسي أتوه في دروب ضيقة متعرجة كالدرب الذي شممت فيه لأول مرة تلك الرائحة المفزعة. كانت الأغصان الملتفة على جانبي الطريق من الكثافة بحيث تحجب أشعة الشمس كليًّا، حتى كنت أجاهد لكي تلاحق عيناي التناقض المفاجئ بين الشمس المشرقة والفيء المعتم. بيد أنني وجدت أخيرًا، بعد لأيٍ، إشارة إلى «مورتيمرز بوند» وهو اسم البركة، وهكذا وصلتها بوقت يزيد قليلًا عن نصف ساعة.

إنني الآن أجد نفسي مدينًا «للمراسل»، فإلى جانب مساعدته لي بأمر السيارة فإنه أتاح لي أن أكتشف بقعة فاتنة جدًّا ما كان من الممكن لي أن أعثر عليها لولاه. البركة ليست كبيرة - لعل قطرها لا يتجاوز ربع الميل - فلو وقف المرء على لسان من النتوءات التي في شاطئها لرآها بأجمعها. سرى فيَّ سكون عميق. لقد شُجِّرت الشواطئ بأشجار متقاربة بما يكفي لإضفاء فيء لطيف على الضفاف، في حين تقوم هنا وهناك كتل من القصب والبردي على سطح الماء فتخطط ما يرتسم عليه من انعكاس ساكن لصفحة السماء. لم يكن حذائي من النوع الذي يتيح لي بسهولة أن أمشي حول البركة - أستطيع أن أرى من مكان جلوسي الآن كيف يتلاشى الدرب في بقع طينية عميقة - ولكني سأقول إن هذا المشهد كان من الفتنة بحيث سولت لي نفسي جدًّا أن أمشي. إلا أن ما ساورني من احتمال وقوع كارثة في مثلِ هذه

المحاولة، ومن حدوث ضرر يصيب بزة السفر التي أرتديها، كل ذلك أقنعني بأن أكتفي بالجلوس هنا على هذه المصطبة. وهذا ما فعلته في نصف الساعة الماضي، وأنا أتأمل في تسلسل الأشخاص المتعددين وهم يجلسون بهدوء وبأيديهم أوتاد صيد السمك، وقد امتدت في شتى النواحي من الماء. كنت أرى من مكاني أكثر من عشرة أشخاص من هؤلاء، ولكن الأشعة القوية والظلال الداكنة التي تلقيها الأغصان المتدلية منعتني من تشخيص أيٍّ منهم تشخيصًا واضحًا، فكان عليَّ أن أتخلى عن اللعبة التي أردت أن ألعبها مع نفسي لتخمين أيٍّ من هؤلاء الصيادين هو الكولونيل الذي في بيته تلقيت توًّا عونًا كبيرًا.

لا ريب أن الهدوء في هذا المكان قد مكنني من التأمل العميق بالأفكار التي خطرت لي خلال الوقت القصير الماضي. والواقع، ولولا السكينة المحيطة بي، لما فكرت كثيرًا، فيما يحتمل، بشأن تصرفي خلال لقائي مع «المراسل»، وأعني أنني ربما ما كنت أفكر كثيرًا بالسبب الذي حدا بي أن أعطي انطباعًا واضحًا بأنني لم أعمل قَطُّ في خدمة اللورد دارلنغتون. ولا ريب بالتأكيد أن هذا الانطباع هو الذي حدث فعلًا. فقد سألني: «هل صحيح أنك كنت تعمل فعلًا في خدمة ذلك الرجل اللورد دارلنغتون؟» وقد أجبته جوابًا لا يمكن أن يعني إلا النفي. من الممكن أن نزوة لا معنى لها قد استبدت بي فجأة تلك اللحظة - ولكن هذا كلام غير مقنع لتفسير تصرفي الغريب جدًّا. على أية حال، فإني مقتنع الآن أن ما وقع مع «المراسل» لم يكن الأول من نوعه؛ ولا ريب أن لا علاقة - وإن كنت غير متأكد من طبيعتها - بما حدث قبل بضعة أشهر خلال زيارة عمل قام بها الزوجان ويكفيلد.

إن السيد والسيدة ويكفيلد هما زوجان أمريكيان يقيمان في إنجلترا منذ عشرين سنة تقريبًا، في مكان ما في «كينت» على ما أعلم. وبالنظر لما لهما والسيد فاراداي من معارف مشتركين من جماعة مدينة بوسطن فقد قاما ذات يوم بزيارة قصيرة إلى قصر دارلنغتون، فبقيا لتناول الغداء وغادرا قبل تقديم الشاي. أنا أشير الآن إلى وقت كان فيه السيد فاراداي نفسه قد حل في البيت منذ بضعة أسابيع فقط، وقت كانت فيه حماسة الرجل لتملكه للبيت في ذروتها؛ لذا قُضي أغلب وقت الزيارة، ورب عملي يقود الزوجين في جولة في أرجاء الملك، قد تبدو للبعض جولة مستفيضة بشكل لا ضرورة له، حتى إنها شملت أقسامًا من الدار غُطي أثاثها لمنع الغبار. بيد أن السيد والسيدة ويكفيلد كانا فيما يظهر يتوقان لتفحص المنزل توق السيد فاراداي له، وإذ كنت أمضي في القيام بعملي فقد طرق سمعي مرارًا الكثير من كلمات العجب الأمريكية التي تنم عن الابتهاج وهي تنطلق من شتى أقسام المنزل التي يكونان قد وصلا إليها. كان السيد فاراداي قد بدأ الجولة من أعلى المنزل، وما إن نزل بضيفيه إلى الأسفل ليتفحصا روعة الغرف في الطابق الأرضي حتى بلغ من التجلي ما جعله يشير إلى تفاصيل المقرنصات وإطارات النوافذ، وهو يصف بشيء مِن التباهي «ما كان يفعله اللوردات الإنجليز» في كل غرفة من

الغرف. ومع أني لم أقم بالطبع بمحاولات متعمدة لاستراق السمع ولكني لم أستطع إلا أن أفهم خلاصة ما كان يقال وقد أدهشتني سعة المعرفة التي يتمتع بها رب عملي، وتشي، على الرغم من بعض الملاحظات غير الموفقة أحيانًا، بحماسة عميقة للطرائق الإنجليزية. كان من الملاحظ، فضلًا عن ذلك أن الزوجين - والسيدة ويكفيلد على الأخص - لا يجهلان التقاليد السائدة في بلادنا، وقد فهمت من عدد من الملاحظات التي أبدياها أنهما هما أيضًا يملكان بيتًا إنجليزيًّا على شيء من الأبهة.

وفي مرحلة من المراحل خلال هذه الجولة في الملك - وكنت أنا عبر الردهة وفي ظني أن الجماعة قد خرجت لاستكشاف الحدائق - رأيت السيدة ويكفيلد وقد تخلفت وهي تتفحص عن كثب القوس الحجري الذي يربط الباب الموصل إلى قاعة الطعام. مضيت من جانبها وأنا أغمغم بكلمة اعتذار فاستدارت نحوي وقالت:

«أوه ستيفنز، لعلك أنت الذي يستطيع أن يخبرني. هذا القوس هنا يبدو من القرن السابع عشر، ولكن ألم يشيد حديثًا؟ وربما في زمن اللورد دارلنغتون؟».

«هذا ممكن، مدام».

«إنه قوس جميل جدًّا. ولكنه يُحتمل أن يكون قطعة زائفة لتقليد القديم وقد صنعت قبل بضع سنوات فقط. أليس هذا صحيحًا؟».

«لست متأكدًا، مدام، ولكن هذا ممكن بالتأكيد».

ثم خفضت السيدة ويكفيلد من صوتها وقالت: «ولكن قل لي يا ستيفنز، أي نوع من الرجال كان اللورد دارلنغتون؟ فالمفروض أنك لا بد عملت في خدمته».

«كلَّا، مدام، لم أعمل في خدمته».

«صحيح؟ ظننت أنك كنت في خدمته. ولا أدري لماذا». استدارت السيدة ويكفيلد واتجهت إلى القوس ووضعت يدها عليه، وقالت: «وهكذا فلا نعرف إذن على وجه اليقين. مع هذا فإنه يبدو لي كأنه زائف. شيء متقن جدًّا، ولكنه زائف».

لعلي نسيت سريعًا هذا الكلام بيننا؛ ولكن، وبعد مغادرة الزوجين ذهبت بشاي العصر إلى السيد فاراداي في غرفة الجلوس فلاحظته في حال هو على شيء من انشغال البال. قال بعد أن ساد الصمت أولًا: «هل تعرف يا ستيفنز أن السيدة ويكفيلد لم تكن معجبة بهذا البيت كما توقعتها أن تكون؟».

«أصحيح يا سيدي؟».

«بل إنها تظن أنني أبالغ في رواية تاريخ هذا المكان. وأني كنت ألفق الكلام بشأن الأشياء الموجودة وكونها تعود إلى قرون ماضية».

«أحقًّا، يا سيدي؟».

«ظلت تقول إن هذا زائف وذاك زائف وكل شيء».
«أحقًّا، يا سيدي؟».
«نعم، حقًّا، يا ستيفنز. كنت قد قلت لها إنك أنت بالذات الشيء الحقيقي. رئيس خدم إنجليزي حقيقي. إنك: كنت في هذا البيت أكثر من ثلاثين سنة، تقوم على خدمة لورد إنجليزي حقيقي. ولكن السيدة ويكفيلد كذبتني بشأن هذه النقطة. بل كذبتني بكل ثقة».
«أهو كذلك يا سيدي؟».
«كانت السيدة ويكفيلد، يا ستيفنز، مقتنعة بأنك لم تعمل هنا قَطُّ إلى أن استخدمتك أنا. بل كانت تحسب أنها سمعت بذلك من فمك بالذات. مما جعلني أبدو مغفلًا، كما يمكنك أن تتصور».
«هذا شيء مؤسف جدًّا، يا سيدي».
«أريد أن أقول يا ستيفنز إن هذا البيت هو بيت إنجليزي عريق وأصيل، أليس كذلك؟ هذا هو ما دفعت المال من أجله. وأنك أنت رئيس خدم إنجليزي قديم الطراز وأصيل، وليس مجرد نادل يتصنع صفة رئيس للخدم. أنت الشيء الحقيقي، أليس كذلك؟ هذا ما أردت، فهل هذا هو ما عندي؟».
«سأجيبك بالإيجاب يا سيدي».
«هل تستطيع إذن أن تفسر لي ما تقوله السيدة ويكفيلد؟ إنه لغز كبير بالنسبة لي».
«من الممكن أنني أعطيت السيدة صورة مضللة بعض الشيء عن مهنتي، يا سيدي. وأنا أعتذر إذا سبب ذلك حرجًا؟».
«سبب حرجًا فعلًا. هؤلاء سجلوني الآن متبجحًا كذلك. على أية حال، ماذا تعني بأنك ربما أعطيتها «صورة مضللة بعض الشيء»؟».
«أنا آسف جدًّا يا سيدي. لم أكن أعرف أنني سببت لكم مثل هذا الحرج».
«العياذ بالله يا ستيفنز. قل لي لماذا قلت لها مثل هذه الكذبة؟».
تأملت في الوضع لحظة، ثم قلت: «أنا آسف جدًّا، يا سيدي. ولكن الكذبة لها علاقة بالطرائق المتبعة في هذه البلاد».
«ما هذا الكلام يا رجل؟».
«أعني يا سيدي أن من غير المألوف للمستخدم في إنجلترا أن يتكلم عن أرباب عمله السابقين».
«O.K. ستيفنز، فأنت لا تريد أن تبوح بأسرار ماضية. ولكن هل يشمل هذا إنكارك فعليًّا أنك لم تعمل إلا في خدمتي؟».
«المسألة تبدو على شيء من المغالاة حين تضعها على هذا النحو يا سيدي. ولكن من المرغوب فيه في الغالب أن يعطي المستخدمون مثل هذا الانطباع. إذا سمحت لي سيدي فسأقول إن هذا يشبه قليلًا العرف الجاري بشأن الزيجات. فإذا كانت سيدة مطلقة موجودة بصحبة زوجها الثاني، فمن

المرغوب فيه في الغالب ألا يُشار إلى الزواج الأصلي على الإطلاق. هناك عرف يشبه هذا يا سيدي بخصوص مهنتنا».

«طيب. ليتني كنت أعلم بهذا العرف سابقًا يا ستيفنز».

قال لي ذلك رب عملي وهو ينحني إلى الخلف في كرسيه. ثم أضاف:

«المسألة جعلتني أظهر كالأبله بالتأكيد».

أدركت حتى في ذلك الوقت على ما أعتقد أن التفسير الذي قدمته للسيد فاراداي - وإن لم يكن بالطبع كاذبًا كليًّا - كان تفسيرًا غير وافٍ، على نحو، يُرثى له. ولكن، حين يكون فكر المرء مشغولًا بأشياء كثيرة أخرى، فإن من السهل عليه ألا يهتم كثيرًا بأمر كهذا، ولذا صرفت هذه المسألة بأسرها عن بالي أمدًا. أما الآن، وأنا أستذكرها هنا في السكينة المحيطة بهذه البركة، فلا ريب عندي أن سلوكي نحو السيدة ويكفيلد في ذلك اليوم له علاقة واضحة بما جرى عصر هذا اليوم.

هناك في هذه الأيام، بالطبع، عدد من الناس الذين يتقولون على اللورد دارلنغتون بسخافات كثيرة، ولعلك تظن أنني أحس بالحرج أو بالخجل بشكل ما من صلتي بفخامة اللورد، وأن هذا الإحساس يدفعني إلى مثل سلوكي ذاك. فدعني إذن أوضح لك أن هذا هو أبعد شيء عن الحقيقة. إن غالبية ما نسمعه اليوم عن فخامة اللورد هُراء مطلق، على أية حال، وهو هُراء يقوم على جهل تام بالحقائق. ويبدو لي في واقع الأمر أن سلوكي الغريب لا يمكن أن يُفسَّر تفسيرًا مقبولًا إلا على أساس رغبتي بتحاشي إمكانية الاستماع لمزيد من هذا الهُراء بشأن فخامة اللورد؛ بعبارة أخرى، إنني اخترت سبيل الكذب الأبيض باعتباره أبسط الوسائل لتحاشي الانزعاج. كلما فكرت بهذا التفسير تراءى لي تفسيرًا مقبولًا جدًّا؛ ذلك أن أشد ما يزعجني في هذه الأيام هو أن أسمع ما تلوكه الألسن من هذا النوع من الهُراء. دعني أقل لك إن اللورد دارلنغتون كان رجلًا مهذبًا ذا مقام أخلاقي عظيم - مقام يجعل الذين يتخرصون عنه من الأقزام - وأنا أجزم بلا تردد أنه سيظل كذلك إلى الأخير. إن أي قول يوحي بأني آسف على صلتي بمثل هذا الرجل المهذب هو قول لا يتفق مع الحقيقة. ولا شك أنك ستقدر كل التقدير أن خدمة فخامة اللورد في قصر دارلنغتون خلال تلك السنين قد قربتني من مركز العجلة لهذا العالم قربًا ما كنت سأحلم به على الإطلاق. لقد قدمت إلى اللورد دارلنغتون خمسًا وثلاثين سنة من الخدمة؛ وأن لديَّ ما يبرر الزعم بأني كنت خلال تلك السنين «من المنتسبين إلى بيت مرموق» بكل ما في هذه الجملة من معنى. إني إذ أنظر إلى الماضي مستطلعًا عملي الذي احترفته حتى الآن أجد أن ما أحسه من رضا ذاتي عميق إنما أستمده مما حققته خلال تلك السنين، وما أنا اليوم إلا ذلك الفخور والشاكر للجميل لأنني أُعطيت مثل ذلك الامتياز وذلك الشرف.

(*) وهو الجندي الذي يعمل خادمًا خاصًّا لمرؤوسه.

اليوم الثالث - صباحًا

تونتون، سومرسيت

أقمت الليلة الماضية في نُزُل يُدعى «العربة والخيل» على مسافة قصيرة من بلدة تونتون في سومرسيت. بدا لي هذا البويت المغطى سقفه بالتبن على جانب الطريق، وأنا أقترب في سيارة الفورد من البلدة في الضياء الأخير من النهار، شيئًا جذابًا جدًّا. أصعدني مالك النُّزُل على سلَّم خشبي إلى غرفة صغيرة تكاد تكون عارية ولكنها محترمة تمامًا. وحين استفسر مني أكنت تناولت العشاء طلبت منه أن يأتيني «بسندويتش» إلى غرفتي، الأمر الذي كان خيارًا أفضل لي جدًّا من العشاء. ولكن ما إن تقدم المساء حتى أخذت أشعر بالملل قليلًا وأنا في غرفتي، فقررت أخيرًا أن أنزل إلى «البار» وأجرِّب شيئًا من شراب الفاكهة المحلي.

كان هناك خمسة من الزبائن، أو ستة، مجتمعين حول البار - ويبدو من مظهرهم أنهم من المزارعين - ولم يكن هناك في الغرفة أحد غيرهم. أخذت إبريقًا من الشراب من المالك وجلست إلى مائدة بعيدة بعض الشيء، وأنا أنوي أن أستريح قليلًا وأجمع أفكاري عن اليوم الفائت. بيد أنه سرعان ما اتضح أن هؤلاء الأهالي كانوا يتململون من جراء وجودي وهم يشعرون بشيء من حاجة لإبداء الضيافة. وكلما انقطع حديثهم اختلس أحدهم النظر إليَّ كأنه يحاول أن يتجرأ على مخاطبتي. أخيرًا رفع أحدهم صوته وقال:

«يبدو، يا سيدي، أنك ستبيت الليلة في الطابق العلوي؟».

وعندما أجبته بالإيجاب هز رأسه بارتياح وقال:

«أنت لن تحظى يا سيدي بكثير من النوم هناك. إلا إذا كنت مولعًا بأصوات صاحبنا بوب» - وأشار إلى المالك - «وهو يثير الضوضاء هنا طول الليل. ثم توقظك زوجته وهي تصرخ حين يبزغ الفجر».

أحدث هذا ضجة من الضحك بينهم بالرغم من تكذيبات المالك.

قلت: «هل هذا صحيح؟» عندئذ دار في خلدي - كما كان يدور في مناسبات عديدة مؤخرًا وأنا أمام السيد فاراداي - أن نوعًا من أنواع الجواب الفكه يُنتظر مني أن أطلقه. بل كان هؤلاء الأهالي يلتزمون الآن صمتًا مؤدبًا وهم ينتظرون كلامي. لذا أطلقت العنان لمخيلتي وقلت أخيرًا:

«تنويع محلي على نغمة صيحة الديك، بلا ريب».

استمر الصمت في البداية كأن المستمعين ظنوا أنني أنوي أن أزيد. ولكنهم ما إن لاحظوا ملامح المرح على وجهي حتى ضحكوا، وإن كان في ضحكهم

شيء من الذهول. ثم عادوا إلى أحاديثهم السابقة، ولم أتبادل أنا معهم مزيدًا من الكلام إلى أن تبادلنا بعد قليل تحية المساء، وانصرفنا.

كنت مسرورًا بعض الشيء بسرعة بديهتي في الفكاهة عندما قلت ما قلت، ولكن عليَّ أن أقرَّ أنني شعرت بخيبة الأمل قليلًا لأن فكاهتي لم تجد استحسانًا. وكانت خيبة أملي أشد لأنني، على ما أفترض، كنت قد كرست شيئًا من وقتي وجهدي خلال الأشهر الماضية لتحسين مهارتي في هذا النطاق بالذات. بعبارة أخرى، كنت أسعى لإضافة هذه المهارة إلى ترسانتي المهنية، وذلك لكي أفي وأنا واثق من نفسي بكل ما يتوقعه السيد فاراداي مني بخصوص المزاج.

كنت قد تعودت مؤخرًا، على سبيل المثال، أن أستمع للراديو في غرفتي كلما أجد شيئًا من فراغ - مثلًا، حين يسهر السيد فاراداي خارج المنزل في بعض المناسبات، أو ما أشبه ذلك. ويدعى أحد البرامج الذي أستمع له: «مرتان في الأسبوع أو أكثر»، ويذاع في الواقع ثلاث مرات في الأسبوع، ويقدمه بالأساس شخصان يعلقان تعليقات فكهة على شتى الموضوعات التي تثيرها رسائل القراء. كنت أتدارس هذا البرنامج لأن الفكاهات التي تُحكى فيه هي دائمًا على أرفع ما يكون من الذوق السليم، وتنسجم كما أرى مع ذلك النوع من المزاح الذي يتوقعه السيد فاراداي مني. وانطلاقًا من هذا البرنامج وضعت لنفسي تمرينًا بسيطًا أحاول أن أطبقه مرة واحدة في الأقل يوميًّا؛ فكلما سنحت لي الفرصة حاولت أن أؤلف ثلاث فكاهات تقوم على المحيط الذي أكون فيه تلك اللحظة. أو قد أحاول، تنويعًا لهذا التمرين نفسه، أن أفكر بثلاث فكاهات تقوم على حوادث الساعة الماضية.

لعلك ستقدر إذن خيبة أملي بشأن فكاهتي مساء أمس. لقد ظننت في البداية أن من الممكن أن يعود نجاحها المحدود إلى عدم روايتي لها بوضوح كافٍ. ولكن ساورتني فيما بعد إمكانية أخرى حالما أويت إلى السرير، فقد خطر لي أنني ربما أسأت لهؤلاء الناس. إذ إن من الممكن بسهولة، على أية حال، أن تكون فكاهتي قد فُهمت على أنني أعني أن زوجة مالك النُّزُل تشبه الديك - وهو ما لم أقصده وقت إطلاقي للنكتة بأية صورة من الصور. استمرت هذه الفكرة تعذبني وأنا أحاول النوم، وقد خطر لي، ولو بشكل غير جازم، أن أقدم اعتذارًا للمالك هذا الصباح. ولكن مزاجه نحوي حين قدم لي طعام الإفطار كان مرحًا تمامًا، فقررت في النهاية أن أترك الأمر للنسيان.

لكن هذه الحكاية الصغيرة تصور خير تصوير مخاطر إطلاق الفكاهات، فمن طبيعة الفكاهة ألا يتوفر للمرء الوقت الكافي لتقدير ردود الفعل المحتملة لها بعد إطلاقها، كما أنه سيجازف بالتفوه بأمور شتى غير مناسبة، إن لم يكن قد اكتسب أولًا المهارة الضرورية والخبرة اللازمة. وليس هناك من سبب يدعو للافتراض بأني لا أكون حاذقًا في هذا المجال إذا توفر لديَّ الوقت والمران، ولكن أخطار الفشل في حكاية النكتة كبيرة بحيث قررت أن أفضل ما أفعله،

في الوقت الحاضر في الأقل، هو ألا أحاول القيام بهذا الواجب فيما يتعلق بالسيد فاراداي حتى أجري المزيد من التمرينات. وعلى أية حال يؤسفني أن أقول إن ما أورده أحد أهالي البلدة ليلة أمس على سبيل الفكاهة - أي التنبؤ بأنني لن أقضي ليلة هادئة بسبب الأصوات المتعالية من الأسفل - قد تحقق فعلًا. إن زوجة المالك لم تطلق عقيرتها بالصياح، ولكنها كانت تتكلم بدون انقطاع طول الليل في أثناء قيامها وزوجها بأعمالهما، وعادت تتكلم بدون انقطاع مرة أخرى منذ صباح اليوم الباكر. على أني على أتم استعداد لمسامحة الزوجين لأنهما من المتمسكين بعادات العمل الشاق الدؤوب، وما كانت تلك الضوضاء إلا من جراء هذه الحقيقة بالذات. إلى جانب هذا بالطبع هناك ملاحظتي غير الموفقة. لذا لم أظهر أية إشارة تدل على أنني قضيت ليلة مضطربة، وذلك حين شكرت مالك النُّزُل واستأذنته بالذهاب لاستكشاف تونتون، وهي بلدة يقام فيها سوق الأسبوع.

إني الآن جالس في هذا المكان العام وأنا أستمتع بتناول كوب لطيف من شاي الضُّحى، ويخيل لي أنه ربما كان من الأفضل لو أنني أقمت هنا. فاللوحة في الخارج لا تعلن فقط عن الدعوة إلى «شاي وطعام خفيف ومعجنات» بل «غرفة مريحة، هادئة ونظيفة» أيضًا. يقع هذا المكان على الشارع العام لبلدة تونتون، على مقربة من ميدان السوق، ويكاد يكون مغمورًا، وقد كُسيت جدرانه من الخارج بألواح سميكة من خشب داكن اللون. أنا حاليًّا أجلس في غرفة الشاي الفسيحة، وقد زينت حيطانها بخشب البلوط، وفيها من المناضد ما يكفي برأيي لجلوس عشرين إلى خمسة وعشرين شخصًا من دون زحام. هناك فتاتان مرحتان تخدمان خلف عارضة عليها مجموعة طيبة من شتى أنواع المعجنات. هذه الغرفة، على العموم هي مكان ممتاز للمشاركة في تناول شاي الصباح مع الآخرين، ولكن من المستغرب أن قلة من سكان تونتون يرغبون فيما يظهر في الاستفادة من ذلك. لا يوجد في الغرفة في اللحظة الحاضرة سوى سيدتين مسنتين تجلسان جنبًا إلى جنب إلى مائدة بجوار الجدار المقابل، ورجل - لعله مزارع متقاعد - يجلس إلى مائدة أمام النافذة الكبيرة الناتئة. لم أتميزه بوضوح لأن شمس الصباح المشرقة قد اختزلته الآن إلى مجرد شبح أسود. ولكني أراه يتدارس جريدته، وينقطع عن قراءتها بين الفينة والفينة بانتظام، لكي ينظر إلى المارة على الرصيف في الخارج. ظننت في البداية، من طريقته هذه، أنه ينتظر أحدًا لمجالسته، ولكن الظاهر أنه كان يرغب، فقط، في تحية معارفه وهم يمرون.

أنا شخصيًّا أجلس بعيدًا عن الأنظار في ركن قصي عند الجدار الخلفي، ولكني أستطيع، حتى من هذا المدى الطويل الممتد عبر الغرفة، أن أرى بوضوح الشارع السابح بضوء الشمس، وأتمكن من أن أتبين على الرصيف المقابل علامة مرور تشير إلى وجهات متعددة لأمكنة قريبة. أحد هذه الأمكنة هو قرية مورسدين. لعل هذا الاسم سيذكرك بشيء كما ذكرني عندما وقع

نظري عليه في «أطلس الطرقات» أمس. بل ساورتني رغبة في أن أحوِّل طريقي قليلًا عن دربي المرسوم لمجرد زيارة القرية. ففي مورسدين، سومرسيت، كانت تقع الشركة المسماة «كيفين وشركاه»، وإلى تلك القرية كنا نبعث بطلباتنا لتزويدنا بما نحتاج إليه من شموع التلميع الداكنة اللون التي تنتجها شركة كيفين، «لكي تُقطع إلى رقائق، وتُمزج بالشمع، وتُستعمل بوساطة اليد». كانت شموع كيفين بلا ريب أحسن أنواع الدهون المتوفرة لتلميع الفضيات، ودام ذلك زمنًا، إلى أن ظهرت مواد كيميائية جديدة في السوق قبيل الحرب مما أدى إلى انخفاض الطلب على ذلك المنتوج الباهر.

ظهرت شموع كيفين لدهون التلميع في بداية العشرينات على ما أتذكر، وأنا واثق أنني لست الوحيد في ربط ظهورها ربطًا وثيقًا بالتغيير الذي طرأ على النزعة السائدة في مهنتنا - ذلك التغيير الذي كان من شأنه أن يدفع بتلميع الفضيات إلى الموقع المهم جدًّا الذي لا تزال الفضيات تتمتع به على العموم حتى اليوم. كان هذا التحول على ما أعتقد، شأنه في ذلك شأن التحولات الكبيرة المتعددة الأخرى التي جرت في تلك الفترة، من الأمور التي تحدث مع تطور الأجيال؛ ففي خلال تلك السنوات بلغ جيلنا، نحن رؤساء الخدم، مبلغ النضوج، فكان أن قام أشخاص مثل السيد مارشال، على الأخص، بدور حاسم في جعل تلميع الفضيات يحتل مثل هذا الموقع المركزي. وهذا لا يعني، بالطبع، أن تلميع الفضيات - لا سيما ما يظهر منها على المائدة - لم يكُن يعتبر دائمًا من الواجبات المهمة. ولكن يمكن القول من دون إجحاف أن عددًا من رؤساء الخدم من جيل والدي مثلًا لم يكن يعتبر الأمر أساسيًّا جدًّا، ومما يدل على هذا أن رئيس الخدم في تلك الأيام لم يكن يشرف إشرافًا مباشرًا على تلميع الفضيات إلا نادرًا، ويكتفي بأن يترك هذا الواجب إلى أهواء مساعده، ولا يقوم بالتفتيش إلا في فترات متقطعة. ومن المتفق عليه عمومًا أن السيد مارشال كان أول من أدرك أهمية الفضيات ومغزاها الكامل - بمعنى أنه ليس هناك من شيء في الدار يحتمل أن يخضع لتدقيق شديد من قبل الغرباء كالفضيات في أثناء تناول الطعام، فهي بهذه الصفة إنما تكون بمثابة مؤشر ظاهر للعيان إلى مستويات الدار. وكان السيد مارشال هو أول من أذهل السيدات والسادة من زوار قصر شارلفيل بما يضعه على المائدة من فضيات ملمعة بمستوى لم يكن متصورًا في السابق. لم تمض إلا فترة وجيزة، بطبيعة الحال، حتى كان رؤساء الخدم في طول البلاد وعرضها، بضغط من سادة القصور، يركزون تفكيرهم على مسألة تلميع الفضيات. أتذكر ظهور عدد من رؤساء الخدم في الساحة سريعًا وكل واحد منهم يدَّعي اكتشافه طرقًا يستطيع بها أن يبز السيد مارشال، طرقًا كانوا يحرصون على الإبقاء عليها سرًّا من الأسرار، كرؤساء الطهاة الفرنسيين الحريصين على وصفات طعامهم. ولكني واثق الآن - كما كنت واثقًا عندها - أن ذلك النوع من العمليات التفصيلية الواسعة والغامضة الذي قام به البعض من أمثال السِيد جاك نيبورز لم يكن لهِ أثر يُذكر على

المحصلة النهائية. وبقدر ما كان الأمر يتعلق بي كانت المسألة من البساطة بمكان: استعمال دهن تلميع جيد مع إشراف مباشر على العمل. كانت شموع كيفين لتلميع الفضيات هي التي يطلبها كل رؤساء الخدم من ذوي البصيرة في ذلك الزمن، وإذا استُعملت هذه الدهون استعمالًا صحيحًا فلن تكون الفضيات إلا شيئًا لا يُعلى عليه.

إنه لمما يسرني أن أستذكر مناسبات متعددة كان للفضيات في قصر دارلنغتون أثر طيب في المشاهدين. أتذكر على سبيل المثال الليدي أستور وهي تقول بشيء لا يخلو من المرارة إن فضياتنا «لا يُعلى عليها». أتذكر كذلك أنني راقبت السيد جورج برنارد شو، الكاتب المسرحي الشهير، ذات أمسية على العشاء، وهو يتفحص عن كثب ملعقة الحلوى التي أمامه، ويرفعها إلى الضوء، ويقارنها بالصحن المجاور، من دون أن يعير انتباهًا للجالسين حوله. ولكن المناسبة التي أذكرها وأنا راضٍ عن نفسي جدًّا اليوم تتعلق بالليلة التي قام فيها رجل من الشخصيات البارزة - وكان عضوًا في الوزارة ثم أصبح فيما بعد وزيرًا للخارجية - بزيارة إلى القصر بشكل «غير رسمي» جدًّا. وبما أن ثمار تلك الزيارات قد غدت موثقة الآن توثيقًا حسنًا فلا أرى داعيًا يدعوني إلى عدم الكشف عن تلك الشخصية. أنا أتكلم في واقع الأمر عن اللورد هاليفاكس.

كانت تلك الزيارة بالذات، كما تبين فيما بعد، هي الأولى من سلسلة كاملة من اجتماعات «غير رسمية» كهذه بين اللورد هاليفاكس والسفير الألماني في ذلك الوقت الهر ربنتروب. ولكن اللورد هاليفاكس وصل في تلك الليلة الأولى وهو على حذر كبير؛ كان أول ما قاله، عند دخوله، هذه الكلمات: «حقًّا، دارلنغتون، لا أدري ماذا رتبت لي هنا. وأعرف أنني سأندم عليه».

لم يكن من المتوقع وصول الهر ربنتروب إلا بعد ساعة أو نحوها، لذا اقترح فخامة اللورد على ضيفه القيام بجولة في قصر دارلنغتون - وهذا إجراء طالما ساعد عددًا من الزائرين المتوترين على الاسترخاء. ولكن كل الذي استمعته وأنا أقوم بعملي اقتصر أولًا على استمرار اللورد هاليفاكس، وهو يتجول في مختلف أقسام البناية، في التعبير عن شكوكه بشأن الليلة المنتظرة، واللورد دارلنغتون يحاول عبثًا أن يطمئنه. ولكن طرق سمعي في إحدى المراحل ما قاله اللورد هاليفاكس عجبًا: «ما شاء الله، دارلنغتون، فالفضيات في هذا البيت متعة كبيرة». سررت بالطبع كثيرًا وأنا أسمع هذا الكلام في ذلك الوقت، ولكن الذي أرضاني حقًّا كان ما قفَّى به اللورد دارلنغتون على هذا الكلام بعد يومين أو ثلاثة أيام. قال لي فخامته: «بالمناسبة، يا ستيفنز، كان اللورد هاليفاكس معجبًا كل الإعجاب بالفضيات في الليلة قبل الماضية. ساعدته على تغيير نفسيته كليًّا». كانت هذه - كما أتذكر بوضوح - هي كلمات فخامة اللورد بالضبط، لذا فإنه ليس من قبيل إغراقي في الخيال ما أقوله من أن حالة الفضيات قد أسهمت إسهامًا صغيرًا، ولكنه إسهام مهم، في تلطيف العلاقات بين اللورد هاليفاكس والهر ربنتروب في تلك الليلة.

لعل من المناسب هنا أن أقول بضع كلمات في الهر ربنتروب. من المتفق عليه عمومًا اليوم، بالطبع أن الهر ربنتروب كان مخادعًا: إذ كانت خطة هتلر طوال تلك السنين تهدف إلى خداع إنجلترا إلى أطول مدة ممكنة بشأن نواياه الحقيقية، وكانت مهمة الهر ربنتروب الوحيدة في بلادنا هي تنظيم هذه الخدعة وقيادتها. هذا هو، كما قلت، الرأي السائد وأنا لا أريد أن أختلف معه هنا.

بيد أن من المزعج بعض الشيء أن نسمع اليوم أناسًا يتكلمون وكأنهم لم يُخدعوا قَطُّ بالهر ربنتروب - وكأن اللورد دارلنغتون كان وحده الذي اعتقد أن الهر ربنتروب رجل شريف وأقام معه علاقة عمل. والحقيقة هي أن الهر ربنتروب كان طوال الثلاثينات شخصًا له اعتباره الحسن، بل يُعتبر رجلًا فاتنًا، في خيرة بيوتاتنا. وإني أتذكر لا سيما زهاء سنة ١٩٣٦ و١٩٣٧، الكلام الذي كان يجري في ردهة الخدم من قبل المستخدمين الزائرين وهو يدور كله حول «السفير الألماني» وكان واضحًا مما كانوا يقولونه أن عددًا من أبرز السيدات والسادة في هذه البلاد كانوا متيمين به. فمن المزعج، كما قلت، أن نسمع الآن الطريقة التي بها يتكلم هؤلاء الناس أنفسهم عن تلك الأيام، لا سيما ما قاله البعض عن فخامة اللورد. سيتضح لك في الحال نفاق هؤلاء الأشخاص لو أنك اطلعت على بعض قوائم ضيوفهم في ذلك الحين؛ وسترى عندئذ عدد المرات التي تناول فيها الهر ربنتروب العشاء على موائد هؤلاء الأشخاص أنفسهم، بل كان مرارًا ضيف الشرف لديهم.

ثم إنك ستسمع أيضًا هؤلاء الناس أنفسهم وهم يتكلمون وكأن اللورد دارلنغتون قد فعل شيئًا غير معتاد بقبوله الضيافة من النازيين في الرحلات المتعددة التي قام بها إلى ألمانيا في تلك السنوات. ولا أظن أنهم سيتكلمون بمثل هذا الاستعداد لو أن جريدة التايمز، مثلًا، نشرت ولو قائمة واحدة من قوائم الضيوف للولائم التي أقامها الألمان في أيام اجتماع نورنبرغ الجماهيري. الحقيقة هي أن سادة القوم من الرجال والنساء من أهل الأصل العريق والذين هم أهل للاحترام كانوا كلهم يتقبلون ضيافة الزعماء الألمان، وأستطيع أن أجزم بناء على معلوماتي المباشرة أن الأغلبية الساحقة من أولئك الأشخاص كانوا يعودون وكلهم ثناء وإعجاب بمضيفيهم. إن من يوحي بأن اللورد دارلنغتون كان يتصل سرًّا بعدو معروف إنما يتناسى، إيثارًا لراحته، المناخ الحقيقي لذلك الزمن. ثمة حاجة إلى أن أقول أيضًا إن الزعم بأن اللورد دارلنغتون كان مناهضًا للسامية ما هو إلا هُراء داعر، وكذلك الزعم بأنه كانت له صلات وثيقة بمنظمات مثل «الاتحاد البريطاني للفاشيست». إن مثل هذه المزاعم لا تصدر إلا عن جهل تام بنوع الرجل المهذب الذي كانه فخامة اللورد. إن اللورد دارلنغتون بلغ حدًّا كان يمقت فيه مناهضة السامية أشد المقت؛ وقد سمعته يفصح عن اشمئزازه في مناسبات متعددة منفصلة عندما يلمس ميولًا مناهضة للسامية. أما الادعاء بأن فخامته لم يسمح قَطُّ لأي يهودي بأن يدخل بيته، أو بأن يُستخدم فيه، فلا أساس له من الصحة على الإطلاق - اللهم إلا ما

يتعلق بحادث واحد بسيط جدًّا في الثلاثينات؛ ضخم أمره تضخيمًا لا يتفق مع الواقع. أما بالنسبة «للاتحاد البريطاني للفاشيست» فلا يسعني إلا أن أقول إن أي كلام يربط فخامة اللورد بمثل هؤلاء الناس ما هو إلا سخف محض. لقد كان السير أوزوالد موزلي، الرجل المهذب الذي قاد «أصحاب القمصان السود» من زوار قصر دارلنغتون في مناسبات لا أظنها تجاوزت الثلاث في الأكثر، وقد تمت تلك الزيارات كلها خلال الأيام الأولى من ظهور تلك المنظمة قبل أن تكشف عن وجهها وطبيعتها الحقيقية. وما إن اتضحت بشاعة حركة القمصان السود - وكان اللورد دارلنغتون أسرع من الكثرة الكاثرة في ملاحظتها - حتى قطع فخامته أية صلة بمثل هؤلاء.

على أية حال، كانت مثل هذه المنظمات على هامش الحياة السياسية في هذه البلاد. وكان اللورد دارلنغتون ذلك النوع من الرجل المهذب الذي لا يشغل نفسه إلا بما هو في الصميم من الأمور، كما أن الشخصيات التي كان يجمعها، في جهوده التي بذلها خلال تلك السنوات، كانت على أبعد ما يمكن تصوره من مثل تلك الجماعات الهامشية الكريهة. كانت تلك الشخصيات محترمة جدًّا وذات نفوذ حقيقي في الحياة البريطانية، وبينهم ساسة ودبلوماسيون وعسكريون وكنسيون، بل كان بعضهم من اليهود، وهذه الحقيقة وحدها تكفي لدحض الكثير مما قيل عن فخامة اللورد وتبيُّن أيِّ هُراء هو.

لكني شططت في الاستطراد. كنت أتحدث في الحقيقة عن الفضيات، وكيف أعجب بها اللورد هاليفاكس في ليلة اجتماعه مع الهر ربنتروب في قصر دارلنغتون ذلك الإعجاب المناسب. دعني أوضح أنني لم أكن أوحي قَطُّ بأن ما كان يهدد في البداية بجعل الأمسية مخيبة لآمال سيد البيت إنما انقلب إلى جعلها ناجحة جدًّا بسبب الفضيات وحدها. غير أن اللورد دارلنغتون نفسه هو الذي ذكر، كما أشرت، أن الفضيات كانت عاملًا بسيطًا في الأقل في تغيير مزاج ضيفه في تلك الأمسية، ولعل من المعقول أن يفكر المرء بمثل هذه الأمور الماضية بشيء من القناعة النفسية، والرضا عن الذات.

ثمة أفراد معينون من ذوي مهنتنا يرون أن لا فرق من ناحية النتيجة، سواء خدم المرء هذا النمط من رب العمل أو ذاك؛ ويعتقد هؤلاء أن نوع المثالية السائدة في أوساط جيلنا - ويعنون بذلك الفكرة التي تقضي بأن علينا نحن رؤساء الخدم المعنيين أن نطمح إلى خدمة أولئك السادة الكبار الذين يدعمون قضية الإنسانية - ما هي إلا جعجعة لا أساس لها من الواقع. من الملحوظ بالطبع أن الذين يعبرون عن مثل هذه الشكوك هم من المستوى العادي جدًّا في مهنتنا - الذين يعرفون أنهم يفتقرون إلى القدرة على التقدم نحو أي مركز له أهميته فيتطلعون إلى جر أكبر عدد ممكن إلى مستواهم العادي نفسه - لذا لا يميل المرء إلى أخذ مثل هذه الآراء مأخذًا جديًّا. مع هذا فإن من المُرضي للنفس أن يتمكن المرء من الإشارة إلى حالات حصلت في سنوات عمله، تصور بوضوح تام خطأ هؤلاء الفاضح. إن المرء يبتغي بالطبع أن يقدم

لمخدومه خدمة مستقرة لا تنقطع، خدمة لا تُقدر قيمتها فقط بعدد معين من الحالات الخاصة - كتلك الحالة المتعلقة باللورد هاليفاكس. ولكن الذي أقوله هو أن هذا النوع من الحالات يصير مع الزمن رمزًا لحقيقة لا يمكن دحضها؛ ألا وهي أن المرء قد نال امتياز الممارسة لمهنته وشرفها وهو في الصميم من الشؤون الكبرى. ولعل من حق المرء أن يشعر بالرضا الذي لن يعرفه أبدًا أولئك الذين يخدمون أرباب عمل من المستوى العادي - ذلك الرضا الناشئ عن تمكن المرء من أن يقول وبمبرر معقول، إن جهوده مهما كانت متواضعة تؤلف إسهامًا في مجرى التاريخ.

ولكن ربما يكون على المرء ألا ينظر كثيرًا إلى الماضي. وعلى أية حال لا يزال أمامي عدد من سنوات الخدمة التي يجب عليَّ أن أقدمها. ثم إن السيد فاراداي رب عمل ممتاز جدًّا، وليس هذا فقط بل إنه سيد أمريكي وعليَّ تجاهه بالتأكيد أن أظهر، كواجب خاص، أفضل ما يمكن تقديمه من خدمات في إنجلترا. فمن الأمور الأساسية للمرء إذن أن يركز اهتمامه على الحاضر؛ وأن يحترس من أية قناعة قد تدب فيه على أساس ما أنجزه في الماضي. ذلك أن عليَّ أن أقر أن الأمور، خلال هذه الأشهر القليلة الماضية، لم تكن كما كان ينبغي لها أن تكون في قصر دارلنغتون. فقد ظهر عدد من الأخطاء الصغيرة، بما في ذلك تلك الحادثة التي وقعت في نيسان الماضي وتتعلق بالفضيات. ولحسن الحظ لم تقع في مناسبة كان للسيد فاراداي فيها ضيوف، لكنها مع ذلك سببت لي شخصيًّا حرجًا حقيقيًّا.

حدث الأمر ذات يوم صباحًا عند تناول الإفطار، ولم يتفوه السيد فاراداي بكلمة شكوى واحدة طوال الواقعة بأسرها، إما تلطفًا منه وإما لأنه أمريكي، ففاته أن يرى جسامة العيب. كان، بعد أن أخذ مجلسه على المائدة، قد التقط الشوكة فتفحصها سريعًا جدًّا وهو يلمس أسنانها برأس إصبعه، ثم انصرف إلى جريدته. جرى ذلك على نحو أشبه بشرود الذهن، ولكني بالطبع شخصت ما وقع وأسرعت إلى رفع الشوكة المؤذية. ولعلي رفعتها بأسرع قليلًا مما ينبغي نظرًا لاضطرابي، لأن السيد فاراداي جفل بعض الشيء وغمغم: «آه ستيفنز».

واصلت خروجي السريع من الغرفة وعدت من دون تأخير حاملًا شوكة تُرضي مستعملها. وعندما تقدمت نحو المائدة - والسيد فاراداي مستغرق الآن في جريدته - خطر لي أن أدس الشوكة دفعًا على غطاء المائدة بهدوء من دون أن أقطع على مخدومي قراءته. ولكن خطر لي عندئذ شيء آخر، فمن المحتمل أن يكون السيد فاراداي قد تصنع اللامبالاة للتقليل من حرجي، فيمكن إذن أن يفسر وضعي للشوكة بذلك الاستخفاء على أنه مواربة من قبلي نحو خطئي - أو محاولة لتغطيته وهذا أنكى. كان هذا، إذن، هو السبب الذي دعاني أن أقرر أن من المناسب وضع الشوكة على المائدة بشيء من القوة، مما أدى إلى أن يجفل مخدومي للمرة الثانية، فيرفع نظره ويتمتم مجددًا: «آه، ستيفنز».

إن أخطاء كهذه، وقعت خلال الأشهر القليلة الماضية من شأنها بطبيعة الحال أن تنال من احترامي لنفسي، ولكن ليس هناك من سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنها علامات تدل على أي شيء شنيع سوى قلة عدد المستخدمين. ولا يعني هذا أن النقص في هذا العدد ليس مهمًّا بذاته؛ ولكن إذا كان للآنسة كنتون أن تعود فعلًا إلى قصر دارلنغتون فإن مثل هذه الهفوات ستكون بالتأكيد من أمور الماضي. وبالطبع عليَّ أن أتذكر أن رسالة الآنسة كنتون - وبالمناسبة فقد أعدت قراءتها ليلة أمس في غرفتي قبل إطفاء الضوء - لم تأتِ على ذكر أي شيء محدد يشير من دون لبس أو إبهام إلى رغبتها بالعودة إلى مركزها السابق. والواقع أن عليَّ أن أتقبل الاحتمال الواضح جدًّا بأنني بالغت سابقًا بما خُيِّل لي أنه دليل على رغبتها في العودة، ربما بفعل تمنيات من النوع المهني. ذلك أنني دهشت قليلًا بالفعل ليلة أمس حين وجدت من الصعب عليَّ حقيقة أن أعثر على أي مقطع في الرسالة يفصح بوضوح عن رغبتها في العودة.

ولكن أعود فأقول إنه لا يجدر التكهن كثيرًا بمثل هذه الأمور الآن، وأنا أعلم أنني في أغلب احتمال سأتكلم مع الآنسة كنتون وجهًا لوجه خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة. مع هذا يجب أن أقول إنني قضيت دقائق طويلة وأنا أقلب تلك المقاطع من الرسالة في ذهني ليلة أمس عندما كنت مستلقيًا في سريري في الظلام، أستمع إلى الأصوات المتصاعدة من الأسفل حيث كان مالك النُّزُل وزوجته ينهيان أعمالهما الليلية.

اليوم الثالث - مساء

موسكوم، قرب تافستوك، ديفون

لعل من الضروري كما أرى أن أعود لحظة إلى مسألة موقف فخامة اللورد من اليهود، إذ إن قضية مناهضة السامية بأسرها، على ما أعلم، قد غدت من القضايا الحساسة بعض الشيء في هذه الأيام. دعني على نحو خاص أزِل ما علق بموضوع المنع المفترض على اليهود وعدم استخدامهم في قصر دارلنغتون. وبما أن هذا الادعاء يقع بصورة مباشرة جدًّا في مجال عملي بالذات فإني أستطيع أن أدحضه بكل ما أملك من سلطة. كان هناك عدد من اليهود بين المستخدمين العاملين بإمرتي خلال سنواتي كلها مع فخامة اللورد، ودعني أضف أنهم لم يكونوا يعامَلون قَطُّ معاملة مختلفة بأي شكل من الأشكال على أساس جنسهم. والحقيقة أن المرء لا يستطيع أن يخمن السبب وراء هذه المزاعم الجوفاء، اللهم إلا إذا كانت المزاعم تنشأ، وعلى نحو سخيف تمامًا، من تلك الأسابيع القصيرة، غير المهمة كليًّا، في أوائل الثلاثينات حين كان للسيدة كارولين بارنيت أن تمارس نفوذًا غير اعتيادي على فخامة اللورد.

كانت السيدة بارنيت، وهي أرملة السيد تشارلز بارنيت، في العقد الثالث من عمرها - سيدة جميلة جدًّا، وقد يقول البعض إنها فاتنة. كانت تشتهر بذكاء جبار، وكنا نسمع في تلك الأيام كيف أنها سخفت هذا الرجل العليم أو ذاك على العشاء بشأن قضايا معاصرة مهمَّة. كانت هذه السيدة تأتي بانتظام، في صيف ١٩٣٢، إلى قصر دارلنغتون، فتقضي هي وفخامة اللورد ساعات متواصلة في أحاديث تستغرقهما وتكون في العادة أحاديث ذات طبيعة اجتماعية أو سياسية. وكانت السيدة بارنيت، كما أتذكر، هي التي تأخذ اللورد دارلنغتون إلى تلك «الجولات التفتيشية الموجهة» في أفقر المناطق من الطرف الشرقي في لندن، التي زار فخامته خلالها البيوت الحقيقية لعدد من العوائل التي كانت تعاني المحنة القاسية لتلك السنين. بعبارة أخرى أسهمت السيدة بارنيت في أغلب احتمال بنوع من الإسهام في تطوير اهتمام اللورد دارلنغتون بالفقراء في بلادنا، وعلى هذا لا يمكن القول إن نفوذها كان سلبيًّا بالكامل. ولكنها كانت كذلك، بالطبع، عضوًا في منظمة «القمصان السود» التي أسسها السير أزوالد موزلي، كما أن الاتصال القليل جدًّا الذي أقامه فخامة اللورد مع السير أزوالد إنما حصل خلال تلك الأسابيع القليلة من ذلك الصيف. وإنه لفي خلال تلك الأسابيع ذاتها أن وقعت تلك الحوادث غير المعتادة

تمامًا في قصر دارلنغتون التي لا بد أنها هيأت، فيما يُفترض، الأساس الواهي لتلك المزاعم الجوفاء.
أنا أسميها «حوادث» ولكن بعضها بسيط جدًّا. أتذكر مثلًا أن طرق سمعي ذات مساء وأنا أخدم على العشاء قول اللورد دارلنغتون، حين ورد ذكر جريدة بعينها، فقد قال فخامته: «أوه، أنت تعني تلك الوريقة اليهودية الدعائية». وأتذكر كذلك أنه أوصاني، في مناسبة أخرى ذلك الوقت تقريبًا، بأن أقطع التبرعات التي كنا نعطيها لمؤسسة خيرية محلية بعينها، وكانوا يأتون إلى بابنا بانتظام لجمع التبرعات، على أساس أن اللجنة الإدارية «كانت بشكل عام من جنس يهودي واحد». أنا أتذكر هذه الملاحظات لأنها أدهشتني حقًّا في وقتها، لا سيما أن فخامة اللورد لم يظهر في السابق قَطُّ أي عداء من أي شكل كان، نحو الجنس اليهودي.
ثم كان، بالطبع، ذلك اليوم الذي استدعاني فيه عصرًا إلى مكتبته. أبدى فخامته في البداية بعض الملاحظات العامة في حديث عابر، واستفسر عن شؤون البيت وهل هي تسير على ما يرام؟ ثم قال:
«لقد كنت يا ستيفنز أفكر كثيرًا. أفكر كثيرًا. وقد توصلت إلى قرار. لا يمكننا الإبقاء على يهود بين المستخدمين هنا في قصر دارلنغتون».
«سيدي؟».
«هذا لمصلحة هذه الدار، يا ستيفنز. لفائدة الضيوف الذين نجعلهم يقيمون هنا. لقد دققت في هذا الأمر بعناية، يا ستيفنز، وأنا أبلغك بقراري».
«طيب، سيدي».
«قل لي يا ستيفنز، عندنا عدد قليل الآن، أليس كذلك؟ أعني من اليهود».
«أظن عندنا في الوقت الحاضر اثنان من المستخدمين هما من هذه الفئة يا سيدي».
«آه». وتوقف فخامة اللورد لحظة وهو ينظر من النافذة إلى الخارج. ثم أضاف: «سيكون عليك بالطبع أن تفصلهما من الخدمة».
«عفوًا، سيدي؟».
«إنه شيء مؤسف يا ستيفنز، ولكن لا خيار لنا. علينا أن نهتم بسلامة الضيوف. أؤكد لك أنني نظرت في هذا الأمر بإمعان. والقرار هو في صالحنا تمامًا».
كان هذان الاثنان، في الواقع، هما خادمتان من خادمات المنزل. لذا لم يكن من المناسب أن أتخذ أي شيء بحقهما قبل إخبار الآنسة كنتون أولًا عن الوضع، فقررت أن أفعل ذلك بالذات في تلك الأمسية ذاتها حين اجتمعت بها في غرفتها لنتناول معًا الكاكاو. لعل من الضروري أن أقول بضع كلمات بشأن هذه الاجتماعات في غرفة الآنسة كنتون في نهاية كل نهار. ودعني أقل إنها كانت اجتماعات ذات طابع مهني بالدرجة الأولى - وإن كنا بطبيعة الحال نبحث في بعض الموضوعات الاعتيادية بين حين وآخر. كان السبب لترتيب مثل هذه

الاجتماعات بسيطًا: فقد وجدنا أن كلًا منا منشغل جدًّا خلال النهار، حتى إن أيامًا متعددة يمكن أن تمر من دون أن تسنح لنا فرصة لتبادل المعلومات الضرورية جدًّا. وقد أدركنا أن مثل هذا الوضع يهدد الإدارة السليمة للعمليات تهديدًا خطيرًا، فاتفقنا على أن خير علاج لذلك هو أن نقضي معًا خمس عشرة دقيقة أو نحوها في نهاية كل نهار في الخلوة التي توفرها غرفة الآنسة كنتون. يجب عليَّ أن أكرر قولي إن هذه الاجتماعات كانت ذات طابع مهني بالدرجة الأولى؛ بعبارة أخرى كنا مثلًا نتكلم عن الخطط اللازمة لمناسبة قادمة في القصر، أو نتحدث عن مستخدم جديد وكيف يتطور عمله في المنزل.

على أية حال، أعود الآن إلى مجرى حديثي فأقول إنك ستقدر أنني لم أكن مرتاحًا مما ينتظرني حين أخبر الآنسة كنتون أنني أوشك أن أطرد اثنتين من الخادمات العاملات بإمرتها. والحق أن الخادمتين كانتا من المستخدمات المرضي عنهن تمامًا، كما أن مشاعري كلها كانت تناقض فكرة طردهما، وأنا أقول هذا لأن المسألة اليهودية قد أمست حساسة للغاية مؤخرًا. وبالرغم من ذلك كان واجبي في هذه الحالة واضحًا جدًّا، وكنت أرى أننا لن نكسب شيئًا على الإطلاق إذا أبدينا مثل هذه الشكوك الشخصية بشكل ينافي الشعور بالمسؤولية. كانت المهمة صعبة، فهي لذلك تقتضي تنفيذها بكرامة. ولهذا فعندما أثرت الأمر أخيرًا في نهاية حديثنا تلك الأمسية فقد وضعت المسألة على أدق ما يمكن من الإيجاز وبشكل عملي جدًّا، وانتهيت إلى القول:

«سأكلم المستخدمتين في حجرتي صباح غد في العاشرة والنصف. وسأكون شاكرًا لك يا آنسة كنتون لو أرسلتهما إليَّ. وأترك لكِ حرية التصرف إذا شئتِ إخبارهما مقدمًا بطبيعة ما سأقوله لهما، ولك إذا شئتِ ألا تخبريهما بذلك».

عند ذلك بدا لي أن الآنسة كنتون ليس لديها ما تقوله جوابًا عن كلامي. لذا واصلت الكلام قائلًا: «والآن، شكرًا لك يا آنسة كنتون على كوب الكاكاو. وقد حان الوقت لكي أعود إلى سبيلي. أمامنا غدًا يوم عمل آخر».

عندئذ ما إن مرت لحظة حتى قالت الآنسة كنتون: «يا سيد ستيفنز، أنا لا أستطيع أن أصدق ما سمعته أذناي. إن روث وسارة هما من المستخدمات عندي مدة تزيد على ست سنوات. أنا أثق بهما كل الثقة وهما تثقان بي أيضًا. وقد خدمتا هذا البيت بصورة ممتازة جدًّا».

«أنا واثق من هذا يا آنسة كنتون. ولكن يجب ألا ندع عواطفنا تتسرب إلى حكمنا. والآن اسمحي لي أن أستأذن...».

«يا سيد ستيفنز، أنا غاضبة جدًّا لأنك تستطيع أن تجلس بكل هدوء وتتفوه بما تفوهت به وكأنك تتكلم عن طلبية من الزيت. لا يمكنني أن أصدق ذلك. أتقول إن روث وسارة ستطردان على أساس أنهما يهوديتان؟».

«يا آنسة كنتون، إني قد أوضحت الحالة لك الآن على نحو كامل. لقد قرر فخامة اللورد قراره، وليس أمامنا شيء نتناقش عنه حول ذلك».

«ألم يخطر لك، يا سيد ستيفنز، أن طرد روث وسارة على هذا الأساس سيكون ببساطة - خطأ؟ وأكرر: خطأ. لا يمكنني أن أتحمل شيئًا كهذا. إني لن أعمل في بيت يمكن أن تحدث فيه مثل هذه الأشياء».

«يا آنسة كنتون، أطلب منك عدم التهيج وأسألك أن تتصرفي بطريقة تليق بمركزك. هذا الأمر واضح جدًّا. فإذا كان فخامة اللورد يرغب في إنهاء هذين العقدين بالذات، فليس لدينا إذن ما نقوله».

«أنا أحذرك، يا سيد ستيفنز، وأنذرك بأني لن أستمر في العمل في بيت كهذا. إذا طُردت الفتاتان العائدتان لي فسأترك أنا أيضًا».

«يا آنسة كنتون، أنا دهش لأنك تتصرفين بهذه الطريقة. ولا داعي يدعو إلى أن أذكرك بأن واجبنا المهني ليس متروكًا لمشاعرنا الرقيقة وعواطفنا الجميلة، بل لرغبات مخدومنا».

«أنا أحذرك، يا سيد ستيفنز، إذا طردت الفتاتين غدًا فسيكون هذا خطأ، بل خطيئة، وإثمًا كبيرًا، وأنا لن أستمر في العمل في بيت كهذا».

«يا آنسة كنتون، دعيني أقل لك إنك لست مؤهلة تمامًا لإصدار أحكام من هذا النوع العظيم. إن العالم اليوم هو مكان معقد جدًّا وغدَّار. هناك أمور لسنا، أنت وأنا، في مركز يمكننا من فهمها، مثلًا ما يتعلق بطبيعة اليهودية. في حين أن فخامة اللورد هو في مركز أفضل للحكم ومعرفة ما هو أفضل. والآن، يجب عليَّ أن أغادر وآوي إلى حجرتي. شكرًا لك مرة أخرى على كوب الكاكاو. العاشرة والنصف صباح غد. أرسلي إليَّ المستخدمتين رجاء».

كان واضحًا في اللحظة التي دخلت الخادمتان إلى حجرتي صباح اليوم التالي أن الآنسة كنتون كانت قد أخبرتهما أصلًا، ذلك أن كلتيهما دخلت تجهش بالبكاء. شرحت لهما الوضع بإيجاز، مؤكدًا أن عملهما كان مرضيًا وأنهما لذلك ستزودان برسائل توصية طيبة. وعلى ما أتذكر لم تقل أي منهما شيئًا يُذكر طوال المقابلة التي لعلها استغرقت ثلاث دقائق أو أربعًا، وقد خرجتا جاهشتين كما دخلتا تمامًا.

ظلت الآنسة كنتون تتصرف نحوي ببرود شديد مدة أيام بعد الاستغناء عن المستخدمتين. بل كانت أحيانًا خشنة معي حتى بحضور العاملين. ومع أننا واصلنا اتباع عادتنا على الاجتماع لتناول الكاكاو في المساء فقد صارت لقاءاتنا قصيرة وغير ودية. وحين لم تظهر أي علامة تشير إلى أن سلوكها سيتغير فتخف حدته بعد أسبوعين أو نحو ذلك، فقد أخذ صبري بالنفاد، كما أظنك ستفهم. لذلك قلت لها في أحد اجتماعات الكاكاو بنبرة صوت متهكمة:

«يا آنسة كنتون، كنت أتوقع أن تقدمي إنذارك بإنهاء العقد منذ مدة»، وقفيت على هذا القول بضحكة خفيفة، كنت أرجو، على ما أفترض، أنها قد تلين بعض الشيء أخيرًا فتجيبني جوابًا يفيد الاسترضاء والتصالح أو ما أشبه ذلك، لكي

نضع هذا الأمر بأسره وراءنا إلى الأبد. بيد أن الآنسة كنتون نظرت إليَّ عابسة وقالت:
«لا أزال أنوي أن أقدم إنذاري، يا سيد ستيفنز، كل ما هنالك أنني كنت مشغولة جدًّا، لم يسمح لي الوقت بإجراء ذلك».
عليَّ أن أقر أن هذا جعلني أقلق بعض الشيء مدة من الزمن لأنني أخشى أن تكون جادة بتهديدها. ولكن ما إن مضت الأسابيع تترى حتى أصبح من الواضح أن تركها للخدمة في قصر دارلنغتون صار غير ذي موضوع، وبعد أن تلطف الجو تدريجيًّا فيما بيننا كنت أنحو إلى إغاظتها بين آنٍ وآخر فأذكِّرها باستقالتها التي كانت تهدد بها. فمثلًا إذا كنا نبحث في ترتيب مناسبة كبيرة قادمة ستقام في المنزل فقد أقول لها: «هذا على فرض أنك، يا آنسة كنتون، لا تزالين معنا في تلك المرحلة». كانت مثل هذه الملاحظات، حتى بعد مرور أشهر على الحادث، تجعلها تلتزم السكوت - وإن كان ذلك يرجع، على ما أتخيل، إلى حرجها أكثر مما يرجع إلى غضبها.
وفي نهاية المطاف كان لهذا الأمر، بالطبع، أن يُنسى على العموم. ولكني أتذكر تجدده مرة واحدة وأخيرة وذلك بعد أكثر من سنة من طرد الخادمتين.
كان فخامة اللورد هو الذي جدد الأمر ابتداء، وذلك عصر أحد الأيام حين كنت أقدم له الشاي في غرفة الجلوس. كانت أيام النفوذ الذي مارسته السيدة كارولين بارنيت، فأثرت بنفوذها ذاك على فخامته، قد ولَّت في ذلك الحين - والحقيقة كانت السيدة قد انقطعت عن زيارة قصر دارلنغتون نهائيًّا. من الجدير بالذكر أن أضيف أن فخامة اللورد كان في ذلك الوقت قد قطع كافة الصلات «بالقمصان السود» بعد أن شهد الطبيعة البشعة، الحقيقية لتلك المنظمة.
كان قد قال لي: «أوه، ستيفنز. كنت أنوي أن أكلمك. عن ذلك الموضوع في العام الماضي. عن الخادمتين اليهوديتين. أتتذكر الأمر؟».
«نعم، سيدي».
«أظن لا توجد طريقة للعثور عليهما، أليس كذلك؟ ما حدث كان خطأ، وبودي أن أعوضهما بشكل ما».
«سأنظر في المسألة بالتأكيد يا سيدي. ولكني لست متأكدًا على الإطلاق أن من الممكن التوصل إلى عنوانهما في هذه المرحلة».
«حاول جهدك. ما وقع كان خطأ».
حسبت أن هذه المحاورة مع فخامة اللورد ستثير شيئًا من الاهتمام لدى الآنسة كنتون، فقررت أن من المناسب جدًّا أن أذكرها لها - حتى إذا انطوى ذلك على المجازفة بإغضابها مجددًا. أما الذي حدث حين حدثتها عنها عصر ذلك اليوم كثيف الضباب عندما التقيتها في السقيفة الصيفية فهو أن الحديث قد أظهر نتائج غريبة.

أتذكر أن الضباب كان يتكاثف وأنا أعبر ساحة العشب الخضراء في ذلك اليوم عصرًا. كنت في طريقي إلى السقيفة الصيفية لكي أرتب المكان وأحمل ما تبقى من عدة الشاي، إذ كان فخامة اللورد قد تناوله هناك قبل قليل مع بعض الضيوف. بوسعي أن أتذكر رؤيتي للآنسة كنتون من مسافة غير قصيرة - قبل وصولي إلى الدرجات حيث وقع والدي ذات مرة - وهي تروح وتجيء في السقيفة الصيفية. حين وصلت ودخلت السقيفة كانت هي قد جلست على أحد كراسي الخيزران المبثوثة هناك وهي منهمكة بعمل من أعمال التطريز بالإبرة. وعندما تبينت الأمر عن كثب رأيت أنها كانت تقوم بتصليح إحدى الوسائد. أخذت أجمع شتى أنواع الأواني الفخارية من بين الأشجار ومناضد الخيزران، وفي هذه الأثناء أظن أننا تبادلنا بعض المجاملات، ولعلنا تكلمنا عن شيء من الأمور المهنية أيضًا. فوجودنا في السقيفة الصيفية كان منعشًا جدًّا بعد قضاء عدد من الأيام المتواصلة في البناية الرئيسة، لذا لم يكن أي منا على عجلة من أمره. بل كنَّا كما أتذكر ننقطع عما ننشغل به بين آونة وأخرى لمجرد التحديق بالمناظر التي من حولنا، رغم أن المرء لم يكن يسعه أن يرى بعيدًا في ذلك اليوم من جراء الضباب المتكاثف، كما أن ضوء النهار كان يختفي سريعًا في تلك الساعة مما اضطر الآنسة كنتون أن تمسك بإبرتها قريبًا من عينيها حتى آخر شعاع. والواقع أني كنت أرسل نظري نحو الساحة الخضراء، حيث كان الضباب يتكاثف نازلًا من حول أشجار الحور المزروعة بمحاذاة ممر عربة النقل، عندما نوهت أخيرًا بموضوع الطرد الذي جرى في السنة الماضية. دخلت في الموضوع على النحو المتوقع قائلًا:

«كنت أفكر قبل قليل، يا آنسة كنتون. ومن الغريب أن أتذكر الآن، فكما تعلمين، وفي مثل هذا الوقت قبل سنة، كنتِ أنتِ تصرين على تقديم استقالتك. إن من الطريف أن أتذكر ذلك». وضحكت، ولكن الآنسة كنتون ظلت ساكتة وهي جالسة خلفي. حين أدرت وجهي أخيرًا لكي أنظر إليها كانت هي تحدق من خلال الزجاج بالضباب المنتشر في الخارج إلى مدى واسع.

قالت بعد لأيٍ: «لعلك لا تتصور كم كنت جادة فعلًا في التفكير بترك هذا البيت. لقد ثارت ثائرتي بشأن ما حدث. ولو كنت جديرة بأي احترام على الإطلاق لتركت قصر دارلنغتون منذ مدة طويلة». توقفت قليلًا، فتحولت أنا عنها لأنظر إلى أشجار الحور الممتدة أمامي. ثم استمرت هي تقول بصوت متعب: «كان ذلك جبنًا، يا سيد ستيفنز. جبنًا لا أكثر ولا أقل. أين كنت سأذهب؟ ليس لديَّ أهل. عمتي فقط. وأنا أحبها كثيرًا، ولكني إذا عشت معها يومًا واحدًا شعرت أن حياتي كلها تذهب سدًى. قلت لنفسي بالطبع إني سرعان ما سأجد عملًا ما جديدًا. ولكني كنت خائفة جدًّا، يا سيد ستيفنز. كلما فكرت بترك الخدمة رأيت نفسي أخرج فلا أجد أحدًا يعرف عني شيئًا أو يعبأ بأمري. وهذا ما بلغته مبادئي السامية كلها. أنا أشعر بالخجل من نفسي. ولكني لم أستطع أن أترك وكفى، يا سيد ستيفنز. لم أستطع أن أوطد نفسي على ترك العمل».

توقفت الآنسة كنتون مرة أخرى وبدا عليها أنها كانت مستغرقة بتفكير عميق. لذا ظننت أن من المناسب الآن أن أروي لها، وبكل دقة، ما جرى سابقًا بيني وبين اللورد دارلنغتون. فحدثتها عن ذلك واختتمت كلامي قائلًا:

«إن ما جرى لا يمكن إعادته إلى ما كان عليه. ولكن مما يريح البال جدًّا أن نسمع فخامة اللورد يصرِّح بشكل قاطع أن الأمر كله كان سوء فهم فظيعًا. ظننت أنكِ تودين سماع هذا، يا آنسة كنتون، لأني أتذكر أنكِ كنت مستاءة كثيرًا من المسألة كما كنت أنا».

فقالت الآنسة كنتون من ورائي بصوت جديد للغاية، وكأنها قد أُفيقت توًّا من حلم: «أنا آسفة يا سيد ستيفنز، فأنا لا أفهمك». ما إن استدرت نحوها حتى أردفت: «كما أتذكر أنا، كنت أنت ترى أن الأمر صحيح ومناسب وأن روث وسارة يجب أن تُطردا. وكنت فرحًا بشأن ذلك بالتأكيد».

«ويحك يا آنسة كنتون، فهذا غير صحيح وغير منصف. فالمسألة كلها سببت لي قلقًا عظيمًا، قلقًا عظيمًا حقًّا. إنها من الأمور التي لا أود أن أراها تحدث في هذا البيت».

«إذن لماذا يا سيد ستيفنز لم تخبرني بذلك في حينه؟».

ضحكت ولكني لم أحر جوابًا. وقبل أن أجد شيئًا أقوله وضعت الآنسة كنتون خياطتها جانبًا وقالت:

«هل تعلم، يا سيد ستيفنز، كم كان يهمني لو أنك أشركتني بمشاعرك في العام الماضي؟ فقد كنت تعلم مدى اكتئابي عند طرد الفتاتين. هل تعلم كم كانت مشاعرك ستساعدني؟ فلم، يا سيد ستيفنز، لم، لم تريد دائمًا أن تتصنَّع؟ نعم، أن تتصنَّع؟».

ضحكت مرة أخرى من هذا التحول السخيف الذي آل إليه الحديث فجأة. فقلت: «ويحك يا آنسة كنتون، فأنا لا أدري ماذا تقصدين. أتصنَّع؟ كفاك هذا...».

«لقد قاسيت أنا كثيرًا من جراء ترك روث وسارة ومغادرتهما. وازدادت معاناتي لأنني اعتقدت أنني كنت وحيدة».

«كفى، يا آنسة كنتون...». جمعت الآنية المستعملة وحملتها وأنا أقول: «المرء لا يوافق بطبيعة الحال على الطرد وأظن أن ذلك كان واضحًا ولا يحتاج إلى دليل».

لم تقل شيئًا، فنظرت إليها وأنا أهم بالخروج. كانت تحدق مجددًا بالمنظر الذي أمامها في الخارج، ولكن الظلام كان آنئذٍ دامسًا في السقيفة الصيفية، وكل ما رأيته منها هو خطوط وجهها النصفي بإزاء ما وراءها من مشهد شاحب وفارغ. استأذنت وأخذت سبيلي نحو الخارج.

الآن وقد استذكرت حكاية الاستغناء عن المستخدمتين اليهوديتين فإني أتذكر ما يمكن أن يُسمى، فيما أفترض، بالنتيجة الغريبة لتلك المسألة بأسرها. وأعني وصول الخادمة المنزلية المسماة ليزا. فبما أننا اضطررنا للبحث عمن

يحل محل الخادمتين اليهوديتين المطرودتين كان أن جاءت ليزا هذه لتكون بديلة عن إحداهما.

قدمت هذه الفتاة طلبًا لإشغال الشاغر وهي تحمل شهادات كثيرة بالخدمة مشكوكًا بأمرها، مما يكشف لأي رئيس خدم ذي خبرة أنها تركت عملها السابق في جو مريب، يضاف إلى هذا ما اتضح لنا عند مقابلتها من قِبَل الآنسة كنتون ومن قِبَلي وتوجيه الأسئلة إليها أنها لم تبقَ في مكان واحد أكثر من بضعة أسابيع. وقد أوحى لي موقفها بأسره أنها على العموم لا تصلح للخدمة في قصر دارلنغتون. بيد أن ما أثار دهشتي أن الآنسة كنتون بدأت حالما انتهينا من مقابلتها تصر على تعيينها. كانت تقول جوابًا عن رفضي: «إني أرى إمكانية كبيرة في هذه الفتاة. وهي ستكون تحت إشرافي مباشرة وأنا أتعهد بأنها ستتحسن».

أتذكَّر أن اختلافنا بشأنها استعصى بعض الوقت، وبما أن مسألة طرد الخادمتين كانت لا تزال قريبة العهد في أذهاننا، فإنني لم أصر على معارضتي للآنسة كنتون، كما كنت سأصر بخلاف ذلك. على أية حال كانت النتيجة أن رضخت في النهاية ولو أني قلت:

«يا آنسة كنتون، آمل أنكِ تدركين أن مسؤولية تعيين هذه الفتاة تقع على عاتقكِ بالذات. أما أنا فلا ريب عندي أنها في الحال الحاضرة أبعد شيء عن أن تكون مناسبة لتصبح من مستخدماتنا. إني إنما أتيح لها أن تنتمي إلينا، وذلك على أساس التفاهم بأنك ستشرفين شخصيًّا على تطورها».

«الفتاة ستتحسن يا سيد ستيفنز، وسترى».

وكان من دواعي دهشتي أن هذه الفتاة قد تحسنت فعلًا خلال الأسابيع التالية، وأظهرت تقدمًا بنسبة عالية. كان موقفها يأخذ بالتحسن يومًا بعد يوم، وحتى طريقة مشيتها ومزاولتها لأعمالها قد تحسنت تحسنًا مذهلًا، وكانت طريقتها هذه في الأيام الأولى بائسة جدًّا بحيث كان المرء يضطر إلى أن يصد عينيه عنها ليتحاشاها.

عندما أخذت الأسابيع تمر، والفتاة تتحول، كما بفعل معجزة، إلى عضو نافع بين خدم المنزل، كان انتصار الآنسة كنتون لا جدال فيه. وكان مما يسرها على نحو خاص أن تعهد إلى ليزا عملًا من الأعمال التي تتطلب شيئًا من مسؤولية إضافية. فإذا حدث وكنت أنا أراقبها حاولت جاهدة أن تثير انتباهي إلى ما يرتسم على وجهها من ملامح ساخرة. أما الكلام الذي تراشقناه في تلك الليلة في غرفة الآنسة كنتون ونحن نحتسي الكاكاو فقد أضحى نموذجًا للحديث الذي كنَّا نميل إلى تجاذب أطرافه حول موضوع ليزا.

قالت لي: «لا شك أنك يا سيد ستيفنز ستشعر بخيبة أمل عظيمة عندما تسمع بأن ليزا لم ترتكب بعد غلطًا حقيقيًّا يستحق الذكر».

«أنا لا أشعر بخيبة أمل مطلقًا، يا آنسة كنتون. وإني مسرور جدًّا من أجلك ومن أجلنا جميعًا. وسأقر بأنك حققتِ نجاحًا متواضعًا بشأن تلك الفتاة حتى

الآن».
«نجاحًا متواضعًا؟ انظر إلى تلك الابتسامة على وجهك يا سيد ستيفنز. إنها تظهر دائمًا عندما أذكر ليزا. تلك الابتسامة تشي بذاتها بقصة مثيرة. قصة مثيرة للغاية حقًّا».
«رويدك يا آنسة كنتون. وهل لي أن أسأل ما هي بالضبط؟».
«إنها مثيرة للغاية. ومن المثير للاهتمام جدًّا أنك كنت متشائمًا كثيرًا بشأنها. لأن ليزا فتاة جميلة، لا ريب في ذلك. فقد لاحظت أنك تصد صدودًا عن الفتيات الحسناوات وتكره أن يكن من المستخدمات عندنا».
«أنت تعلمين جيدًا بأنك تتكلمين هُراء، يا آنسة كنتون».
«ولكني لاحظت ذلك، يا سيد ستيفنز. أنت لا ترغب في استخدام فتيات حسناوات. ألعل السبب أن صاحبنا السيد ستيفنز يخشى أن يكون في ذلك ما يلهيه؟ هل يمكن أن السبب هو كون صاحبنا السيد ستيفنز من لحم ودم على أية حال فلا يستطيع أن يثق بنفسه كل الثقة؟».
«كفى يا آنسة كنتون. ولو ظننت أن في كلامك ذرة من المنطق فلربما تجشمت عناء التراشق بالكلام معكِ. لذا سأتجه بأفكاري وجهة أخرى في أثناء استمرارك بهذه الثرثرة».
«فلم إذن لا تزال ابتسامة الشعور بالذنب على وجهك؟».
«إنها ليست ابتسامة الشعور بالذنب. ما أنا إلا مستأنس قليلًا بقدرتك المذهلة على الهُراء، هذا كل ما هناك».
«لا بل هي ابتسامة الشعور بالذنب على وجهك. وقد لاحظت أنك لا تطيق النظر إلي ليزا. والآن أخذ يتضح لي تمامًا لماذا عارضت في تعيينها معارضة شديدة جدًّا».
«كانت معارضتي وجيهة جدًّا، كما تعلمين جيدًا. فالفتاة لم تكن لائقة قَطُّ حين جاءتنا في البداية».
لا شك أنك ستفهم أننا ما كنا لنتبادل مثل هذا النوع من الكلام ونحن على مسمع من المستخدمين. ولكن أمسياتنا لاحتساء الكاكاو أخذت تنحو، في حوالي ذلك الحين بالذات، نحو إتاحة المجال لنا، على الرغم من محافظتها على طابعها المهني أساسًا، لأن نتبادل كلامًا لا بأس به من هذا النوع - مما كان، بالمناسبة، يفرج عن كربنا ويريح أنفسنا من التوترات التي تعلق بها بعد عمل يوم شاق.
كانت ليزا قد خدمت عندنا فترة تتراوح بين ثمانية أشهر وتسعة - فنسيت وجودها إلى حد كبير - حين اختفت من الدار هي والمستخدم المُسمَّى بالخادم الثاني. إن مثل هذه الأمور، بالطبع، جزء لا يتجزأ من الحياة بالنسبة لرئيس خدم في منزل كبير يدير فيه عددًا ضخمًا من العاملين. وهي أمور مزعجة جدًّا، ولكن المرء يتعلم كيف يتقبلها فيتعود عليها. والواقع، وبقدر ما يتعلق الأمر بمثل هذا النمط من الهروب في جنح الليل، كانت مغادرة هذين الخادمين من

النوع المتحضر. فهما لم يأخذا معهما شيئًا يعود إلى الدار عدا القليل من الطعام، كما أن كلًّا منهما ترك وراءه رسالة. ترك الخادم الثاني، الذي لم أعد أتذكر اسمه، قصاصة قصيرة موجهة إليَّ يقول فيها ما معناه:

«أرجو ألا تحكم علينا حكمًا قاسيًا. نحن متحابان وسنتزوج».

أما ليزا فقد كتبت رسالة أطول كثيرًا من قصاصته معنونة إلى «مدبرة المنزل»، وهي الرسالة التي جاءت بها الآنسة كنتون إلى غرفتي صباح اليوم التالي لاختفائهما. كان فيها على ما أتذكر عدد من الأخطاء الإملائية والنحوية والإنشائية، وعدد من الجمل رديئة التكوين، تتحدث عن الحب الذي شغفهما، وعن الخادم الثاني وما أبدعه، وعن المستقبل الذي ينتظرهما وما أروعه. أتذكر جملة في هذه الرسالة تفيد ما معناه: «ليس عندنا نقود ولكن ما بالنا وعندنا الحب، ومن يريد أي شيء وأحدنا ملك للآخر وهذا ما يريده أي واحد في العالم». وعلى الرغم من أن طول الرسالة بلغ ثلاث صفحات لم يرد فيها أي عرفان للجميل نحو الآنسة كنتون على ما أحاطت به الفتاة من رعاية كبيرة، كما لم ترد فيها كلمة واحدة تعبر عن الأسف لخذلانها لنا جميعًا.

كان ضيق الصدر باديًا على الآنسة كنتون. فطول الوقت الذي كنت فيه ألقي بنظري على رسالة الفتاة كانت تجلس أمامي إلى المنضدة، مطرقة تنظر إلى يديها. والواقع - وهذا شيء غريب - أني لا أستطيع أن أتذكرها مكتئبة أكثر مما كانت عليه ذلك الصباح. وعندما وضعت الرسالة على المنضدة قالت:

«يبدو إذن يا سيد ستيفنز أنك كنت محقًّا وكنت أنا على خطأ». فقلت:

«يا آنسة كنتون، هوني عليك. هذه أمور تحدث. ولا يستطيع أمثالنا أن يمنعوا وقوعها».

«كنت أنا مخطئة يا سيد ستيفنز. وأقر بذلك. كنت أنت مصيبًا على طول الخط، كالعادة، وكنت أنا مخطئة».

«يا آنسة كنتون، أنا لا أستطيع أن أتفق معك أبدًا. لقد صنعتِ الأعاجيب مع تلك الفتاة. والذي فعلتِه معها يثبت مرارًا وتكرارًا أنني أنا شخصيًّا كنت في الواقع على خطأ. فيا آنسة كنتون، إن الذي حدث الآن كان يمكن أن يحدث مع أي مستخدم عندنا. لقد بذلتِ جهدًا طيبًا معها. ومن حقك أن تشعري أنها خذلتك، ولكن ليس من حقك أن تشعري بأية مسؤولية».

كان الاكتئاب الشديد باديًا على الآنسة كنتون لا يفارقها. قالت بهدوء: «لطيف منك جدًّا أن تقول هذا، يا سيد ستيفنز. شكرًا جزيلًا». ثم تنهدت متعبة وقالت: «يا لها من حمقاء. كانت تنتظرها مهنة حقيقية. وهي ذات قابلية. إن كثيرًا من الفتيات أمثالها يضربن بالفرص عرض الحائط، ولقاء أي شيء؟».

كلانا نظر إلى الأوراق الموضوعة على المنضدة أمامنا، ثم حولت الآنسة كنتون نظرها عنها بشيء من الانزعاج. قلت:

«نعم. ضياع في ضياع، كما تقولين».

«وحماقة كبيرة. وهذه الفتاة لا بد أن تخذل. في حين كانت أمامها حياة طيبة لو أنها ثابرت فقط. ففي خلال سنة واحدة أو سنتين كنت سأعدها لتتولى مركز مدبرة منزل في أحد البيوت الصغيرة. ولعلك تحسب ذلك بعيد الاحتمال يا سيد ستيفنز، ولكن انظر ماذا حققت معها في بضعة أشهر. والآن ضربت بكل هذا عرض الحائط. ولقاء لا شيء».

«هذه حماقة كبيرة منها بدون شك».

بدأت أجمع الأوراق التي أمامي وأنا أفكر بوضعها في الملف للرجوع إليها عند الحاجة. ولكني شعرت في أثناء قيامي بجمع الأوراق أنني لا أعرف تمامًا هل كانت الآنسة كنتون تريدني أن أحتفظ بها أم أنها كانت ترغب في الاحتفاظ بها شخصيًّا. فأعدت وضع الأوراق على المنضدة التي بيننا. غير أن الآنسة كنتون كانت في عالم آخر. قالت مرة أخرى:

«هذه الفتاة لا بد أن تخذل. يا للحماقة».

لكنني أجدني أضيع في هذه الذكريات القديمة. لم تكن هذه نيتي على الإطلاق، ولكن لعل هذا شيء مفيد إن كان قد جعلني أتحاشى في الأقل انغماسي بالتفكير بلا موجب بأحداث هذه الليلة - والتي أعتقد أنها أنهت نفسها بنفسها الآن. فالساعات القليلة الماضية كانت بصراحة ساعات مرهقة.

أنا أجد نفسي الآن في الغرفة العليَّة في هذا البويت العائد للسيد والسيدة تايلر. بعبارة أخرى إنه منزل خاص غير مفتوح للنزلاء؛ وهذه الغرفة التي تلطف هذان الزوجان بوضعها تحت تصرفي الليلة كانت تُشغَل فيما مضى من قِبَل ابنهما البكر، وقد شب عن الطوق منذ أمد ويعيش الآن في إكزيتَر. إنها غرفة تهيمن على سقفها المائل الجسور والعوارض الخشبية الغليظة، كما أن ألواح الأرضية الخشبية غير مغطاة بسجاد أو ما أشبه، ومع هذا فهي ذات طابع مريح للنفس على نحو غريب. ومن الواضح أن السيدة تايلر لم تقم فقط بفرش السرير لي بل قامت كذلك بترتيب المكان وتنظيفه؛ فباستثناء بعض بيوت العنكبوت قرب العوارض الخشبية في السقف، لم يكن هناك ما يدل على أن هذه الغرفة لم تكن مشغولة سنوات عديدة. أما بالنسبة للسيد والسيدة تايلر فقد علمت أنهما كانا يديران دكان البقالة في هذه القرية منذ العشرينات حتى تقاعدهما قبل ثلاث سنوات. إنهما في غاية اللطف، ومع أني عرضت عليهما أكثر من مرة مساء اليوم أن أدفع شيئًا لقاء ضيافتهما فلم يعيراني إلا أذنًا صماء.

أما أن أكون أنا الآن هنا، وأن أصبح وبكل معنى الكلمة تحت رحمة كرم السيد والسيدة تايلر في هذه الليلة، فيرجع إلى سهو بسيط بشكل مثير للأعصاب وأخرق ألا وهو أنني غفلت فتركت السيارة تفرغ من الوقود. وقد يقول قائل، بعد هذه المشكلة والتي سبقتها أمس لعدم ملء «الراديتر» بالماء، أن مثل هذه الفوضى العامة إنما هي شيء مزمن في طبيعتي. عساي أن أشير إلى أن السياقة مسافات طويلة هي شيء جديد عليَّ، وما أنا فيها إلا من

المستجَدِّين، لذا فمن المتوقع حدوث مثل هذا السهو البسيط وغيره. ولكن، عندما أتذكر أن التنظيم الحسن وبُعد النظر هما من الصفات التي في صميم مهنة المرء، فإني لا أستطيع أن أتحاشى الشعور بأنني قد خذلت نفسي.

ولكن الحقيقة هي أنني كنت منشغل البال كثيرًا خلال الساعة الأخيرة أو نحوها من السياقة قبل نفاد الوقود. كنت قد خططت أن أبيت الليلة في بلدة تافستوك التي وصلتها قبل الساعة الثامنة بقليل. بيد أنهم قالوا في النُّزُل الرئيس الكائن في البلدة إن الغرف كلها كانت مشغولة من جراء إقامة معرض زراعي محلي في البلدة. وقد اقترحوا عليَّ أمكنة متعددة أخرى، فقصدتها جميعًا وتلقيت الاعتذار نفسه في كل مكان منها. أخيرًا اقترحت عليَّ صاحبة أحد البيوت التي تستقبل المسافرين في طرف البلدة أن أتجه بالسيارة إلى مسافة أميال حتى أصل إلى نُزُل يقع على الطريق ويديره قريب لها - وأكدت لي أن لا بد في النُّزُل من وجود غرف غير مشغولة لأنه بعيد عن تافستوك فلا يؤدي المعرض إلى زحام فيه.

زودتني بتعليمات مفصلة عن كيفية الوصول إليه بدت لي واضحة في حينه، ولا أدري الآن على من يقع الخطأ في عدم عثوري على أي أثر لهذا النُّزُل الواقع على الطريق العام. وبدلًا من عثوري عليه وجدت نفسي بعد سياقة دامت خمس عشرة دقيقة أو نحوها في طريق طويل يتعرج في سبخة مفتوحة، منعزلة. ثمة مستنقعات على الجانبين والضباب يتكاثف أمامي. كنت أرى على يساري آخر توهُّجات المغيب. وأمامي هنا وهناك على أفق السماء أشباح العنابر والبيوت الريفية تبدو لي من بعيد، فتوحي بأنني تركت ورائي آثار المدينة وما يدل عليها.

أتذكر أنني استدرت بسيارة الفورد إلى الخلف في هذه المرحلة من الطريق وعدت أسير فيه إلى مسافة ما بحثًا عن استدارة كنت قد مررت بها سابقًا. ما إن وجدتها واستدرت حتى تبين لي أن الطريق الجديد أنكى من سابقه وأشد انعزالًا. كنت أسوق حينذاك في عتمة أقرب إلى الظلام بين الأسيجة العالية من النباتات المتسلقة، ثم اتضح لي أن الطريق أخذ يتجه صعدًا إلى ارتفاع سامق. كنت عندئذ قد يئست من العثور على النُّزُل الواقع على الطريق العام وقررت أن أواصل السياقة حتى أصل البلد التالي أو القرية التالية فألبث فيها. كنت أرى أن من السهل عليَّ أن أستأنف طريقي المرسوم فيما بعد عند الصباح الباكر. وإنه لفي هذه الأثناء وأنا في منتصف صعودي للهضبة أن بدأ محرك السيارة يتأتئ، فلاحظت لأول مرة أن الوقود قد نفد. واصلت الفورد صعودها إلى مسافة بضع ياردات أخرى ووقفت. وحين خرجت لتقييم الوضع الذي أنا فيه رأيت أن ما تبقى لي من عمر النهار لا يتجاوز دقائق معدودات. كنت أقف في طريق منحدر جدًّا محاط بالأشجار والنباتات المتسلقة؛ واستطعت أن أرى على ارتفاع غير قليل من الهضبة فتحة في سياج مزهر فيها بوابة واسعة من قضبان حديدية واضحة الخطوط إزاء السماء. بدأت

صعودي وفي ظني أنني أستطيع من موقع البوابة وما تشرف عليه أن أتبين اتجاهي؛ لعلي رجوت أن أرى بيتًا ريفيًّا قريبًا حيث أستطيع التماس مساعدة فورية. أما الذي رأته عيناي في نهاية المطاف فقد كان مما يثير الاضطراب في النفس بعض الشيء. فعلى الجانب الآخر من البوابة ينحدر حقل انحدارًا سحيقًا جدًّا بحيث يختفي عن الأنظار على مسافة عشرين ياردة أو نحوها فقط أمامي. وإلى ما وراء ذلك - على بعد ميل أو نحوه إذا كانت المسافة بخط مستقيم - ثمة قرية صغيرة. استطعت أن أتبين من خلال الضباب برجًا للكنيسة ومن حوله سقوف متجاورة بألواحها الحجرية القاتمة؛ ومن هنا وهناك تتصاعد نفثات من دخان أبيض من المداخن. لا بد للمرء أن يقر أن شعورًا معينًا بالتثبيط قد استبد به في تلك اللحظة. على أن الحالة لم تكن، بالطبع، ميؤوسًا منها بأية حال من الأحوال؛ فالسيارة لم تُصب بضرر، وما أمرها إلا نفاد الوقود فيها. إن نزولي إلى القرية مشيًا يمكن أن يتم بنصف ساعة أو نحو ذلك، وهناك سأتمكن بالتأكيد من العثور على مبيت وعلى صفيحة بنزين. مع هذا لم يكن شعوري رائقًا وأنا أقف هناك على هضبة منعزلة أنظر من تلك البوابة إلى الأضواء التي تومض من قرية بعيدة، وضوء النهار يوشك أن يزول كليًّا والضباب يشتد كثافة باستمرار.

بيد أنني لا أجني شيئًا من الجزع. وعلى أية حال كان من الحماقة أن أبدد الدقائق القليلة الباقية من ضياء النهار. نزلت ماشيًا إلى السيارة ورزمت حقيبة صغيرة وضعت فيها بعض الحاجات الضرورية. ثم عدت مسلحًا بمصباح يدوي، وهو يلقي شعاعًا جيدًا بشكل مدهش، وأخذت أبحث عن درب أستطيع به أن أنزل إلى القرية. ولكن لم أجد دربًا كهذا مع أنني صعدت الهضبة إلى مسافة ما بعيدًا عن البوابة. عندئذ، وحين أحسست بأن الطريق لم يعد يتجه صاعدًا بل أخذ ينعطف شيئًا فشيئًا وينزل باتجاه مغاير لاتجاه القرية - وكنت أرمق أضواءها بين حين وحين من خلال الشجر الملتف - فإن شعورًا بالتثبيط استبد بي مرة أخرى. والواقع أنني تساءلت لحظة؛ أليس من الأجدى لي أن أعود القهقري إلى السيارة فأجلس فيها إلى أن تمر بي سيارة أخرى. بيد أن الليل قد أوشك آنئذٍ أن يجن، وأدركت لو أنني حاولت مناداة مركبة مستطرقة في هذه الظروف لظن من فيها بي الظنون وحسبني من قطاع الطرق أو ما أشبه. مع العلم أن سيارة واحدة لم تمر منذ ترجلي من الفورد؛ والواقع أنني لا أتذكر مرور مركبة أخرى على الإطلاق منذ مغادرتي تافستوك. لذا قررت أن أرجع إلى البوابة، ومن هناك أنزل ماشيًا على خط مستقيم جهد الإمكان نحو أضواء القرية بصرف النظر عن وجود درب بمعنى الكلمة أو عدمه.

لم يكن النزول، في نهاية الأمر شاقًّا جدًّا. وجدت سلسلة من المراعي يتصل بعضها ببعض وتمتد إلى القرية، فإذا سار المرء عند نزوله بمحاذاة الحدود لكل مرعى فسيضمن لنفسه سيرًا حسنًا. لم أواجه، وأنا قريب جدًّا من القرية، صعوبةٍ في تلمس طريقي للعبور إلى المرعى التالي إلا مرة واحدة، فكان

عليَّ أن أضيء مصباحي اليدوي وأرسل شعاعه هنا وهناك على النباتات المتسلقة التي تعيقني. أخيرًا اكتشفت فجوة صغيرة فباشرت أحشر شخصي فيها لكي أمر من خلالها، ولم يتم لي ذلك إلا على حساب ما أصاب كتف سترتي وقلبة سروالي من ضرر. ثم غدت المراعي القليلة المتبقية موحلة بالطين بشكل متزايد فأحجمت عامدًا عن تسليط مصباحي على حذائي وقلبة سروالي حذر التثبيط من جديد.

وبعد التي واللتيَّا عثرت على درب معبَّد ينزل إلى القرية، وصادف في أثناء نزولي في هذا الدرب أن التقيت السيد تايلر، مضيفي في هذه الليلة. برز من منعطف على مسافة بضع ياردات مني فانتظر هناك متلطفًا لكي ألحق به، عندئذ حيَّاني واستفسر مني يعرض المساعدة. شرحت له موقفي بأدق ما أستطيع من إيجاز، وأضفت أنني سأكون شاكرًا كل الشكر لو أرشدني إلى نُزُل جيد. فهز السيد تايلر رأسه وقال: «لا أحسب أن في قريتنا نُزُلًا كهذا يا سيدي، والسيد جون همفريز يستقبل في العادة مسافرين في «كروسد كيز»، ولكنه الآن يقوم بتعمير سقف مكانه». ولكن، وقبل أن يأخذ هذا النبأ المؤسف أثره في نفسي قال السيد تايلر: «إذا كنت لا تبالي بشيء من الشدة يا سيدي فبوسعنا أن نعرض لك غرفة وسريرًا لتبيت الليلة. الغرفة ليست فاخرة، ولكن زوجتي ستتولى أمرها ليكون كل شيء نظيفًا ومريحًا بشكل عام».

أعتقد أنني تفوهت ببعض الكلمات، ربما من دون حماس، بما معناه أنني لا أستطيع أن أثقل عليهم وأسلبهم راحتهم إلى هذا الحد. فأجابني السيد تايلر يقول: «صدقني يا سيد سيحصل لنا الشرف إذا نزلت عندنا. فقليلًا ما نحصل على أمثالك يمرون بموسكوم. والحقيقة يا سيدي لا أدري إلى أين يمكنك أن تذهب في هذه الساعة. ثم إن زوجتي لن تغفر لي لو تركتك طعمة لهذا الليل البهيم».

وهكذا وافقت على قبول ضيافة السيد والسيدة تايلر. غير أني حين قلت سابقًا إن أحداث هذه الأمسية كانت «مرهقة» لم أكن أشير فقط إلى الإحباط الذي نجم عن نفاد الوقود، وعن اضطراري إلى ذلك المشي العسير الوعر نزولًا إلى القرية. فالذي حدث فيما بعد - الذي تكشف حالما جلست إلى العشاء مع السيد والسيدة تايلر وجيرانهما - كان بذاته أشد إرهاقًا وأكثر ضغطًا عليَّ من المتاعب الجسدية التي واجهتها قبل ذلك. وأؤكد لك أنني لم أشعر بالراحة النفسية إلا بعد أن تمكنت أخيرًا من الصعود إلى هذه الغرفة وقضاء بعض الوقت وأنا أقلِّب في ذهني هذه الذكريات عن قصر دارلنغتون والتي حدثت منذ سنين.

الحقيقة هي أنني صرت أميل ميلًا متزايدًا إلى الانغماس في مثل هذه الذكريات. ومنذ أن ظهر احتمال رؤيتي للآنسة كنتون مرة أخرى قبل أسابيع، صرت على ما أظن أميل إلى قضاء كثير من الوقت وأنا أتفكر بالسبب الذي حدا بعلاقتنا إلى أن تتغير. فلقد تغيرت علاقتنا فعلًا، زهاء ١٩٣٥ أو ١٩٣٦، بعد

سنين متعددة حققنا خلالها باطَراد تفاهمًا مهنيًّا رائعًا. والواقع أننا في النهاية تركنا حتى اللقاء الروتيني لتناول كوب الكاكاو في نهاية كل يوم. أما ما الذي سبَّب مثل هذا التغيير حقيقة، وما هي بالضبط سلسلة الحوادث التي كانت مسؤولة عنه حقيقة، فهو ما لم أستطع أن أتوصل إليه قَطُّ.

عندما أفكر بهذا الآن يبدو لي أن المحتمل أن تلك الحادثة الغريبة التي وقعت ذات مساء عندما دخلت حجرتي الآنسة كنتون من دون أن تُدعى إليها هي الحادثة التي كانت نقطة تحول حاسمة. أما لماذا جاءت إلى حجرتي فهو ما لا أستطيع تذكره على وجه اليقين. لديَّ إحساس بأنها ربما جاءت تحمل باقة من الأزهار «لكي تجعل المكان مشرقًا»، ولكن لعلي أخلط هذا بالمرة التي حاولت فيها الشيء ذاته قبل سنين من دخولها عليَّ، وذلك عند بداية تعارفنا. أنا أعلم علم اليقين أنها حاولت إدخال الأزهار إلى حجرتي في ثلاث مناسبات في الأقل على مدى السنين، ولكن لعلي أتصور خطأً أن جلبها للأزهار هو الذي جاء بها في تلك الأمسية بالذات. ومن المناسب أن أؤكد، على أية حال، أنه بالرغم من سنواتنا التي قضيناها في علاقات طيبة، فإنني لم أسمح قَطُّ للوضع بأن يتردى إلى حالة تكون فيها مدبرة المنزل داخلة إلى حجرتي وخارجة منها طوال النهار. إن حجرة رئيس الخدم، بقدر تعلق الأمر بي، هي مكتب مهم جدًّا، بمنزلة القلب من العمليات الجارية في المنزل، ولا تختلف عن المقر العام لقائد في معركة، ومن اللازم أن يكون كل شيء فيها منظمًا - وأن يبقى منظمًا - كما أريد الأشياء أن تكون بالضبط. أنا لم أكن قَطُّ ذلك النوع من رؤساء الخدم الذين يسمحون لشتى أشكال الناس أن يسرحوا ويمرحوا داخلين خارجين وهم يسألون عن هذا الشيء أو يدمدمون عن ذلك. ولئن أريد للعمليات أن تدار بشكل منسق ولطيف التنسيق، فمن الواضح بالتأكيد أن حجرة رئيس الخدم يجب أن تكون هي المكان بالذات الذي تُضمن فيه الخلوة إلى النفس والعزلة عن الغير.

حين دخلت الآنسة كنتون إلي حجرتي تلك الأمسية لم أكن في واقع الأمر منشغلًا في أمور مهنية. بعبارة أخرى كان الوقت في نهاية يوم من أيام أسبوع هادئ وكنت أنا أستمتع بساعة من ساعات الفراغ النادرة. وكما قلت لست متأكدًا إن كانت الآنسة كنتون قد دخلت تحمل باقتها من الأزهار، ولكني متأكد من أنها قالت:

«يا سيد ستيفنز، إن غرفتك هذه تبدو في الليل أقل لياقة للإشغال منها في النهار. وهذا المصباح الكهربائي معتم جدًّا وأقل ضياء بالتأكيد مما يصلح لقراءتك عليه».

«إنه يفي بالغرض تمامًا، فشكرًا يا آنسة كنتون».

«ولكن، هذه الغرفة تشبه يا سيد ستيفنز زنزانة في سجن. كل ما نحتاج إليه هو سرير صغير في الزاوية لكي نتخيل عددًا من المحكومين بالإعدام يقضون

هنا ساعاتهم الأخيرة».
لعلي قلت شيئًا جوابًا عن هذا، لا أدري. على أية حال لم أرفع عينيَّ عن كتابي، فمضت بضع لحظات أنتظر فيها أن تستأذن الآنسة كنتون بالخروج. ولكني سمعتها عندئذ تقول:
«ما هذا الذي تقرأه يا تُرى؟».
«مجرد كتاب».
«أنا أرى ذلك يا سيد ستيفنز - ولكن من أي نوع يا تُرى؟ هذا ما يثير اهتمامي».
رفعت نظري لأرى الآنسة كنتون تتقدم نحوي. أغلقت الكتاب، وقمت وأنا أمسك به وأصره إلى صدري صرًّا.
قلت: «لا، يا آنسة كنتون، لا. وأطلب منك أن تحترمي خلوتي إلى نفسي».
«ولكن لماذا أراك خجولًا جدًّا من كتابك يا سيد ستيفنز؟ يُخيل لي أن فيه شيئًا خليعًا».
«ليس هناك مجال بحث، يا آنسة كنتون، في وجود أي شيء «خليع»، على حد تعبيرك، في الكتب هنا على رفوف فخامة اللورد. وهذا لا جدال فيه».
«طالما سمعت أن بعض الكتب المحترمة تحتوي على فقرات هي من أشد ما يمكن من الخلاعة، ولو أنني لم أطَّلع عليها وليس عندي الشجاعة للبحث عنها. والآن أرجو أن تسمح لي يا سيد ستيفنز أن أرى هذا الذي تقرأه».
«يا آنسة كنتون، لا بد لي أن أطلب منك أن تتركيني وشأني. هذا شيء لا يطاق أن تصري على ملاحقتي هكذا في أوقات فراغي القليلة».
ولكن الآنسة كنتون واصلت تقدمها نحوي ولا بد لي أن أقول صعب عليَّ أن أقدر ما هو أفضل السبل لتصرفي تجاهها. ساورتني نفسي أن أرمي الكتاب في درج منضدتي وأغلق عليه، فبدا لي هذا عملًا دراميًّا سخيفًا. تراجعت إلى الوراء بضع خطوات وأنا لا أزال أمسك بالكتاب أشده إلى صدري.
قالت الآنسة كنتون وهي تستمر بتقدمها: «أرجوك يا سيد ستيفنز، أرني هذا الكتاب وسأتركك لتعود إلى متعة قراءتك. أسألك بالله ما هذا الذي تحرص على إخفائه كل هذا الحرص؟».
«يا آنسة كنتون، سواء اكتشفتِ عنوان هذا الكتاب أم لم تكتشفيه، فهذا شيء ليست له بذاته أية أهمية لي. ولكني أعترض من ناحية المبدأ على مجيئك إلى هنا هكذا وانتهاك حرمة حياتي الخاصة».
«لا أدري هل هو من الكتب المحترمة أم أنك في الواقع تريد أن تحميني من تأثيره الفاضح؟».
كانت هي آنئذ تقف أمامي، وفجأة طرأ على وضعنا تغيير من نوع خاص - كأن كلًّا منا قد قُذف بغتة إلى مستوى آخر من الوجود يختلف كل الاختلاف. ولا أظن أن من السهل أن أصف بوضوح ما أعنيه هنا. كل ما أستطيع أن أقوله هو أن كل شيء حولنا سكِن عليِ حين غرة سكونًا تامًّا؛ وكان شعوري أن تصرف

الآنسة كنتون قد طرأ عليه أيضًا تغير مفاجئ؛ ثمة جدية غريبة سرت في ملامحها وحسبت أنها كانت جازعة.
«أرجوك يا سيد ستيفنز، دعني أرَ كتابك».
مدت يديها وبدأت تفك الكتاب من قبضتي برقة. قدرت أن أفضل ما أفعله هو أن أنظر بعيدًا وهي تقوم بما تقوم به، ولكنها كانت تقف قريبة جدًّا مني، فلا أستطيع أن أنظر بعيدًا إلا إذا أدرت رأسي إلى زاوية غير طبيعية بعض الشيء. واستمرت هي تنزع الكتاب عن قبضتي بغاية الرقة، إصبعًا فإصبعًا. بدا لي كأن هذه العملية قد استغرقت وقتًا طويلًا جدًّا - وقد حافظت خلاله على وضعي مديرًا رأسي - إلى أن سمعتها أخيرًا تقول:
«يا للعجب يا سيد ستيفنز، فهذا ليس من الكتب الفاضحة أبدًا. ما هو إلا قصة حب عاطفية».
أعتقد أنني قررت لحظتئذٍ ألا داعي لمزيد من التحمُّل. لا أتذكر ما قلته بالضبط ولكنني أتذكر أنني شيعت الآنسة كنتون إلى خارج حجرتي بشكل حازم تمامًا، وهكذا بلغت المسألة نهايتها.
أظن أن عليَّ أن أضيف بضع كلمات هنا بشأن المسألة الخاصة بالكتاب ذاته الذي دارت حوله هذه الواقعة البسيطة. كان الكتاب فعلًا مما يمكن أن يُسمى «قصة غرام وجدانية» - وهو واحد من عدد من الكتب الموجودة في مكتبة القصر، التي توضع كذلك في غرف النوم المخصصة للضيوف وذلك لتسلية السيدات من الزائرات. ثمة سبب بسيط دعاني أن أتتبع مثل هذه المؤلفات؛ فهي طريقة ناجحة جدًّا لتطوير تمكن المرء من اللغة الإنجليزية. وأنا أرى - ولا أدري إن كنت ستتفق معي - أنه كان، بقدر ما يتعلق الأمر بجيلنا، ثمة تشديد يفوق الحد على أن من المرغوب فيه مهنيًّا التمتع بلكنة جيدة والتمكن من اللغة؛ بعبارة أخرى جرى التشديد أحيانًا على هذه العناصر على حساب الصفات المهنية الأكثر أهمية. مع هذا لم يكن موقفي قَطُّ أن اللكنة الجيدة والتمكن من اللغة هما ليسا من الصفات الجذابة، وكنت أرى على الدوام أن من واجبي تطويرهما على خير ما أستطيع. ومن الوسائل المباشرة للقيام بذلك أن يقرأ المرء بضع صفحات من كتاب مكتوب بصورة جيدة خلال لحظات الفراغ المتفرقة التي قد تتيسر له. كانت هذه سياستي منذ سنوات، وأنا أميل في الغالب إلى اختيار هذا النوع من الكتب الذي وجدتني الآنسة كنتون أقرأه في تلك الأمسية، وذلك لأن مثل هذه المؤلفات تكون مكتوبة عادة بإنجليزية جيدة مع الكثير من الحوار الرفيع المتأنق الذي له قيمة عملية كبيرة بالنسبة لي. أما الكتاب الأثقل وزنًا، كأن يكون من كتب الدراسة العلمية، فإنه وإن كانت فائدته أعم ينحو إلى التعبير بمصطلحات محدودة الاستعمال في كلامي مع السيدات والسادة من زوار القصر.
ونادرًا ما كان يتوفر لديَّ الوقت أو الرغبة في قراءة هذه الروايات الغرامية من البداية إلى النهاية، لأنها كانت تدور، على قدر ما أستطيع أن أعرف، حول

عقدة سخيفة - لا بل عاطفية رخوة - وما كنت سأبدد لحظة واحدة من وقتي عليها لولا الفوائد التي ذكرتها. بيد أنني، وقد قلت ما قلت، لا أدري ما يمنعني من الاعتراف اليوم - ولا أجد في ذلك ما يخجل على الإطلاق - أنني كنت أحيانًا أجني نوعًا من المتعة العرضية من تلك القصص. لعلي لم أقر بذلك لنفسي في ذلك الوقت، ولكن ما المخجل في الأمر كما قلت؟ لماذا لا يستمتع المرء بنوع من الجذل بقصص السيدات والسادة الذين يتيِّمهم الحب ويعبرون عن مشاعرهم بعضهم تجاه بعض، بعبارات هي في الغالب رفيعة المستوى ومتأنقة جدًّا؟

ولكني حين أقول هذا فأنا لا أعني الإيحاء بأن الموقف الذي اتخذته عن مسألة الكتاب تلك الليلة كان موقفًا لا داعي له إلى حدٍّ ما. فأنت لا بد أن تفهم أن هناك مبدأً مهمًّا في القضية. كنت أنا في واقع الأمر «خارج نطاق العمل» في اللحظة التي جاءت فيها الآنسة كنتون واقتحمت حجرتي. وبالطبع فإن أي رئيس للخدم ينظر إلى حرفته بفخر، أي رئيس للخدم يطمح إلى «وقار يتفق مع مركزه» على حد تعبير جمعية هايز ذات مرة، ينبغي ألا يتيح لنفسه أبدًا أن يكون «خارج نطاق العمل» وهو في حضرة آخرين. وسواء كان الداخل عليَّ في تلك اللحظة هو الآنسة كنتون أو غريبًا لا أعرفه على الإطلاق فإن هذا لا علاقة له بالأمر. إن رئيس الخدم من أية نوعية كانت، يجب أن يُرى «متلبسًا» بدوره، بشكل كامل مطلق؛ فلا يجوز له أن يطرح دوره جانبًا في هذه اللحظة وأن يتقمصه في اللحظة التالية، كان هذا الدور ما هو إلا كسوة تُرتدى في مسرحية إيمائية. هناك حالة واحدة وواحدة فقط يُترك فيها لرئيس الخدم الذي يهمه الوقار أن يلقي عن عاتقه عبء الدور المترتب عليه؛ وهذه الحالة هي حين يكون بمفرده تمامًا. أنت ستقدر إذن أنه حين تقحمت الآنسة كنتون حجرتي في وقت كنت أفترض فيه، وما افتراضي هذا على أساس غير معقول، أنني سأكون بمفردي، فقد صار الأمر مسألة مبدأ أساسية، بل مسألة وقار، فكان لا بد ألا أظهر إلا بمظهر دوري الكامل والصحيح.

بيد أنه لم يكن في نيتي أن أحلِّل هنا الجوانب المختلفة لهذه الواقعة الصغيرة التي حدثت قبل سنين. أما النقطة الأساسية بشأنها فهي أنها نبهتني إلى حقيقة بعينها هي أن الأمور بيني وبين الآنسة كنتون قد وصلت إلى مستوى لا يليق بي - وهذا بلا شك نتج عن عملية تدريجية استغرقت شهورًا متعددة. فأن تستطيع هي أن تتصرف بالشكل الذي تصرفت فيه ذلك المساء لهو شيء ينذر بالخطر، لذا فبعد أن شيعتها إلى خارج حجرتي، وسنحت لي الفرصة لجمع شتات أفكاري قليلًا، قررت على ما أذكر أن أحزم أمري وأبدأ بإعادة تأسيس علاقتنا المهنية على أساس أصح وأسلم. أما إلى أي مدى أسهمت تلك الحادثة في ما مرت به علاقتنا من تغييرات كبيرة فيما بعد، فيصعب عليَّ جدًّا أن أقرره الآن. لعل هناك تطورات أخرى أكثر خطورة كانت

مسؤولة عما حدث. وعلى سبيل المثال مسألة يوم الإجازة الأسبوعية للآنسة كنتون.
منذ وصول الآنسة كنتون إلى قصر دارلنغتون لأول مرة إلى حين شهر أو نحوه قبل تلك الحادثة في حجرتي وهي تتبع نمطًا معروفًا مستقرًّا في الغياب. كانت تتمتع مرة في كل ستة أسابيع بإجازة لمدة يومين لزيارة عمتها في ساوثمبتون؛ وفيما عدا ذلك كانت تحذو حذوي، فهي لا تتمتع بإجازات بالمعنى الحرفي للكلمة إلا إذا كنا نمر في القصر بوقت هادئ تمامًا، وفي هذه الحالة قد تقضي نهارًا تتجول في حدائق القصر وتقوم بشيء من القراءة في غرفتها. ولكن تغير هذا النمط كما قلت. بدأت على حين غرة تتمتع بإجازاتها كاملة حسب نصوص العقد معها، فتغيب عن البيت بصورة منتظمة منذ الصباح الباكر من دون أن تترك خبرًا سوى الساعة التي تتوقع فيها العودة ليلًا. إنها بالطبع لم تغب قطُّ وقتًا يزيد عن استحقاقها، لذا شعرت أن من غير اللائق أن أتقصى مزيدًا من أخبار خروجها. ولكن هذا التغيير أقلقني على ما أظن بعض الشيء، ذلك أني أتذكر إشارتي إليه في حديث مع السيد غراهام، رئيس الخدم والخادم الخاص للسير جيمز تشيمبرز - زميلي الطيب والظاهر، بالمناسبة، أنني فقدت الصلة به الآن - وكانت إشارتي عند جلوسنا نتحدث أمام نيران الموقد ذات ليلة خلال زيارة من زياراته المنتظمة إلى قصر دارلنغتون.
والواقع أن كل الذي قلته لا يتعدى أن مدبرة المنزل كانت «متقلبة المزاج بعض الشيء مؤخرًا»، ولذا دهشت قليلًا حين هز السيد غراهام رأسه وانحنى إلى الأمام وقال قولة العارف ببواطن الأمور: «كنت أتساءل إلى متى؟».
وحين سألته عما يعنيه مضى يقول: «هذه الآنسة كنتون عندكم. أعتقد أنها الآن كم؟ ثلاث وثلاثون؟ أربع وثلاثون؟ خسرت أحسن سنوات أمومتها ولكن لا يزال أمامها متسع من الوقت».
فطمأنته قائلًا: «إن الآنسة كنتون امرأة محترمة مكرسة لمهنتها. وأنا أعرف يقينًا أنها لا ترغب في تكوين أسرة أبدًا». ولكن السيد غراهام ابتسم وهز رأسه وهو يقول:
«لا تصدق البتة بما تقوله أية مدبرة منزل تقول لك إنها لا تريد أسرة. وأعتقد أننا نستطيع يا سيد ستيفنز، أنت وأنا، أن نجلس هنا ونحصي فيما بيننا ما لا يقل عن عشرين قلن هكذا فيما مضى ثم تزوجن وتركن المهنة».
أتذكَّر أنني رفضت نظرية السيد غراهام بشيء من الثقة في تلك الليلة، أما فيما بعد فيجب أن أقر أنني وجدت من الصعب أن أطرد عن فكري إمكانية مفادها أن الغرض من ذلك الخروج الأسبوعي الغامض هو أن تلتقي الآنسة كنتون شخصًا يخطب ودها. كانت هذه خاطرة مقلقة حقًّا، إذ لم يكن من الصعب عليَّ أن أرى أن مغادرة الآنسة كنتون خسارة مهنية كبيرة، خسارة سيواجه قصر دارلنغتون بعض الصعوبة في معالجة آثارها. يضاف إلى هذا أنني لم يكن لي بد من تشخيص علامات صغيرة أخرى معينة من شأنها أن تؤيد

نظرية السيد غراهام. مثلًا، إن من واجباتي جمع البريد، فلم أستطع إلا أن ألاحظ أن الآنسة كنتون أخذت تتسلَّم الرسائل على أساس منتظم تقريبًا - مرة في الأسبوع أو نحو ذلك - من المرسل ذاته، وكانت تلك الرسائل تحمل دمغة البريد المحلي. ولعل من الواجب أن أشير هنا إلى أنه كان من المستحيل عليَّ كل الاستحالة ألا ألاحظ مثل هذه الأمور، لا سيما أن الآنسة كنتون لم تتسلَّم إلا رسائل معدودة قليلة جدًّا طوال سنواتها الماضية كلها في القصر.

ثم كانت هناك علامات أخرى أكثر غموضًا تدعم رأي السيد غراهام. مثلًا على الرغم من أن الآنسة كنتون استمرت تؤدي واجباتها المهنية بالإتقان المعتاد منها، كان مزاجها العام يتعرض لنوع من التذبذب لم أعهده فيها قَطُّ سابقًا. والواقع أن المرات التي كانت تغدو فيها مرحة جدًّا أيامًا متواصلة - دونما سبب ملحوظ - كانت تقلقني بقدر ما تقلقني نوباتها المفاجئة من النكد. وغالبًا ما كانت هذه نوبات طويلة الأمد. وكما قلت ظلت طوال الوقت تحافظ على أدائها المهني محافظة مطلقة ولكن كان من واجبي أن أفكر بمصلحة المنزل في المدى الطويل، ولئن كانت هذه العلامات تنحو إلى تأييد فكرة السيد غراهام بأن الآنسة كنتون إنما تفكر بالمغادرة لأغراض غرامية، فإن من مسؤوليتي بشكل واضح أن أنقب في المسألة كثيرًا. لذا بادرت إلى سؤالها ذات مساء خلال لقاء من لقاءاتنا لتناول الكاكاو:

«هل ستخرجين مرة أخرى يوم الخميس يا آنسة كنتون؟ أعني في يوم إجازتك».

كنت أتوقع إلى حدٍّ ما أن سؤالي هذا سيغضبها، ولكنها على عكس ذلك كانت كأنها تنتظر فرصة لتثير الموضوع ذاته، ذلك أنها قالت بشيء من الارتياح:

«إنه يا سيد ستيفنز شخص عرفته فيما مضى حين كنت في «دارة غرانشستر». والواقع أنه كان رئيس الخدم هنالك في ذلك الوقت، ولكنه ترك الخدمة الآن نهائيًّا ويعمل حاليًّا في مصلحة من مصالح الأعمال قريبًا من هنا. وقد علم بطريقة من الطرق أنني موجودة في القصر فبدأ يكتب لي ويقترح أن نجدِّد تعارفنا. وهذه، يا سيد ستيفنز، الحكاية من أولها إلى آخرها».

«نعم، ولا شك أن من المنعش ترك البيت أحيانًا».

«أنا أجد ذلك منعشًا فعلًا».

سكتنا قليلًا. ثم ظهر على الآنسة كنتون كأنها تتخذ قرارًا ما فمضت تقول:

«بشأن هذا الرجل من معارفي. أتذكره حين كان رئيسًا للخدم في دارة غرانشستر، وهو مليء بأروع المطامح. بل أتصور أن حلمه الذي ما بعده حلم كان أن يصبح رئيسًا للخدم في قصر كهذا. ولكن حين أفكر الآن ببعض طرقه في العمل يأخذني العجب. نعم، يا سيد ستيفنز، فأنا لا أستطيع أن أتخيل وجهك لو كان لك أن تشاهد طرقه تلك. ولا غرابة أبدًا أن مطامحه لم تتحقق حتى الآن».

ضحكت ضحكة صغيرة وقلت: «حسب خبرتي هنالك كثيرون يرون في أنفسهم القدرة على العمل في هذه المستويات العليا من دون أن تكون لديهم أية فكرة عما في العمل من مطالب شاقة. هذا المركز لا يتناسب بالتأكيد مع من هب ودب».

«بالضبط. أما لو كنت رأيته في تلك الأيام يا سيد ستيفنز فحدِّث ولا حرج».

«إن المهنة في مستوياتها العليا لم تُخلق يا آنسة كنتون لكل من يريد. ومن السهل جدًّا أن يكون لدى المرء مطامح عظيمة، ولكن لا يمكن لرئيس الخدم أن يتقدم ما لم تتوفر فيه صفات معينة».

بدا على الآنسة كنتون أنها كانت تمعن التفكير في هذا الكلام لحظة، ثم قالت:

«خطر لي، يا سيد ستيفنز أنك لا بد أن تكون رجلًا أشبع رغباته كل الإشباع. فها أنت في الذروة من مهنتك، وكل الأمور التي بعهدتك تحت السيطرة التامة من كافة النواحي. فماذا ترغب في أكثر من هذا؟ لا أستطيع أنا أن أتصور أيَّ شيء أكثر من هذا».

لم أستطع أن أفكر بجواب فوري على كلامها. فساد بيننا صمت مربك بعض الشيء، حوَّلت الآنسة كنتون نظرها خلاله إلى أعماق كوب الكاكاو أمامها كأن شيئًا ما فيه ملك عليها حواسها كلها. أخيرًا قلت بعد شيء من التفكير:

«بقدر ما يتعلق الأمر بي شخصيًّا يا آنسة كنتون، فإن مهمتي لن تتم ما لم أكن قد فعلت كل ما أستطيعه إلى أن يُنجز فخامة اللورد ما وضع لنفسه من فروض عظيمة. وفي اليوم الذي يكون فيه عمل فخامة اللورد كاملًا، اليوم الذي يكون فيه هو ذاته قد شعر بأنه حقق ما أراد تحقيقه وأخذ يحس بالرضا، لأنه يعلم أنه قد قام بكل ما هو مطلوب منه، في ذلك اليوم وحده سأكون قادرًا على أن أقول عن نفسي إنني، على حد تعبيرك، رجل أشبع رغباته كل الإشباع».

لعلها حارت قليلًا وهي تسمع كلماتي؛ أو لعل الكلمات أغمتها لسبب ما. على أية حال، تغيَّر مزاجها في تلك اللحظة وفقد حديثنا طابعه الشخصي الذي اتخذه في البداية.

لم تمر فترة طويلة حتى انتهت هذه اللقاءات لتناول الكاكاو في غرفتها. إنني أتذكر بوضوح تام المرة الأخيرة التي التقينا فيها على ذلك النحو؛ كنت أرغب في أن أبحث مع الآنسة كنتون موضوع مناسبة قادمة ستقام في القصر - جماعة من الشخصيات البارزة في سكوتلندا ستحضر في عطلة نهاية أسبوع قريب. صحيح أن المناسبة لا تزال بعيدة مدة تناهز الشهر، ولكن كان من عادتنا دائمًا أن نتداول بشأن مثل هذه المناسبات قبل موعدها بكثير. في هذه الأمسيات بالذات كنت أبحث في جوانب المناسبة المختلفة فترة من الوقت، فأدركت أن الآنسة كنتون لا تسهم في الأمر إلا قليلًا؛ بل تجلى لي بعد قليل أن أفكارها كانتِ شاردة بعيدًا. كنِت أقولِ لها بين حين وحين: «هل أنت معي؟» لا

سيما عندما أسرد شيئًا مفصَّلًا، ومع أنها كانت تنتبه قليلًا كلما قلت ذلك فإنَّ انتباهها كان يتشتت خلال لحظات. وعندما مرت الدقائق وأنا أتكلم وهي لا تسهم إلا بقولها مثلًا: «بالطبع، يا سيد ستيفنز» أو «أتفق معك تمامًا، يا سيد ستيفنز»، قلت لها أخيرًا:

«أنا آسف يا آنسة كنتون، ولكني لا أرى موجبًا للاستمرار. يبدو أنك لا تقدرين أهمية هذه المباحثة».

قالت وهي تعتدل في جلستها قليلًا: «أنا آسفة يا سيد ستيفنز. كل ما هناك أنني متعبة هذا المساء».

«أنتِ متعبة بصورة متزايدة هذه الأيام. لم يكن هذا في العادة عذرًا تحتاجين إلى استخدامه».

ومما أثار دهشتي أن الآنسة كنتون أجابت على كلامي بانفجار مفاجئ:

«يا سيد ستيفنز، كان هذا الأسبوع شاقًّا مزدحمًا بالأعمال. وأنا متعبة جدًّا. بل كنت أتمنى أن أستلقي في سريري منذ الساعات الأخيرة. أنا متعبة جدًّا وإلى أقصى حد يا سيد ستيفنز، أفلا تستطيع أن تقدر ذلك؟».

أنا وإن لم أكن أتوقع اعتذارًا منها ولكن حدة جوابها فاجأتني قليلًا. بيد أنني قررت ألا أستدرج إلى مهاترة، فانتظرت لحظات قبل أن أقول بهدوء تام:

«إذا كان هذا هو شعورك يا آنسة كنتون فلا حاجة بنا أبدًا إلى أن نستمر في هذه اللقاءات المسائية. أنا آسف لأنني لم أعرف طوال هذه المدة أن اللقاءات كانت تسلب راحتك إلى حدٍّ كبير».

«يا سيد ستيفنز، أنا لم أقل سوى أنني متعبة الليلة...».

«لا، لا، فالأمر مفهوم تمامًا. أنت مشغولة جدًّا، وهذه اللقاءات تضيف أعباء غير ضرورية على عاتقك. هناك بدائل متعددة لاتصالنا على المستوى المهني من دون أن نلتقي على النحو السابق».

«يا سيد ستيفنز، هذا غير ضروري تمامًا. لم أقل سوى...».

«أنا أعني ما قلت. والواقع كنت أفكر منذ بعض الوقت أن نقطع هذه اللقاءات، لا سيما أنها تطيل كثيرًا من أيام عملنا الشاقة جدًّا. أما أننا التقينا هنا سنوات، فهذا بذاته ليس سببًا يمنع من إيجاد ترتيب أكثر إراحة من الآن فصاعدًا».

«أرجوك، يا سيد ستيفنز، فأنا أعتقد أن هذه اللقاءات مفيدة جدًّا...».

«ولكنها غير مريحة لك يا آنسة كنتون. إنها تتعبك. وأقترح من الآن فصاعدًا أن نتبادل المعلومات المهمة خلال النهار. وإذا لم يعثر أحدنا على الآخر بسهولة أقترح أن يترك كل منا قصاصة عند باب الآخر. يخيل لي أن هذا حل ممتاز. والآن أعتذر لك لإبقائك ساهرة مدة طويلة. شكرًا جزيلًا على الكاكاو».

كنت بطبيعة الحال - وليس هناك ما يدعو للمكابرة - أتساءل مع نفسي أحيانًا كيف كانت ستتطور الأمور في المدى الطويل لو لم أكن حازمًا كل الحزم بشأن قضية لقاءاتنا المسائية؛ بعبارة أخرى لو أني تساهلت في تلك

المناسبات المتعددة خلال الأسابيع التي تلت ما اقترحته الآنسة كنتون بأن نعود إلى اللقاءات. وأنا إنما أتكهن بشأن هذه المسألة الآن لأنه يمكن القول في ضوء ما حدث فيما بعد، أنني حين قررت إنهاء تلك اللقاءات المسائية على نحو قاطع، لم أكن على علم تام بكل ما ينطوي عليه قراري. بل يمكن القول إن هذا القرار البسيط أحدث نقطة تحول أساسية؛ وأن ذلك القرار وضع الأمور في مجرى لا مناص منه نحو ما حدث في نهاية المطاف.

ولكني أظن أن المرء ما إن يعيد النظر بما جرى ويفتش في ماضيه عما وقع من أمثال «نقاط التحول» هذه، حتى يجدها أمامه في كل مكان. ومن الممكن أن يُعتبر قراري بشأن لقاءاتنا المسائية، وكذلك تلك الواقعة في غرفتي إذا شئت، من «نقاط التحول» هذه. وللمرء أن يسأل ماذا كان سيحدث لو أنني تصرفت تصرفًا آخر في تلك الأمسية حين دخلت عليَّ الآنسة كنتون تحمل باقتها من الأزهار؟ هذا ويمكن كذلك أن نعدها نقطة تحول أخرى من نوع خاص مسألة مواجهتي للآنسة كنتون في قاعة الطعام - وصادف حدوثها في الوقت الذي وقعت فيه هذه الحوادث تقريبًا - وكانت بعد ظهر اليوم الذي تسلَّمتْ فيه نبأ وفاة عمتها.

كان نبأ الوفاة قد وصل قبل ساعات من تلك المواجهة. والواقع أنني أنا شخصيًّا كنت قد طرقت باب غرفتها ذلك الصباح لتسليمها الرسالة. دخلت إلى الغرفة فترة وجيزة لبحث أمر من أمور العمل، وأتذكَّر أننا كنا جالسين إلى منضدتها نتحدث في اللحظة التي فتحت الرسالة. خيَّم عليها السكون التام ولكنها ظلت رابطة الجأش، الأمر الذي يُسجَّل لصالحها، وهي تقرأ الرسالة كلها مرتين في الأقل. ثم وضعت الرسالة بعناية في مغلفها ونظرت عبر المنضدة إليَّ.

«إنها من السيدة جونسون، زميلة لعمتي. تقول إن عمتي توفيت أول أمس». توقفت لحظة ثم قالت: «الجنازة ستكون غدًا. فهل يمكنني أن أغيب فيه؟».

«يمكن ترتيب ذلك بالتأكيد، يا آنسة كنتون».

«شكرًا، يا سيد ستيفنز، وأرجو أن تعذرني إذا أردت أن أختلي إلى نفسي بعض الوقت».

«بالطبع».

خرجت من دون أن أفطن إلى أنني لم أقدم لها التعازي. بوسعي أن أتصور صدمة النبأ عليها، فعمتها كانت بمثابة الأم لها من النواحي كافة؛ توقفت في الممر أسائل نفسي هل أعود وأطرق الباب وأعالج السهو الذي وقعت فيه؟ ولكن خطر لي أنني إذا فعلت ذلك فسأكون قد تطفلت عليها في خلوتها ساعة الحزن. بل تصورت أن من المحتمل جدًّا أن تكون الآنسة كنتون، في تلك اللحظة ذاتها وعلى مسافة بضع أقدام مني، في نوبة بكاء. أثارت فيَّ هذه الفكرة شعورًا غريبًا فوقفت في الممر بعض الوقت.

ولكني في النهاية رأيت أن من الأفضل أن أنتظر فرصة أخرى للتعبير عن مواساتي فمضيت في سبيلي.
على أني لم أرها مرة أخرى حتى عصر ذلك اليوم حين صادفتها، كما قلت، في قاعة الطعام وهي تعيد بعض الأواني الخزفية إلى خزاناتها. كنت عندئذ قد انشغل بالي طويلًا بمسألة الحزن الذي أصاب الآنسة كنتون، وأنا أفكر بأفضل ما يمكنني أن أفعله أو أقوله للتخفيف عن كاهلها قليلًا. وحين سمعت خطواتها وهي تدخل قاعة الطعام، وكنت منشغلًا بعمل ما في الردهة، انتظرت هنيهة ثم تركت ما كنت فيه وتبعتها.
قلت: «أهلًا، يا آنسة كنتون. وكيف أنتِ الآن؟».
«بخير، شكرًا».
«كل شيء على ما يرام؟».
«على ما يرام تمامًا، وشكرًا».
«وكنت أريد أن أسألك هل تواجهين مشاكل معينة مع المستخدمين الجدد؟» ثم ضحكت ضحكة قصيرة وأضفت: «هناك صعوبات بسيطة مختلفة خليقة بأن تنشأ حين يصل هذا العدد الكبير من المستخدمين الجدد في الوقت نفسه. ولا بد أن أقول إن خير من فينا يمكنه أن ينتفع في الغالب من إجراء محادثة بسيطة حول العمل في مثل هذه الأوقات».
«شكرًا يا سيد ستيفنز، ولكن الفتاتين الجديدتين مرضيتان لي جدًّا».
«ألا ترين أن من الضروري إجراء بعض التغييرات في خطة عمل المستخدمين بالنظر لمجيء آخرين حديثًا؟».
«لا أظن أن ذلك ضروري. أما إذا غيَّرت رأيي في الموضوع فسأخبرك فورًا».
وعادت إلى ما كانت تقوم به في خزانات الآنية، فهممت أن أغادر قاعة الطعام. لا بل خطوت بضع خطوات ولكني استدرت نحوها مرة أخرى وقلت:
«تقولين، إذن، يا آنسة كنتون أن الخادمتين الجديدتين تعملان بشكل جيد».
«كلتاهما تعمل بشكل جيد جدًّا، وأؤكد لك ذلك».
«طيب، وجميل أن أسمع هذا». ضحكت ضحكة أخرى قصيرة وأضفت:
«أنا كنت أتساءل فقط، لأننا كنا اتفقنا أن كلتا الفتاتين لم تعمل سابقًا في منزل بهذا الحجم».
«نعم، فعلًا».
راقبتها تملأ إحدى الخزانات بالآنية وانتظرتها عسى أن تقول شيئًا آخر. وعندما اتضح لي بعد قليل أنها ستظل ساكتة قلت:
«في الواقع، يا آنسة كنتون، من واجبي أن أقول هذا. فقد لاحظت شيئًا أو شيئين دون المستوى مؤخرًا. وعسى أن تكوني أقل رضاء عن الفتاتين الجديدتين».
«وما الذي تعنيه بهذا يا سيد ستيفنز؟».

«فيما يتعلق بي، يا آنسة كنتون، أقوم أنا كلما جاء مستخدم جديد بالتأكد تمامًا من عمله. أدقق فيه، في المستخدم، من كل الجوانب وأحاول أن أقيس إلى أي مدى ينسجم، مع المستخدمين الآخرين. ومن المهم، على أية حال، تكوين فكرة واضحة عنهم من الناحية العملية ومن ناحية تأثيرهم في الآخرين. يؤسفني أن أقول هذا يا آنسة كنتون لكني أعتقد أنك كنت مهملة بعض الشيء في هذه النواحي».

بدا عليها التشوش ثانية واحدة. ثم استدارت نحوي والتوتر واضح على وجهها. قالت:

«ماذا تقصد من فضلك، يا سيد ستيفنز؟».

«مثلًا أواني الفخار. فمع أنها تُغسل أنظف غسل لاحظت أنها توضع على رفوف المطبخ بطريقة وإن ليست خطرة في الظاهر، فإنها مع الوقت ستؤدي إلى تكسير أكثر من اللازم».

«أصحيح، يا سيد ستيفنز؟».

«نعم، يا آنسة كنتون. فضلًا عن ذلك، أجد أن الشرفة الصغيرة أمام غرفة الإفطار لم تنظف منذ بعض الوقت. وأرجو أن تسمحي لي بأن أذكر بعض الأشياء الصغيرة الأخرى».

«لا داعي لذلك يا سيد ستيفنز. سوف أقوم بتدقيق عمل الخادمتين الجديدتين كما تقترح».

«لم أعهد فيك التغاضي عن أشياء واضحة كهذه يا آنسة كنتون».

أشاحت بنظرها عني، وبان على وجهها كأنها تحاول أن تحل لغزًا حيَّرها. لم يظهر عليها الانقباض بقدر ما ظهر عليها التعب. من ثم أغلقت خزانة الآنية وقالت: «اسمح لي، أرجوك، يا سيد ستيفنز».

وتركت القاعة.

ولكن ما الموجب في التكهن على الدوام عما كان ربما قد حدث، لو أن هذا الأمر أو ذاك قد تطور إلى شيء آخر يختلف عما تطور إليه فعلًا؟ إن هذا يمكن أن يقود المرء إلى حيرة مربكة. على أية حال، فبينما نجد أن من اليسير التحدث عن «نقاط التحول» ولكن تحديدها لا يمكن أن يتم إلا عند استقراء الماضي. إننا حين ننظر إلى مثل هذه الحالات الماضية اليوم فإنها، بطبيعة الحال، قد تتخذ مظهر ظروف حاسمة وعزيزة على النفس في حياتنا؛ أما في زمن حدوثها فإننا بالطبع لم نكن ننظر إليها هذه النظرة. كان الوضع بالنسبة لي وكأن تحت تصرفي عددًا لا ينتهي من الأيام والأشهر والسنوات أستطيع خلالها أن أعزل التقلبات التي تحدث في العلاقة مع الآنسة كنتون؛ كأن تحت تصرفي عددًا لا يُعد ولا يُحصى من الفرص الجديدة أستطيع بها أن أعالج سوء التفاهم هذا أو سوء التفاهم ذاك. لم يكن هناك بالتأكيد ما يشير في ذلك الوقت إلى أن مثل هذه الحوادث الصغيرة في ظاهرها ستصيِّر أحلامًا بأسرها أوهامًا غير قابلة للتحقيق أبدًا.

على أنني أجد أني أخذت أصبح انطوائيًّا بشكل مفرط وعلى نحو شديد الاكتئاب. لا شك أن هذا له علاقة بسهري إلى هذه الساعة المتأخرة، وبالأحداث المرهقة التي كان عليَّ أن أصبر عليها هذا المساء. ولا شك أيضًا أن مزاجي الحاضر ليس عديم الصلة بأنني غدًا - هذا إذا زودني المرآب المحلي بالوقود كما يؤكد لي السيد تايلر وزوجته - لا بد أن أصل إلى «ليتيل كومبتون» وقت الغداء وسأرى، على ما يُفترض، الآنسة كنتون مرة أخرى بعد هذه السنين الطويلة. ليس هنالك بالطبع من سبب على الإطلاق يدعو إلى الافتراض أن لقاءنا لن يكون وديًّا. والواقع أنني أتوقع أن مقابلتنا - فيما عدا بعض الكلمات الاعتيادية التي يصح تبادلها في مثل هذه الأحوال - ستكون بالدرجة الأولى مقابلة مهنية في طابعها. بعبارة أخرى سيكون من مسؤوليتي أن أعرف بصورة قاطعة هل لدى الآنسة كنتون أية رغبة - الآن وقد انتهى زواجها فيما يظهر إلى انفصال مما يدعو إلى الأسى وهي بلا بيت يؤويها - بالعودة إلى مركزها القديم في قصر دارلنغتون. ولعلي أقول هنا أيضًا إنني بعد أن أعدت قراءة رسالتها مجددًا الليلة أجدني ميالًا إلى الاعتقاد بأني ربما قرأت بين سطور معينة منها أكثر مما كانت عساها تعني القراءة الصائبة الحكيمة. ولكني لا أزال أرى أن هناك أكثر من تلميح واحد إلى اشتياق نابع من الحنين في أجزاء معينة من رسالتها، وخاصة حين تكتب شيئًا مثل قولها: «كنت مولعة بذلك المنظر من غرف النوم في الطابق الثاني المطلة على ساحة العشب الخضراء ومن ورائها السفوح المعشبة بادية في المدى».

ولكن وأقولها مرة أخرى، ما الغرض من التكهن الدائم بشأن رغبات الآنسة كنتون الحالية في حين أنني سأتمكن من معرفتها منها شخصيًّا غدًا؟ وعلى أية حال، أجدني قد استطردت بعيدًا جدًّا عن روايتي لأحداث هذا المساء. ودعني أقل إن الساعات القليلة الماضية كانت مرهقة لأعصابي بشكل غير معقول. إن الذي أعتقده هو أن ترك السيارة فوق تل منعزل، والنزول مشيًا إلى هذه القرية في العتمة على درب غير مطروق، يكفيان لسلب المرء راحته في أمسية واحدة. كما أن المضيفين المتلطفين، السيد والسيدة تايلر، ما كانا ليعرِّضاني بالتأكيد لما تعرضت له على علم منهما. والحقيقة هي أنني ما إن جلست إلى مائدتهما لتناول العشاء، وما إن جاء عدد من جيرانهما للزيارة، حتى بدأت سلسلة من الأحداث المزعجة جدًّا تترى من حولي.

إن الغرفة التي في الطابق الأسفل تقع في الواجهة من البويت وتُتخذ من قبل السيد والسيدة تايلر فيما يظهر مكانًا للجلوس وغيره معًا. وهي غرفة عائلية مريحة، وأهم ما فيها وما يشغل حيزًا كبيرًا منها منضدة ضخمة من خشب منجور على غير استواء من النوع الذي يشاهد عادة في مطابخ البيوت الريفية، أما سطحها فغير مدهون وعليه آثار صغيرة تركتها السكاكين من شتى الأنواع: سكاكين اللحم، سكاكين الخبز، وما أشبه. كنت أرى هذه الآثار بوضوح

على الرغم من أننا كنا نجلس في ضوء خافت أصفر من مصباح نفطي على رف في إحدى الزوايا.

حين شاهدني السيد تايلر ذكر لي وهو يشير برأسه إلى الفانوس قائلًا: «ليس هذا لأن الكهرباء لم تصل إلى هذه المنطقة، يا سيدي، ولكن شيئًا ما أصاب المقسِّم فانقطعت الكهرباء عنا منذ حوالي الشهرين حتى الآن. والحقيقة أننا لا نفقدها كثيرًا. هناك عدد من البيوت في القرية ليس فيها كهرباء على الإطلاق. فالنفط يعطي ضوءًا دافئًا».

قدمت لنا السيدة تايلر حساء جيدًا من مرق اللحم، وأكلنا معه خبزًا محمصًا، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن الأمسية تطوي في جوانحها شيئًا باستثناء ساعة أو نحو ذلك من الحديث اللطيف قبل أن آوي إلى فراشي. بيد أننا ما إن انتهينا من العشاء وأخذت السيدة تايلر تصب لي كأسًا من الجعة التي قطَّرها جار لهم حتى سمعنا خطوات تتقدم على حصى الدرب في الخارج. وسمعت فيها شخصيًّا وكأن شيئًا مشؤومًا يرن في وقع الأقدام وهي تقترب باستمرار في الظلام من بيت منعزل؛ ولكن كلا المضيفين لم يظهر عليه إحساس بتوقع خطر قادم. حتى إن السيد تايلر قال، بصوت ينم عن الاستطلاع فقط، هاتفًا: «مَنْ هذا؟».

قال هذا وكأنه يحدث نفسه، ولكننا سمعنا صوتًا يجيب من الخارج: «هذا جورج أندروز. صادف مروري من هنا». وما هي إلا لحظة حتى كانت السيدة تايلر تستقبل رجلًا مربوعًا لعله في الخمسينات من عمره، ويمكن القول استنتاجًا من ملبسه أنه قضى يومه منهمكًا في أعمال الزراعة. جلس على مقعد صغير واطئ قرب المدخل بطريقة من عدم الكلفة تنم عن كونه من الزوار المترددين على المكان وأخذ يخلع «جزمته» الطويلة بشيء من الجهد وهو يتبادل بعض الكلمات العرضية المعتادة مع السيدة تايلر. ثم تقدم نحو المنضدة ووقف وقفة الاستعداد العسكرية أمامي كأنه أتى برسالة إلى ضابط في الجيش.

قال: «اسمي أندروز، سيدي، طاب مساؤك. ويؤسفني ما سمعته عن العثرة التي صادفتك، ولكني أرجو ألا تكون متضايقًا جدًّا من قضاء ليلتك هنا في موسكوم».

حيرني كلامه قليلًا، فكيف عرف السيد أندروز هذا «بعثرتي» على حد تعبيره؟ على أية حال، أجبته مبتسمًا أنني لست متضايقًا على الإطلاق بل أشعر أني مدين جدًّا لما ألقاه من ضيافة. كنت بهذا أشير بالطبع إلى ألطاف السيد والسيدة تايلر، لكن السيد أندروز اعتقد فيما يبدو أنه مشمول بعرفاني للجميل، لأنه قال على الفور وهو يرفع يديه الضخمتين بإشارة الدفاع: «لا، لا، يا سيدي، أنت هنا على الرحب والسعة. ونحن مسرورون بك جدًّا. ففي الغالب لا يمر أمثالكم بنا هنا. ونحن مسرورون جميعًا غاية السرور لأنك توقفت عندنا».

كانت الطريقة التي قال بها هذا توحي بأن القرية بأسرها تعرف «بعثرتي» وما ترتب عليها من وصولي إلى هذا البويت. وقد اكتشفت فيما بعد أن هذا قريب جدًّا من الحقيقة؛ وفي تصوري أن السيد والسيدة تايلر قاما بنشر أخباري للرائحين والغادين في الدقائق التي كنت فيها في غرفة النوم هذه لغسل يديَّ والقيام بما أستطيع لتنظيف سترتي وقلبة سروالي وإزالة ما علق بهما من آثار. على أية حال، لم تمضِ إلا بضع دقائق على مجيء الزائر الأول حتى وصل زائر آخر، رجل يشبه في مظهره السيد أندروز - بمعنى أنه عريض المنكبين وعليه سمة المشتغلين بالزراعة، ويرتدي جزمة طويلة سارع إلى خلعها على شاكلة السيد أندروز نفسها، والحقيقة أن الشبه بينهما كان كبيرًا بحيث حسبتهما شقيقين، إلى أن قدَّم القادم الجديد نفسه إليَّ قائلًا: «مورغان، سيدي، تريفور مورغان». عبَّر السيد مورغان عن أسفه بشأن «بليَّتي» وأكد لي، أن كل شيء سيكون على ما يرام في الصباح، قبل أن يمضي إلى الترحيب بي في القرية. كنت قد سمعت أصلًا، بالطبع، كلامًا لطيفًا كهذا قبل لحظات، ولكن السيد مورغان أردف يقول ما نصه: «إنه لامتياز لنا أن يكون عندنا رجل مهذب من الذوات مثلكم، هنا في موسكوم، يا سيدي». وقبل أن يتاح لي الوقت لأفكر بجواب عن هذا الكلام سمعنا أصواتًا لمزيد من الخطوات على الدرب في الخارج. وفي الحال دخل علينا زوجان بمتوسط العمر فقُدِّما لي باسم السيد والسيدة هاري سميث. هذان لم يظهر عليهما أنهما من المزارعين على الإطلاق؛ كانت الزوجة امرأة ضخمة، وقورة، ذكرتني على نحو ما بالسيدة مورتيمر، الطاهية في قصر دارلنغتون في سنوات العشرينات والثلاثينات. أما السيد هاري سميث فكان على العكس رجلًا صغير الحجم وعلى وجهه ملامح شديدة تغضِّن جبينه. ما إن أخذا مكانيهما حول المنضدة حتى قال الرجل لي: «سيارتك، سيدي، لا بد أنها الفورد الكلاسيكية الواقفة على تلة «ثورنلي بوش»، أليس كذلك؟».

فأجبته قائلًا: «إذا كانت التلة هي التي تطل على هذه القرية. ولكنني أعجب أنك رأيتها».

«أنا لم أرها شخصيًّا يا سيدي، ولكن ديف ثورنتون مر بها وهو يسوق جرَّارته عائدًا إلى بيته قبل قليل. وقد اندهش لرؤيتها كثيرًا وقد وقفت هناك، حتى إنه توقف وترجَّل لينظر إليها». وهنا توجه السيد هاري سميث بكلامه إلى الآخرين الجالسين حول المنضدة، وقال: «أخبرني أنها بمنتهى الجمال. وقال إنه لم يرَ في حياته شبيهًا لها. وأنها تجعل من سيارة السيد لندزي التي دُرج على سياقتها شيئًا لا يذكر».

أثار كلامه ضحك الجالسين، فأوضح لي السيد تايلر الجالس بجانبي قائلًا: «المقصود هو أحد الذوات وكان يسكن في البيت الكبير قريبًا من هنا، سيدي. فعل بعض الأمور الغريبة ولم يكن مقدَّرًا في هذه المنطقة».

أثار هذا غمغمة عامة تنبئ بموافقة السامعين. ثم قال أحدهم: «صحتكم، سيدي» ورفع كأسه، وكانت السيدة تايلر قد فرغت لتوها من صب الجعة في كؤوس الجميع، فشربوا نخبي.

ابتسمت وقلت: «أؤكد لكم أن هذا شرف لي».

فقالت السيدة تايلر: «هذا لطف كبير منك يا سيدي. هذه هي الطريقة التي يتصرف بها الرجل المهذب الحقيقي. أما السيد لندزي ذاك فلم يكن من هذا القبيل. ربما كان عنده كثير من المال ولكنه لم يكن رجلًا مهذبًا قَطُّ».

وحصلت الموافقة من الجميع، مرة أخرى. ثم همست السيدة تايلر في أذن السيدة سميث، فأجابت هذه تقول: «قال إنه سيأتي حالما يستطيع». فاستدارت كلتاهما نحوي بشيء من الحرج، ثم قالت السيدة سميث: «أخبرنا الدكتور كارلايل أنك هنا يا سيدي. وهذا الطبيب سيكون مسرورًا جدًّا بالتعرُّف عليك».

فأضافت السيدة تايلر على سبيل الاعتذار قائلة: «أتوقع أنه مشغول ببعض المرضى. وأخشى ألا يتمكن من المجيء قبل أن تريدوا الصعود إلى غرفتكم يا سيدي».

هنا تدخَّل السيد هاري سميث، الرجل الصغير الجرم ذو الجبين المتغضن، فانحنى إلى الأمام وقال: «كان ذلك الرجل السيد لندزي شيئًا آخر، وتفكيره خطأ في خطأ. أما طريقة تصرفه فشيء آخر أيضًا. كان يظن أنه أحسن بكثير منا جميعًا، ويعتبرنا أغبياء. ولكن ثق يا سيدي أنه اكتشف سريعًا ما هو خلاف ذلك. في هذا المكان يجري الكثير من التفكير العميق والكلام العميق. وهناك غير قليل من الآراء المتشددة والناس لا يترددون في التعبير عنها. كان ذلك شيئًا فهمه صاحبكم السيد لندزي بسرعة».

قال السيد تايلر بهدوء: «لم يكن رجلًا مهذبًا. لا، لم يكن، السيد لندزي ذاك».

فعقب السيد هاري سميث يقول: «هذا صحيح، يا سيدي. يمكنك بمجرد رؤيته أن تحكم أنه لم يكن رجلًا مهذبًا. كان لديه بيت جميل وملابس جيدة. صحيح، ولكنك تعرف حقيقته في الحال بصورة من الصور. وقد عرفت حقيقته فعلًا في الوقت المناسب». غمغموا بالموافقة، وبدا لي أن جميع الحاضرين كانوا في تلك اللحظة يفكرون هل من المناسب أم من غير المناسب أن يفشوا لي سر الحكاية الخاصة بهذه الشخصية المحلية. عندئذ قطع السيد تايلر عليهم صمتهم بقوله: «صحيح، ما قاله هاري صحيح. فأنت تستطيع أن تميِّز بين الرجل المهذب الحقيقي وبين المزيف الذي ليس فيه من التهذيب إلا ما عليه من حلل قشيبة. خذ نفسك مثلًا يا سيدي. فالمسألة بالنسبة لك ليست مجرد الخياطة النفيسة لملابسك، ولا هي الطريقة البديعة التي تتحلى بها في النطق. ثمة شيء آخر يميزك عن الآخرين بصفتك رجلًا مهذبًا. من الصعب معرفة هذا الشيء وما هو بالضبط ولكن من الواضح لكل ذي عينين أن يرى ذلك».

أثار هذا الكلام مزيدًا من أصوات الموافقة بين الجالسين حول المنضدة. ثم بادرت السيدة تايلر تقول: «إن الدكتور كارلايل لن يتأخر كثيرًا يا سيدي. وسيسرك أن تتحدث معه».

فعقب السيد تايلر يقول: «الدكتور كارلايل يملك هذا الشيء أيضًا. نعم، إنه مهذب حقيقي».

هنا مال السيد مورغان إلى الأمام، ولم يكن قد قال شيئًا منذ مجيئه، فقال: «ما هذا الشيء برأيك يا سيدي؟ لعل الذي يملك الشيء يستطيع أن يخبرنا عنه أحسن من غيره. كلنا نتكلم عمن يملك هذا الشيء وعمن لا يملكه، ولكننا لا نعرف ماذا نتكلم عنه. فعسى أن تستطيع يا سيدي أن تنورنا قليلًا».

خيم الصمت على الجالسين وأحسست أن جميع الوجوه اتجهت نحوي. فتنحنحت وقلت: «من الصعب عليَّ، لأن الأمر قد لا يكون من شأني، أن أتكلم عن صفات قد أتصف بها أنا شخصيًّا وقد لا أتصف. ولكن، وبقدر ما يتعلق الأمر بهذه المسألة بالذات، فإنه يتراءى للمرء أن الصفة التي جرت الإشارة إليها يمكن تسميتها بصورة عملية جدًّا بأنها «الوقار»».

لم أجد ما يدعو إلى محاولة شرح كلامي هذا بمزيد من التوضيح. والحق أنني لم أنطق إلا بما جال في ذهني من أفكار وأنا أستمع إلى الحديث الجاري، ولا أظن أنني كنت سأقول شيئًا كهذا الذي قلته لولا أن الوضع قد استدعى ذلك فجأة. على أن كلامي أدى إلى كثير من الارتياح فيما يظهر.

قال السيد أندروز وهو يهز برأسه علامة الموافقة: «يوجد كثير من الحقيقة في ما قلت يا سيدي». وعبَّر آخرون أيضًا عن كلام من هذا القبيل.

وقالت السيدة تايلر: «كان ذلك السيد لندزي بالتأكيد يستطيع أن يستفيد من قليل من الوقار. ولكن المشكلة بالنسبة لأمثاله أنهم يتصورون التكبُّر وقارًا».

فبادر السيد هاري سميث يقول: «ولكن، حذارِ، يا سيدي، مع كل احترامي لما قلته. فالوقار بما فيه من كرامة واحترام للنفس ليس صفة يتحلى بها المهذبون فقط، الوقار بهذا المعنى هو شيء يمكن لكل رجل وامرأة في هذه البلاد أن يبذل الغالي والرخيص من أجله ويحصل عليه. أرجو أن تسمح لي يا سيدي، فكما قلت أنا سابقًا، نحن هنا لا نتمسك بالمجاملات عندما نريد التعبير عن آرائنا بصراحة. أما رأيي على علَّاته فهو أن الوقار والكرامة واحترام النفس ليست وقفًا على المهذبين».

أدركت من هذا الكلام، بالطبع، أنني في وادٍ والسيد هاري سميث في وادٍ آخر بالنسبة لهذه المسألة، وأنني سأجد مهمتي معقدة للغاية إذا انبريت إلى شرح ما أعنيه شرحًا أكثر وضوحًا لهؤلاء الناس. لذا رأيت أن من الأفضل أن أبتسم وأقول: «إنك بالطبع مصيب جدًّا».

كان لقولي هذا تأثيره الفوري في تبديد التوتر البسيط الذي سرى في الغرفة حين كان السيد هاري سميث يتكلم. كما أن السيد هاري سميث نفسه انطلق من عوائق الكبت كِلها فيما يبدو، لأنه مال بجسمه إلى الأمام واستمر

في الكلام يقول: «إننا من أجل هذا حاربنا هتلر، على كل حال. لو سارت الأمور كما كان هتلر يشتهي لكنَّا عبيدًا الآن، والعالم بأسره عبارة عن بضعة سادة وملايين الملايين من العبيد. ولست بحاجة إلى أن أذكِّر أحدًا منكم هنا: لا تكون عندك كرامة أو وقار إذا كنت عبدًا. من أجل هذا حاربنا، وهذا ما ربحناه. ربحنا الحق بأن نكون مواطنين أحرارًا. فمن الامتيازات التي من حقنا لأننا ولدنا إنجليزًا، وبصرف النظر عمن نكون، بصرف النظر عما إذا كنا أغنياء أم فقراء، فإننا ولدنا أحرارًا فنستطيع أن نعبِّر عن آرائنا بحرية تامة ونُدخل من يمثلنا إلى البرلمان ونُخرجه منه بأصواتنا. هذه هي الكرامة واحترام النفس والوقار، إذا سمحت لي يا سيدي».

قال السيد تايلر: «على مهلك يا هاري، كأنك تستعد لإلقاء خطاب من خطبك السياسية».

فضحك الجالسون. وابتسم السيد هاري سميث على استحياء، ولكنه مضى يقول: «أنا لم أكن أتكلم في السياسة. وإنما أتكلم فقط. هذا كل ما هناك. لا يمكن أن تكون عندك كرامة ووقار وما أشبه وأنت عبد. على أن كل إنجليزي يستطيع أن يدرك ذلك لو أراد، لأننا قاتلنا من أجل ذلك الحق».

فأعقبته زوجته تقول: «قد يبدو هذا المكان يا سيدي مكانًا صغيرًا، نائيًا. ولكننا أعطينا أكثر من نصيبنا في الحرب. أكثر من نصيبنا».

خيَّم الوجوم على المكان بعد أن قالت هذا، إلى أن قال السيد تايلر: «هاري هذا يساعد هنا عضو البرلمان الذي يمثل منطقتنا، ويقوم بأعمال التنظيم لصالحه. ما إن تعطيه شبه فرصة حتى يبدأ بالكلام عن كل ما هو خطأ في الطريقة التي تدار بها البلاد».

فقال هاري هذا: «حلمك عليَّ، فقد كنت أتكلم عما هو صحيح فيها هذه المرة».

هنا سألني السيد أندروز: «هل كان لكم شخصيًّا علاقة بالسياسة يا سيدي؟».

قلت: «ليس بصورة مباشرة، وليس بالمعنى الحرفي للكلمة ولا سيما في هذه الأيام، ربما قبل الحرب».

«الذي جعلني أسأل هو أنني أتذكر أحد أعضاء البرلمان، أظنه السيد ستيفنز بالاسم، وكان في المجلس قبل سنة أو سنتين. سمعته يتحدث في الإذاعة مرة أو مرتين وقال بعض الأمور المعقولة جدًّا عن الإسكان. ولا أظنه هو أنتم يا سيدي؟».

فقلت ضاحكًا: «لا، لست أنا». أما ما الذي جعلني أنطق بالجملة التالية فهو ما لا أحير جوابًا عنه؛ كل ما أستطيع قوله إن الظروف التي أحاطت بي أملتها عليَّ. فقد قلت بعد ذلك النفي: «أنا في الحقيقة أميل إلى الاهتمام بالشؤون الدولية أكثر من الشؤون المحلية. بعبارة أخرى، السياسة الخارجية».

دهشت قليلًا من الأثر الذي تركه كلامي هذا على المستمعين. فقد أطبقت عليهم المهابة وملكت عليهم روعهم. فأضفت على عجل قائلًا: «لكن أرجو أن

تنتبهوا أنني لم أتقلد أي مركز من المراكز العليا. إذا كنت قد مارست نفوذًا فقد كان ذلك بصفة غير رسمية تمامًا». ولكن الصمت المكبوت ظل باقيًا ثواني متعددة أخرى.

أخيرًا قالت السيدة تايلر: «عفوًا يا سيدي، ولكن أحب أن أسألكم هل قابلتم المستر تشرتشل يومًا ما؟».

«المستر تشرتشل؟ لقد جاء إلى المنزل في مناسبات غير قليلة. ولكن أقول بصراحة يا سيدة تايلر، إن المستر تشرتشل خلال الوقت الذي كنت منهمكًا فيه كل الانهماك بعظائم الأمور لم يكن ذلك الشخص الذي بيده مقاليد الأمور ولم يكن من المتوقع في الحقيقة أن يكون. كان السيد إيدن والسيد هاليفاكس وأمثالهما هم الزوار الذين يترددون علينا في تلك الأيام».

«فهل التقيتم المستر تشرتشل حقًّا يا سيدي؟ يا له من شرف عظيم».

فقال السيد هاري سميث: «أنا لا أتفق مع المستر تشرتشل في أمور كثيرة. ولكن مما لا شك فيه أنه رجل عظيم. ولا بد أن بحث الأمور مع أمثاله شيء مهم تمامًا».

قلت: «صحيح، ولكني أود أن أذكر أني لم أتعامل كثيرًا مع المستر تشرتشل. على أن مما يجلب الرضا للنفس، كما ذكرت وأنت مصيب في هذا، مخالطة ذلك الرجل. والواقع أني كنت محظوظًا جدًّا بشكل عام وأنا أول من يقر بهذا. كان من حسن حظي، على أية حال، أن أخالط لا المستر تشرتشل فقط بل أن أخالط عددًا آخر من كبار الزعماء ومن الشخصيات ذات النفوذ - من أمريكا ومن أوروبا. إنك حين تظن أنه كان من حسن حظي أنهم قد استمعوا لي حول عدد من القضايا الكبرى، نعم، فأنا حين أنظر إلى الوراء أشعر بنوع من العرفان بالجميل. إنه لشرف عظيم، على أية حال، أنني أعطيت دورًا لأقوم به على مسرح العالم مهما كان ذلك الدور صغيرًا».

قال السيد أندروز: «اسمحوا لي أن أسأل يا سيدي، أي نوع من الرجال كان السيد إيدن؟ وأعني على المستوى الشخصي كنت دائمًا أحسبه رجلًا طيبًا، من النوع الذي يتكلم مع الجميع، كبيرهم وصغيرهم. غنيهم وفقيرهم. هل أنا مصيب في هذا يا سيدي؟».

«هذه على العموم صورة صحيحة. ولكني بالطبع لم أر السيد إيدن في السنين الأخيرة. ولعل الضغوط قد غيَّرته كثيرًا. شيء واحد شهدته بنفسي وهو أن الحياة العامة يمكن أن تغيِّر الناس في بضع سنين تغييرًا تامًّا».

قال السيد أندروز: «أنا لا أشك بهذا يا سيدي. خذ حتى هاري هذا. فقد انشغل بالسياسة قبل سنوات قليلة ومنذ ذلك الحين لم يعد ذلك الرجل الذي نعرفه».

ضحكوا مرة أخرى، في حين هزَّ السيد هاري سميث كتفيه وأباح لابتسامة ما أن تظهر على وجهه. ثم قال: «صحيح أنني كرست الكثير من وقتي وجهدي في الحملة الانتخابية. وهذا على المستوى المحلي فقط، وأنا لا أقابل أي أحد هو عُشر معشار الذين تعاشرهم أنت يا سيدي. ولكن أعتقد أنني أقوم بدوري

على طريقتي الخاصة. وبما أن إنجلترا هي بلد ديمقراطي، ونحن في هذه القرية قد قاسينا كثيرًا كما قاسى غيرنا ونحن نكافح لكي نُبقي على البلاد هكذا. لذا فالأمر متروك لنا لكي نزاول حقوقنا، كلنا جميعًا. إن عددًا من خيرة شبابنا في هذه القرية ضحوا بحياتهم لإعطائنا هذا الامتياز. وكما أرى فإن كل واحد منا هنا مدين لهم الآن ليقوم بدوره. إن لدينا كلنا هنا آراء متشددة وصريحة، ومن واجبنا أن نعمل لكي نسمع هذه الآراء. صحيح، هذه قرية صغيرة، نائية، ونحن لا نصغر في العمر، والقرية تأخذ بالصغر. ولكني أرى أننا مدينون للفتيان الذين خسرناهم من أبناء هذه القرية. لهذا السبب يا سيدي أبذل الكثير من وقتي الآن لكي أطمئن إلى أن أصواتنا تُسمع في المراكز العليا. فإذا أدى جهدي هذا إلى تغييري، أو إلى قبري قبل الأوان، فأنا لا أبالي بذلك».

ابتسم السيد تايلر وقال: «لقد حذرتك يا سيدي من البداية. فلا مناص من هاري. إذ كلما مرَّ أحد الرجال المهذبين من الذوات المتنفذين في هذه القرية انبرى له وأمطره بوابل من كلامه القاسي».

ضحكوا مرة أخرى، ولكني قلت في الحال:

«أظن أنني أفهم وضعك كل الفهم يا سيد سميث. أستطيع أن أفهم جيدًا أنك ترغب في أن يكون العالم مكانًا أفضل للعيش أن تسنح لك ولإخوانك من المقيمين هنا فرصة للإسهام في صنع عالم أفضل. وهذا شعور جدير بالإطراء. ولا بد لي أن أقول إن هذا الشعور نفسه هو الذي حثني على أن أنهمك في الشؤون الكبرى قبل الحرب. فالسلام كان ولا يزال شيئًا لا نفهمه إلا فهمًا سطحيًّا، وقد أردت أنا شخصيًّا أن أقوم بواجبي».

فأجابني السيد سميث قائلًا: «اسمح يا سيدي أن أقول إن النقطة التي أثرتها أنا تختلف قليلًا عن نقطتك. فقد كان من السهل دائمًا على أناس مثلك أن يمارسوا نفوذهم. أنتم يمكنكم أن تعتبروا أقوى الشخصيات في البلاد بمثابة أصدقاء. أما أمثالنا هنا يا سيدي فنحن لا نرى على مدار السنين شخصًا واحدًا فقط يمكن أن يُعتبر رجلًا مهذبًا حقًّا - اللهم إلا باستثناء الدكتور كارلايل. إنه طبيب من الدرجة الأولى، ولكن، مع احترامي له، فإنه ليست له صلات بالمعنى الذي أقصده. من السهل علينا هنا أن ننسى مسؤوليتنا بوصفنا مواطنين. لهذا السبب أعمل أنا شخصيًّا بكل جهدي في الحملة الانتخابية. سواء اتفق الناس معي أم لم يتفقوا - وأنا أعلم أنه لا يوجد نفر واحد في هذه الغرفة الآن يتفق معي بكل ما أقول - فأنا في الأقل أجعلهم يفكرون. في الأقل أذكِّرهم بواجبهم. هذا البلد الذي نعيش فيه بلد ديمقراطي. وقد قاتلنا من أجل ذلك. وعلينا أن نؤدي دورنا».

قالت زوجة المتكلم، السيدة سميث: «لا أدري ماذا حل بالدكتور كارلايل؛ فقد تفوت على هذا الرجل المهذب الفرصة للمشاركة في حديث المثقفين».

فأثار كلامها مزيدًا من الضحك.

قلت: «على الرغم من استمتاعي جدًّا بلقائي لكم جميعًا أخذت في الواقع أشعر بالإنهاك...».
فقالت السيدة تايلر: «بالطبع يا سيدي. لا بد أنك متعب جدًّا. هل آتيكم بغطاء إضافي؟ فالمناخ يزداد برودة في الليل هذه الأيام».
«شكرًا، فلا حاجة إلى ذلك يا سيدة تايلر، وسأكون في غاية الراحة».
ما إن هممت بالنهوض حتى قال السيد مورغان:
«كنت أتساءل يا سيدي، هل يا تُرى تعرفون شخصًا اسمه لزلي ماندريك؟ نحن نستمع إليه يتحدث في الإذاعة. هل صادف أن التقيتموه؟».
أجبت بالنفي وهممت بمحاولة أخرى للانسحاب والعودة إلى غرفتي، فإذا بأسئلة أخرى من هذا القبيل تُوجَّه إليَّ من الجالسين، وهل سبق لي أن التقيت هذا الشخص أو ذاك، مما أخَّر قيامي من المجلس. عندئذ قالت السيدة سميث، وكنت لا أزال جالسًا إلى المنضدة:
«هذا صوت رجل قادم. أتوقع أن يكون هو الدكتور أخيرًا».
قلت: «أنا منهك جدًّا، ولا بد لي أن أذهب إلى غرفتي».
فقالت: «لكني متأكدة أن هذا هو الدكتور الآن، يا سيدي، أرجو البقاء بضع دقائق أخرى».
ما إن قالت هذا حتى سمعنا طرقًا على الباب وصوتًا يقول:
«هذا أنا يا سيدة تايلر».
كان السيد الذي دخل علينا لا يزال في مقتبل العمر - في الأربعين ربما - وهو طويل القامة ونحيف البنية؛ بل كان من الطول بحيث اضطر إلى الانحناء لكي يدخل من الباب. ما إن حيَّانا جميعًا حتى قالت السيدة سميث:
«هذا هو رجلنا المهذب معنا، يا دكتور. وقفت سيارته على تلة ثورنلي بوش وكانت النتيجة أن اضطر إلى تحمل الاستماع إلى خطابات هاري».
تقدم الدكتور إلى المنضدة ومدَّ يده لي.
قال مبتسمًا بمرح: «ريتشارد كارلايل». نهضت وصافحته، فأردف يقول: «ما حدث لسيارتك هو من سوء الطالع. مع هذا، أنا واثق من حسن الوفادة هنا. وأتصور أنهم يعتنون بك كثيرًا».
«شكرًا. الجميع بغاية اللطف».
جلس الدكتور كارلايل قبالتي وقال: «طيب، فنحن نرحب بك بيننا. قل لي من أي منطقة أنت؟».
«أوكسفورد شاير». والواقع لم يكن من السهل عليَّ أن أكبت ما تعودت عليه بالسليقة فأضيف كلمة «سيدي»، ولكني صمدت. قالت السيدة سميث: «إن السيد المهذب قد أخبرنا يا دكتور أنه يعرف المستر تشرتشل».
«هل هذا صحيح؟ كنت أنا أعرف قريبًا له، ثم انقطعت الصلة بيننا. ولكن، لم يحصل لي الشرف أن ألتقي الرجل العظيم».

فمضت السيدة سميث تقول: «وليس المستر تشرتشل فقط، فهو يعرف السيد إيدن واللورد هاليفاكس».
«حقًّا؟».
كنت أحس بعينيِّ الدكتور تتفحصاني. حاولت أن أبدي ملاحظة تليق بالمناسبة، ولكن المستر أندروز قال للدكتور قبل أن أنطق بشيء:
«السيد المهذب أخبرنا أنه كان يشتغل بالشؤون الخارجية كثيرًا في أيامه».
«هل هذا صحيح حقًّا؟».
بدا لي أن الدكتور كارلايل استمر ينظر إليَّ فترة مغالية في طولها. ثم استرد طريقته المرحة في التصرف وسألني:
«أنت تقوم بجولة للمتعة؟».
قلت وأنا أضحك قليلًا: «بالدرجة الأولى».
«يوجد هنا كثير من المناطق اللطيفة». ثم وجَّه كلامه إلى السيد أندروز قائلًا: «بالمناسبة، آسف لعدم إرجاع المنشار لك حتى الآن».
«لا داعي للاستعجال أبدًا يا دكتور».
وقد تراءى لي أن الاهتمام لم يعد منصبًّا عليَّ حينًا من الوقت فاستطعت أن أظل صامتًا. عندئذ انتهزت هذه الفرصة ونهضت قائلًا: «أرجو أن تسمحوا لي. كانت هذه أمسية ممتعة جدًّا، ولكن لا بد لي أن آوي إلى غرفتي».
قالت السيدة سميث: «شيء مؤسف أن تضطر إلى الذهاب الآن. الدكتور وصل لتوه».
فانحنى السيد هاري سميث بجسمه يمده أمام زوجته ويقول للدكتور كارلايل: «كنت أرجو أن يقول السيد المهذب شيئًا حول أفكارك بشأن الامبراطورية يا دكتور». ثم استدار نحوي ومضى يقول: «صاحبنا الدكتور هنا يؤيد استقلال جميع البلدان. وأنا لا أملك من العلم ما يثبت خطأه، مع أني أعرف أنه على خطأ. ولكني أريد أن أسمع ماذا يقوله أمثالكم يا سيدي عن هذا الموضوع».
غير أن نظرات الدكتور كارلايل عادت تتفحصني. ثم قال:
«شيء مؤسف. ولكن يجب أن ندع الرجل يذهب إلى الفراش. كان يومه متعبًا فيما أتوقع».
قلت وأنا أضحك قليلًا مرة أخرى: «بالفعل» وبدأت أشق طريقي بين الجالسين. وقد شعرت بالحرج حين رأيت جميع مَنْ في الغرفة، بضمنهم الدكتور كارلايل، يقومون واقفين.
قلت مبتسمًا: «أشكركم جميعًا. وأنتِ يا سيدة تايلر، شكرًا على كل شيء وقد استمتعت جدًّا بالعشاء الفاخر. أرجو لكم جميعًا ليلة سعيدة».
فأجابوني جميعًا بصوت واحد: «ليلتك سعيدة يا سيدي». كنت على وشك الخروج حين أوقفني صوت الدكتور في الباب قائلًا وهو لا يزال واقفًا على

قدميه: «ما قولك يا صاحبي أن آمر بك صباحًا. سأزور أحد المرضى في ستانبوري مبكرًا ويسرني أن آخذك إلى سيارتك. لماذا تمشي إلى هناك؟ ونستطيع أن نأخذ صفيحة الوقود في طريقنا».

«هذا لطف كبير. ولكني لا أريد أن أثقل عليك».

«لا شيء من هذا. السابعة والنصف وقت مناسب لك؟».

«هذه مساعدة كبيرة منك حقًّا».

«طيب إذن، السابعة والنصف. وأنت يا سيدة تايلر رتِّبي أمرك لتجهيز ضيفكم ليكون قد أفطر وتهيَّأ في السابعة والنصف». ثم استدار إليَّ وأضاف: «وهكذا سنستطيع أن نتكلم، ولو أن هاري لن يكون موجودًا ليشهد إفحامي».

فضحكوا ثم جرى تبادل التحيات مرة أخرى، إلى أن أتيح لي أخيرًا أن أصعد إلى الحرم الآمن في هذه الغرفة.

لا أظن أنني بحاجة إلى القول بأن ما جرى الليلة من سوء فهم يؤسف له بشأن شخصي قد جعلني أعاني إزعاجًا شديدًا. كل ما أستطيع أن أقوله الآن بصراحة تامة أنني لم يكن يسعني أن أحول بصورة معقولة دون تطور الوضع إلى ما تطور إليه فعلًا؛ ذلك أنني حين أدركت ما يحدث كانت الأمور قد بلغت حدًّا لا أستطيع معه أن أشرح وضعي لهؤلاء من دون أن أحرج الجميع. وعلى أية حال، لم يسبب ضررًا لأحد مع أنه كان أمرًا مؤسفًا من البداية إلى النهاية. ثم إنني سأرحل عنهم صباحًا ولا أظن أنني سألاقي أحدًا منهم في المستقبل مرة أخرى. فلا داعي للتفكير بالمسألة إذن.

على أنه بصرف النظر عن سوء الفهم الذي يؤسف له، هناك بعض الجوانب الأخرى للأمور التي جرت هذه الليلة تقتضي قليلًا من التفكير، لأنها لو تُركت دون تفكير فقد تظل في الخاطر وتنغص عليَّ أيامي الباقية من السفرة. مثلًا، أقوال السيد هاري سميث عن طبيعة «الوقار»، وهي بالتأكيد لا تستحق البحث على نحو جدي، وبالطبع لا بد من القول إن السيد هاري سميث استعمل كلمة «الوقار» بمعنى يختلف كل الاختلاف عن المعنى الذي أفهمه منها. ومع هذا، وحتى إذا نظرنا إلى أقواله في إطارها ذاته، فإنها بالتأكيد أقوال مثالية جدًّا، ونظرية جدًّا، بحيث لا تستحق الاحترام. هناك إلى حد ما، بلا شك، شيء من الحقيقة في ما يقوله: ففي بلاد مثل بلادنا يترتب على الناس واجب بعينه يفرض عليهم أن يفكروا بعظائم الأمور وأن يؤلفوا آراءهم. ولكن كيف يمكن، والحياة هي على ما هي عليه، أن يُتوقع حقًّا من الناس الاعتياديين حملهم «لآراء متشددة مستقلة» عن شتى الأمور والأحوال - كما يدَّعي السيد هاري سميث بشكل خيالي أن القرويين هنا يحملونها؟ ثم إن مثل هذه التصورات والآمال هي ليست فقط غير واقعية، وإنما هي على ما أحسب غير مرغوب فيها أيضًا. فهناك، على أية حال، حدٌّ حقيقي لمقدار ما يمكن للناس الاعتياديين أن يتعلموه وأن يعرفوه، لذا فإن الطلب من كل واحد منهم أن يسهم «برأي

متشدد مستقل» في المناقشات الكبرى الجارية في أوساط الأمة لا يمكن أن يكون بالتأكيد طلبًا حكيمًا. إن من الخطل، في كل الأحوال، أن يقوم أحد بتحديد معنى «الوقار» الذي يتصف به شخص آخر على هذا الأساس.

هناك مثل يمر في ذهني الآن يصور باعتقادي تصويرًا حسنًا الحدود الحقيقية لما في آراء السيد هاري سميث من صحة. وهذا المثل حدث لي شخصيًّا في حكاية جرت قبل الحرب، زهاء سنة ١٩٣٥.

أتذكر أنني استُدعيت ذات ليلة - وكان ذلك بعد منتصف الليل - إلى غرفة الاستقبال حيث كان فخامة اللورد يقوم على ضيافة ثلاثة من السادة المهذبين منذ انتهاء العشاء. كنت بطبيعة الحال قد استُدعيت إلى غرفة الاستقبال مرارًا في تلك الليلة لتقديم المشروبات، فلاحظت آنئذٍ أن هؤلاء السادة كانوا منهمكين في أحاديث عن قضايا خطرة. أما حين دخلت هذه المرة، فقد توقفوا جميعهم عن الكلام ونظروا إليَّ. ثم قال فخامة اللورد:

«تعال إلى هذه الجهة لحظة يا ستيفنز. السيد سبنسر يريد أن يكلمك».

استمر السيد المعني يحملق بي لحظة من دون أن يغيِّر من جلسته المتكاسلة وهو في مقعده الوثير. ثم قال: «يا أخي، أريد أن أوجِّه سؤالًا إليك. نحن بحاجة إلى مساعدتك في قضية معينة كنا نبحثها. قل لي هل ترى أن وضع المديونية تجاه أمريكا هو عامل مهم في مستوى التجارة المنخفض الراهن؟ أم ترى أن مسألة المديونية هي ذريعة لصرف الانتباه عن الحقيقة، وأن ترك قاعدة الذهب هي أساس المعضلة؟».

دهشت بعض الشيء من هذا السؤال، بطبيعة الحال، ولكني أدركت سريعًا ما هو المطلوب؛ بعبارة أخرى كان المطلوب بوضوح أن يوقعني السؤال في حيرة. والواقع أنني، في اللحظة التي استغرقتني لإدراك هذا وتحضير جواب مناسب، ربما ظهر عليَّ ما يدل على اصطراعي مع السؤال، لأنني رأيت السادة الموجودين في الغرفة يتبادلون جميعًا ابتسامات مرحة. قلت:

«أنا آسف يا سيدي، لكني لا أستطيع مساعدتك في هذه القضية».

كنت في هذه الأثناء قد سيطرت على نفسي، ولكن السادة الموجودين استمروا في ضحكهم المكبوت. من ثم قال السيد سبنسر: «عساك إذن تساعدنا في قضية أخرى. هل ترى أن مشكلة العملة في أوروبا ستتحسن أم ستسوء إذا عقدت اتفاقية عن الأسلحة بين الفرنسيين والبلاشفة؟».

«أنا آسف جدًّا يا سيدي، لكني لا أستطيع مساعدتك في هذه القضية».

قال السيد سبنسر: «يا ويلي. فأنت لا تستطيع أن تساعدنا هنا أيضًا».

وضحكوا مرة أخرى ضحكهم المكبوت قبل أن يقول فخامة اللورد: «طيب يا ستيفنز. يمكنك أن تنصرف».

فقال السيد سبنسر: «أرجوك يا دارلنغتون، لديَّ سؤال آخر. أريد من الرجل أن يساعدنا في المسألة التي تضايقنا حاليًّا، وهي مهمَّة جدًّا في كيفية رسمنا

لسياستنا الخارجية، وأرجو منه مساعدتنا. سؤالي هو ماذا يقصد المسيو لافال من خطابه الأخير عن الوضع في شمال أفريقيا؟ وهل تتفق مع الرأي القائل بأن قصده ما هو إلا حيلة لتعقيد الأمور على المتطرفين القوميين في حزبه؟».

«أنا آسف يا سيدي، لكني لا أستطيع المساعدة في هذه القضية».

فاستدار السيد سبنسر نحو الآخرين وقال: «انظروا يا سادة، فالرجل هذا لا يستطيع أن يساعدنا في هذه القضايا».

أثار كلامه مزيدًا من الضحك، ولم يكن هذه المرة مكبوتًا. ومضى السيد سبنسر قائلًا: «مع هذا فنحن لا نزال نصر على فكرة تقول إن قرارات هذه الأمة يجب أن تُترك في أيدي الملايين أمثال الرجل الطيِّب هذا. فهل من العجب، وقد أرهقنا نظامنا البرلماني الحالي، ألا نكون قادرين على إيجاد أي حل لصعوباتنا المتعددة؟ يمكنكم على هذا القول أن تطلبوا من لجنة من اتحاد الأمهات أن تنظم حملة حربية».

هذه الملاحظة أثارت ضحكًا طليقًا ينبع من قلوب السامعين، تمتم فخامة اللورد من خلاله يقول: «شكرًا ستيفنز» وبهذا مكَّنني من الانصراف.

ومع أن هذه الحادثة كانت بالطبع حالة غير مريحة قليلًا، ولكنها لم تكن من أصعب الحالات والحوادث غير الاعتيادية جدًّا التي يواجهها المرء في طريق أدائه لواجباته، ولا شك أنك ستتفق معي بأن أي رجل محترم من ذوي مهنتنا ينبغي له أن يتقبل مثل هذه الحوادث بدون تردد. لذا كنت أنا شخصيًّا قد نسيت ما وقع ليلًا بحلول صباح اليوم التالي، حينما دخل اللورد دارلنغتون إلى غرفة البليارد وأنا أقف على أعلى السلَّم المتحرك أزيل الغبار عن اللوحات الزيتية للوجوه الشخصية وقال: «اسمع يا ستيفنز، لقد كانت فظيعة. المحنة التي عرضناك لها ليلة أمس».

توقفت عما أقوم به وقلت: «لا بأس يا سيدي. لقد سرَّني جدًّا أن أقوم بالخدمة».

«كانت فظيعة جدًّا. وبعد ذلك العشاء الفاخر الذي قدمته لنا. أرجو أن تقبل اعتذاري».

«شكرًا لكم يا سيدي. ولكن يسرني أن أؤكد لكم أنني لم أتضايق بشكل لا موجب له».

سار فخامة اللورد بمشية متعبة شيئًا ما إلى الكرسي الجلدي الوثير. جلس وتنهد. كنت أرى، من موقع الإشراف الممتاز وأنا على أعلى السلَّم، جسده الطويل كله تغمره أشعة الشمس الشتائية وهي تتدفق من النوافذ الواسعة وتخطط الغرفة بأسرها. كانت تلك اللحظة كما أتذكرها من اللحظات التي أدركت فيها أن ضغوط الحياة قد فعلت فعلها كثيرًا وتركت آثارها العميقة على فخامة اللورد خلال فترة قصيرة نسبيًّا من السنين. إن هيكله الرشيق على الدوام قد أمسى نحيفًا بشكل مفزع وفقد حسن التناسق فيه، وشعره غزاه المشيب قبل الأوان، ووجهه غدا مجهدًا مهزولًا. جلس فترة وهو يحدِّق من

خلال النوافذ الواسعة بالسفوح المعشبة المترامية أمامنا، ثم قال مرة أخرى: «لقد كانت فظيعة تمامًا. لكنَّ المسألة يا ستيفنز أن السيد سبنسر كان لديه رأي يريد أن يثبته للسير ليونارد. والواقع أنك ساعدت على تبيان ناحية مهمَّة جدًّا، هذا إن كان في هذا القول ما يخفف عنك، كان السير ليونارد يتكلم كلامًا من الهُراء البالي، ذلك الهُراء الذي أكل الدهر عليه وشرب، حول إرادة الشعب وكونها الحكم الأعلى وصاحبة القول الفصل، وما إلى ذلك. هل تتصور، يا ستيفنز؟».

«نعم، يا سيدي».

«نحن هنا في هذه البلاد لا نفهم إلا ببطء شديد أن هذا الأمر أو ذاك قد تجاوزه الزمن. أما الأمم العظيمة الأخرى فتعرف جيدًا أنها إذا أرادت أن تواجه التحديات في كل عصر، فإن عليها أن تترك الطرق القديمة التي يحبها الناس أحيانًا كل الحب. والوضع ليس هكذا هنا في بريطانيا. لا يزال عندنا عدد كبير من الناس يتكلمون كما تكلم السير ليونارد في الليلة الماضية. لهذا السبب شعر السيد سبنسر بالحاجة إلى إثبات رأيه عمليًّا. وأقول لك يا ستيفنز لو أننا أيقظنا أمثال السير ليونارد من سباتهم وجعلناهم يفكرون قليلًا، فأنا أؤكد لك أن محنتك في الليلة الماضية لم تكن عبثًا ولم تذهب دون جدوى».

«نعم، سيدي».

تنهد اللورد دارلنغتون مرة أخرى وأضاف يقول: «نحن دائمًا آخر الناس يا ستيفنز. دائمًا آخر من يتمسك بأذيال أنظمة تجاوزها الزمن. ولكنَّ علينا، إن عاجلًا أو آجلًا، أن نواجه الحقائق. الديمقراطية شيء يعود لعصر مضى. والعالم اليوم أعقد من أن يصلح لحق الاقتراع العام وما أشبه. أعقد من أن يصلح لعدد لا ينتهي من أعضاء البرلمان وهم يناقشون الأمور إلى حد الوصول بها إلى التوقف والجمود. ربما كان ذلك شيئًا حسنًا قبل بضع سنوات، أما في عالم اليوم، ما الذي قاله السيد سبنسر ليلة أمس؟ أظنه عبَّر عن الوضع تعبيرًا حسنًا».

«أعتقد يا سيدي أنه قارن النظام البرلماني الراهن بلجنة من اتحاد الأمهات تحاول تنظيم حملة حربية».

«بالضبط، يا ستيفنز. إننا، بصراحة، وراء الزمن في هذه البلاد. ومن اللازم أن يعمل الجميع من ذوي النظرة التقدمية على إفهام أمثال السير ليونارد بهذا».

«نعم، سيدي».

«سألتك بالله يا ستيفنز. فها نحن في خضم أزمة طاحنة. رأيت ذلك بأم عيني حين ذهبت إلى الشمال مع السيد ويتيكر. الناس يعانون من الشقاء. العمال النجباء، الاعتياديون، يقاسون كثيرًا. ألمانيا وإيطاليا رتبتا أمورهما بوساطة الفعل. وكذلك البلاشفة التعساء وعلى طريقتهم فيما يُفترض. حتى الرئيس روزفلت، انظر إليه، فهو لا يهاب ولا يتردد في اتخاذ بضع خطوات جريئة بالنيابة عن شعبه. ولكن انظر إلينا هنا يا ستيفنز. السنون تمر ولا شيء

يتحسن. كل ما نفعله هو أن نحاجج ونناقش ونجادل ونماطل. إن أي فكرة معقولة ومحتمة تُقتل في مهدها وهي تمر باللجان المختلفة التي يجب أن تمر بها. والقلائل من المؤهلين لتمييز الأمور يجري إسكاتهم من الجهلة المحيطين بهم. فماذا ترى أنت يا ستيفنز؟».

«إن الأمة تبدو في وضع مؤسف يا سيدي».

«وهو كذلك. انظر إلى ألمانيا وإيطاليا يا ستيفنز. انظر ماذا يمكن أن تفعل الزعامة القومية إذا أتيح لها أن تعمل. لا شيء من هذا الهُراء عن حق الاقتراع العام هناك. إذا كان بيتك يحترق، فأنت لا تدعو أهل البيت إلى اجتماع في غرفة الاستقبال للتداول بشأن الخيارات المتاحة للنجاة وتناقشهم ساعة من الزمن. ربما كان ذلك الترتيب بأسره الذي كنَّا عليه ترتيبًا حسنًا جدًّا حينًا من الدهر، ولكن العالم اليوم مكان معقد. ولا يمكن أن نتوقع من الرجل العادي أن يعرف ما فيه الكفاية عن السياسة والاقتصاد والتجارة العالمية وما إلى ذلك. بل لماذا يجب أن يعرف؟ وأنت في الحقيقة أجبت جوابًا جيدًا جدًّا ليلة أمس، يا ستيفنز. ماذا قلت؟ شيئًا من قبيل أن المسألة لا تدخل في حقل اختصاصك. طيب، فلماذا يجب أن تدخل فيه؟».

يتراءى لي عند استذكاري لهذه الكلمات أن عددًا من أفكار اللورد دارلنغتون ستبدو اليوم، بالطبع، أفكارًا غريبة - وحتى أفكارًا غير جذابة أحيانًا. ولكن لا يمكننا أن ننكر بالتأكيد أن هناك عنصرًا مهمًّا من الحقيقة في تلك الأشياء التي قالها لي ذلك الصباح في غرفة البليارد. إن من الخطل، بالطبع، أن نتوقع من أي رئيس للخدم أن يكون قادرًا على أن يجيب بشكل قاطع على أسئلة من النوع الذي وجهه لي السيد سبنسر في تلك الليلة، كما أن ما يدعيه البعض من أمثال السيد هاري سميث بأن «وقار» المرء - بمعنى كرامته - يتوقف على قدرته على الجواب ما هي إلا دعوى فارغة. دعنا نثبت ما يلي بوضوح: إن واجب رئيس الخدم هو تقديم الخدمة الجيدة. ليس من واجبه أن يتطفل على المسائل الكبرى في الأمة. فالحقيقة هي أن مثل هذه المسائل الكبرى ستظل دائمًا خارج نطاق فهمنا أنا وأنت وأمثالنا، أما الذين يرغبون منا في أن يتركوا أثرًا لهم، فعليهم أن يدركوا أن أفضل ما يقومون به لترك هذا الأثر هو التركيز على ما هو في حقل اختصاصنا؛ بعبارة أخرى، هو تكريس الاهتمام بتقديم أحسن خدمة ممكنة لأولئك السادة العظام الذين وضع مصير الحضارة أمانة في أعناقهم. قد يبدو هذا بديهيًّا، ولكن يمكنني أن أتذكر فورًا عددًا من رؤساء الخدم الذين فكروا بشكل مختلف تمامًا، لمدة من الزمن على أية حال. والواقع أن كلمات السيد هاري سميث في تلك الليلة تذكرني كثيرًا بنوع من المثالية المغشوشة التي أحدقت بقطاع كبير من جيلنا خلال العشرينات والثلاثينات. أنا أشير إلى ذلك النمط من الرأي في مهنتنا الذي كان يفيد بأن رئيس الخدم الطموح طموحًا جديًّا يترتب عليه أن يجعل من واجبه إعادة تقييم مخدومه على الدوام. فهو يتقرَّى دوافعه ويتفحصها ويمحصها، محلِّلًا آراءه وما

تنطوي عليه. بهذه الطريقة وحدها يمكن للمرء، بموجب هذا الرأي، أن يكون واثقًا من أنه يضع مهاراته في خدمة غاية مرغوب فيها. ومع أن المرء يتعاطف إلى حدٍّ ما مع المثالية التي ينطوي عليها الرأي، ولكنها من دون شك مثالية ناشئة عن تفكير مغشوش، شأنها في ذلك شأن عواطف السيد سميث هذه الليلة. وما على المرء إلا أن ينظر إلى رؤساء الخدم الذين حاولوا تطبيق هذا المدخل لكي يرى أن مستقبلهم في المهنة - وكان بعضهم يَعِد بمستقبل باهر - قد باء بالفشل كنتيجة مباشرة لمحاولتهم. أنا أعرف شخصيًّا اثنين على الأقل من ذوي مهنتنا، كلاهما من المقتدرين إلى حدٍّ ما، وقد تنقلا من مخدوم إلى آخر دون أن يرضيا أبدًا، فلم تستقر بهما حال إلى أن اختفيا عن الأنظار كليًّا. وما هذا بالأمر الغريب على الإطلاق. ذلك أن من غير الممكن في التطبيق العملي أن تتبنى مثل هذا الموقف النقدي نحو المخدوم، وتقدم في الوقت عينه خدمة جيدة. ولا يرجع السبب في ذلك إلى أن المرء لا يُتصور فيه أن يكون قادرًا على تلبية مطالب الخدمة في مستوياتها العليا وقد انصرف اهتمامه إلى أمور أخرى؛ بل إن السبب الجوهري يعود إلى أن رئيس الخدم الذي يحاول دائمًا أن تكون لديه «آراؤه المتشددة المستقلة» عن شؤون مخدوميه، لا بد أن يكون مفتقرًا إلى صفة أساسية ينبغي أن يتحلى بها ذوو المهنة من النوع الجيد، ألا وهي الولاء. أرجو ألا تسيء فهمي هنا؛ فأنا لا أشير إلى ذلك النمط الأعجم من «الولاء» الذي يتحسر عليه المخدومون من أواسط الناس حين لا يتمكنون من الحفاظ على خدمات ذوي المهنة من العيار الثقيل. بل إني آخر من يدعو إلى منح الولاء على غير هدى وكيفما اتفق إلى من هب ودب. ولكن، إذا كان لرئيس الخدم أن يكون جديرًا بالاعتزاز بأي شيء أو أي شخص في الحياة، فإنه سيصل إلى وقت ينقطع فيه عن البحث والتفتيش؛ وقت يجب أن يقول فيه لنفسه: «هذا المخدوم يتحلى بكل الصفات التي أراها نبيلة وجديرة بالإعجاب. وأنا سأكرس نفسي من الآن فصاعدًا لخدمته». هذا ولاء يُمنح لا عن غباء بل عن ذكاء. فما الشيء المنافي للوقار و«الكرامة» في هذا؟ إن كل ما يفعله المرء هو تقبل حقيقة لا مفر منها: إن أشخاصًا من أمثالنا لن يكونوا أبدًا في وضع يمكنهم من إدراك المسائل الكبرى لعالم اليوم، وسيكون أفضل سبيل لنا دائمًا أن نضع ثقتنا بالمخدوم الذي نراه حصيفًا وشريفًا، وأن نكرس طاقتنا لخدمته على خير ما نستطيع. انظر مثلًا إلى أمثال السيد مارشال والسيد لين، وهما بالتأكيد من أعظم الشخصيات في مهنتنا. هل يمكننا أن نتصور السيد مارشال وهو يجادل اللورد كمبرلي بشأن رسالته الأخيرة التي بعث بها إلى وزارة الخارجية؟ وهل يقل إعجابنا بالسيد لين إذا علمنا أنه ليس من عادته أن يعترض على السير ليونارد غراي بشأن كل خطاب يلقيه في مجلس العموم؟ بالطبع لا. ما الشيء المنافي للوقار و«الكرامة» في موقف كهذا، وما الذي يدعو إلى اللوم فيه؟ كيف يمكن أن يُلامِ المرء بأي شكل من الأشكال لأن الزمن قد أظهر أن اللورد دارلنغتون قد

ضلَل في مجهوداته حتى غدت حمقاء؟ كان هو، وهو وحده، طوال السنين التي خدمته فيها، الشخص الذي يزن الأدلة ويقرر الطريقة التي يراها هي المُثلى فيتبعها، في حين كنت أنا أقتصر، وهو الصحيح، على أمور تدخل في حقل اختصاص مهنتي. وبقدر ما يتعلق الأمر بي فإني قمت بواجباتي على خير ما أستطيع وعلى أحسن ما تسمح به قدرتي، بل بلغت خدمتي من المستوى ما يمكن أن يُعد حقًّا من «الدرجة الأولى». ولم يكن من خطئي أن يتبين اليوم أن حياة اللورد وعمله قد تبددا عبثًا بشكل محزن - وإنه لمن غير المنطقي تمامًا أن أشعر أنا شخصيًّا بأي أسف أو خجل عما قمت به من خدمة.

اليوم الرابع - عصرًا

ليتيل كومبتون، كورنوال

وصلت أخيرًا إلى ليتيل كومبتون، وأنا الآن أجلس في قاعة الطعام في فندق «حديقة الورد»، وقد انتهيت توًّا من تناول الغداء. المطر في الخارج ينهمر بدون انقطاع.

هذا الفندق لا يعتبر باذخًا ولكنه بالتأكيد مريح وبسيط، ولا أجد ما يدعوني إلى أن أبخل بالنفقات الإضافية لإقامتي فيه. إنه قصر ريفي جميل مغطى باللبلاب، ويمكن أن يستوعب فيما أحسب زهاء الثلاثين من النزلاء، وهو يقع في مكان قريب بطرف من ميدان القرية. بيد أن «قاعة الطعام» هذه التي أجلس فيها الآن هي ملحق حديث الطراز بُني ليتصل بالبناية الرئيسة - غرفة طويلة منبسطة ذات صفوف من النوافذ الواسعة على الجانبين. ميدان القرية على جانب، أما على الآخر فالحديقة الخلفية التي اكتسب الفندق اسمه منها كما يُفترض. في الحديقة، وهي في موقع يحميها جيدًا من الرياح، عدد من الموائد التي رُتبت هنا وهناك، وأتصورها في اليوم المشمس مكانًا رائعًا لتناول وجبات الطعام أو المرطبات. والواقع أن بعض النزلاء بدأ فعلًا قبل قليل تناول الغداء فيها، ثم اضطر لمغادرتها عند ظهور سحب رعدية تنذر بعاصفة في السماء. فحين أُدخلت إلى هنا قبل ساعة أو نحوها كان مستخدمو الفندق يرفعون على عجل ما على موائد الحديقة - في حين كان شاغلوها يقفون حائرين، ولا يزال على قميص أحدهم منديل الغداء. ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى أخذ المطر ينهمر انهمارًا شديدًا، فتوقف النزلاء عن الأكل لكي ينظروا من خلال النوافذ إلى الخارج.

تقع مائدتي على جانب القاعة الذي يطل على ميدان القرية، لذا قضيت نصف الساعة الماضية وأنا أراقب انهمار المطر على الميدان وعلى سيارة الفورد وعلى سيارتين أخريين واقفتين في الخارج. وقد استقر هطول المطر بعض الشيء الآن، ولكنه لا يزال من الشدة بحيث يثبط المرء عن الخروج والتجول في القرية. خطر لي بالطبع أن أذهب الآن لألاقي الآنسة كنتون، ولكني كنت قد أخبرتها في رسالتي أنني سأزورها في الساعة الثالثة، ولا أظن أن من الحكمة أن أفاجئها قبل ذلك الحين. فمن المحتمل إذن، إذا لم ينقطع المطر قريبًا، أن أظل هنا أتناول الشاي إلى أن يحين الوقت الصحيح للذهاب. وقد فهمت من الفتاة التي قدمت الغداء أن العنوان الذي تقيم فيه الآنسة

كنتون حاليًّا لا يبعد أكثر من خمس عشرة دقيقة مشيًا، وهذا يعني أن أمامي أربعين دقيقة أخرى من الانتظار في الأقل.

يجب عليَّ أن أقول بالمناسبة إنني لست من الحماقة بحيث لا أكون مستعدًّا لخيبة الأمل. فأنا أعرف جيدًا أنني لم أتسلم قطُّ جوابًا من الآنسة كنتون تؤكد فيه أنها ستُسر باللقاء. على أني أميل إلى الظن بأن عدم الجواب يمكن أن ينصرف إلى الموافقة، نظرًا لما أعرفه جيدًا عن الآنسة كنتون؛ فلو كان اللقاء لا يناسبها لأي سبب من الأسباب لما ترددت، بالتأكيد، عن إخباري. يضاف إلى هذا أنني ذكرت في رسالتي أني حجزت في هذا الفندق، وأن من الممكن أن يُترك لي هنا خبر عن أي تأجيل في الموعد قد يحدث في آخر لحظة؛ وبما أن مثل هذا الخبر لم يصلني فيمكنني أن أفترض أن هذا سبب آخر يدل، فيما أعتقد، على أن كل شيء على ما يرام.

أدهشني هذا الوابل الشديد، فالنهار بدأ مشرقًا بشمس الصباح التي حباني بها الحظ صباح كل يوم منذ مغادرتي قصر دارلنغتون. والواقع أن اليوم بدأ بداية طيبة على العموم بإفطار يتكون من بيض الحقول الطازج مع الخبز المحمص أعدته لي السيدة تايلر، ويمجيء الدكتور كارلايل في الساعة السابعة والنصف وفق الميعاد، مما مكَّنني من توديع السيد والسيدة تايلر - اللذين رفضا مجددًا أن يسمعا شيئًا عن الأجور - وذلك قبل أن تسنح فرصة أخرى لمزيد من الكلام المحرج.

أعلمني الدكتور كارلايل وأنا أجلس إلى جانبه في المقعد المجاور في سيارته «الروفر» قائلًا: «وجدت لك صفيحة بنزين».

شكرته على حسن التفاتته، ولكني حين استفسرت عن الثمن وجدته هو أيضًا يرفض أن يسمع شيئًا عن ذلك. قال: «لا، لا تقل هذا يا صاحبي. ما هو إلا شيء بسيط وجدته متروكًا في مرآبي. ولكن الكمية كافية لإيصالك إلى كروسبي كيت، وهناك يمكن أن تملأ الخزان بشكل مضبوط».

عند مرورنا بوسط القرية في موسكوم استطعت أن أرى في شمس الصباح المشرقة أن القرية هي عبارة عن عدد من الدكاكين الصغيرة تحيط بكنيسة، وهي التي رأيت برجها من الهضبة مساء أمس. على أن الفرصة لم تسنح لي لدراسة القرية لأن الدكتور كارلايل استدار بسيارته سريعًا إلى مدخل أحد الحقول نحو طريق ريفي.

قال: «مجرد طريق أقصر». فمضينا نمر بالعنابر والمركبات الحقلية الواقفة. لم يكن هناك أحد في أي مكان حتى واجهتنا بوابة مغلقة فقال الدكتور: «آسف يا صاحبي، فهل تسمح بالقيام بشرف فتحها؟». خرجت من السيارة واتجهت نحو البوابة، وما إن فتحتها حتى تعالى نباح شرس من مجموعة من الكلاب في عنبر قريب، فأسرعت إلى الانضمام إلى الدكتور كارلايل وشعرت وأنا أجلس في المقعد الأمامي من سيارته الروفر بشيء من الارتياح.

تبادلنا بعض المجاملات ونحن نصعد في طريق ضيق بين أشجار عالية، وهو يسألني كيف قضيت ليلتي في بيت تايلر وما إلى ذلك. ثم قال لي بغتة:
«قل لي، وأرجو ألا تظنني فظًّا. ألست خادمًا من نوع ما؟».
وعليَّ أن أقر أن شعوري الطاغي عند سماعي هذا السؤال كان شعور الارتياح.
«هو ذاك، يا سيدي. فأنا في الواقع رئيس الخدم في قصر دارلنغتون. قرب أوكسفورد».
«ظننتك كذلك، كل ذلك الكلام عن مقابلة ونستون تشرتشل وما أشبه. فقلت في نفسي إما أن الرجل قد تمادى بمبالغاته وإما - عندئذ خطر لي أنه لا يوجد إلا تفسير بسيط واحد».
التفت إليَّ الدكتور كارلايل مبتسمًا وهو يسوق السيارة صعدًا في ذلك الطريق الشاهق المتعرج. قلت:
«لم يكن في نيتي أن أخدع أي أحد، يا سيدي، ولكن...».
«لا، لا داعي للتفسير يا صاحبي. أستطيع أن أفهم كيف حدث الأمر. وأعني أنك شخصيًّا نوعية محترمة جدًّا. وأمثال هؤلاء الناس يمكن أن يحسبوك بسهولة في الأقل بمرتبة لورد أو دوق». ضحك الدكتور من الصميم وأضاف: «من المفيد للمرء حتمًا أن يحسبه الناس خطأ من اللوردات بين حين وآخر».
سرنا في طريقنا وكلانا يلتزم الصمت بضع لحظات. ثم قال لي الدكتور كارلايل: «أرجو أن تكون قد استمتعت بإقامتك القصيرة معنا هنا».
«كثيرًا يا سيدي، شكرًا لكم».
«وكيف وجدت أهالي القرية؟ لا أظنهم من النوع السيئ».
«وجدتهم لطفاء جدًّا يا سيدي، وكرماء، خاصة السيد والسيدة تايلر».
«أرجو ألا تناديني يا سيدي، يا سيدي، هكذا طوال الوقت يا سيد ستيفنز. الأهالي هنا ليسوا من النوع السيئ أبدًا، نعم وسيسعدني أنا شخصيًّا أن أقضي بقية حياتي بينهم».
شعرت بشيء غريب بعض الشيء في الطريقة التي قال بها الدكتور كارلايل قوله هذا.
كما كان هناك أيضًا نوع من الإقحام العمدي المثير للانتباه في الطريقة التي يسألني بها مرة أخرى قائلًا: «وجدتهم إذن لطفاء؟».
«جدًّا، يا دكتور. ومتجانسين كثيرًا».
«وماذا قالوا لك؟ عسى ألا يكونوا قد أضجروك بأخبار القرية من القيل والقال».
«أبدًا، يا دكتور. والحقيقة أن الأحاديث كانت جادة وحماسية، وقد أبديت فيها بعض الآراء المثيرة للاهتمام».
فقال الدكتور ضاحكًا: «أظنك تعني هاري سميث، لا تبالِ به. يمكن أن يكون ممتعًا إذا استمعت إليه بعض الوقت أحيانًا، ولكنه في واقع الأمر مشوش

الذهن كليًّا. قد تحسبه أحيانًا من الشيوعيين، ثم يقول شيئًا لا يصدر إلا عن المحافظين الأقحاح. والحقيقة هي أنه مشوش الذهن كليًّا».

«هذا شيء مثير للاهتمام».

«وماذا ألقى عليك من محاضرات ليلة أمس؟ عن الإمبراطورية؟ عن نظام الضمان الصحي؟».

«كلًّا، فقد اقتصر كلام السيد سميث على موضوعات عامة».

«مثلًا؟».

تنحنحت وقلت: «أبدى بعض الأفكار عن طبيعة الوقار وما فيها من كرامة».

«هكذا؟ الظاهر أنه أراد أن يتفلسف. فكيف انتقل إلى هذا؟».

«أعتقد أن السيد سميث كان يشدد على أهمية عمله في الحملات الانتخابية في القرية؟».

«صحيح؟».

«نعم، أراد أن يبين لي أن أهالي القرية يحملون آراء قوية مستقلة عن جميع المسائل الكبرى».

«هذا ما يتقوله هاري سميث فعلًا. ولعلك عرفت أن هذا هُراء. بالطبع، هاري يحاول دائمًا إثارة حماس الناس هنا حول مختلف القضايا. أما الحقيقة فهي أن الناس يكونون أسعد حالًا لو تركوا وشأنهم».

سكتنا مرة أخرى، ثم قلت أنا أخيرًا: «اسمح لي أن أسأل يا سيدي. هل يعتبر السيد سميث شخصية مضحكة؟».

«لا أظن، ففي هذا القول ما فيه من مبالغة. الناس هنا هم من ذوي الضمير السياسي، من نوع ما. وهم يشعرون أنهم ينبغي لهم أن يحملوا مشاعر قوية حول هذا الموضوع أو ذاك، تمامًا كما يحثهم هاري. ولكنهم في الواقع يريدون أن يحيوا حياة هادئة. لدى هاري الكثير من الأفكار حول تغيير هذا الشيء وذاك، أما في واقع الأمر، فلا أحد في القرية يريد تغييرًا ثوريًّا حتى إذا كان من المحتمل أن يعود بالفائدة عليهم. الناس هنا يريدون أن يُتركوا وشأنهم لكي يعيشوا حياتهم البسيطة الهادئة. لا يريدون أن يزعجهم أحد بهذه القضية أو تلك».

دهشت من نبرة الاشمئزاز التي سرت في صوت الدكتور. ولكنه عاد إلى حاله سريعًا فضحك وأشار قائلًا: «منظر لطيف للقرية من جانبك».

تراءت القرية من تحتنا فعلًا. وبالطبع أضفت شمس الصباح طابعًا مختلفًا عليها، وفيما عدا ذلك بدت كما رأيتها أول مرة في دكنة المساء، فافترضت وأنا أشهدها أننا الآن قد اقتربنا كثيرًا من الموقع الذي تركت فيه سيارة الفورد.

قلت: «الظاهر أن من رأي السيد سميث أن وقار الإنسان «وما في ذلك من كرامة» يقوم على مثل هذه الأشياء. على حمل الآراء القوية المستقلة وما أشبه».

«أي نعم، الوقار والكرامة. نسيت ذلك. نعم، إذن كان هاري يحاول معالجة تعريفات فلسفية. خذها مني هُراء في هُراء».

«لم تكن النتائج التي توصل إليها مما تدعو بالضرورة إلى الاتفاق معه بشأنها، يا سيدي».

هز الدكتور كارلايل رأسه ولكنه بدا وكأنه قد غرق في لجة أفكاره الخاصة. أخيرًا قال: «هل تدري يا سيد ستيفنز أنني حين جئت إلى هنا لأول مرة كنت اشتراكيًّا ملتزمًا. وكنت أعتقد بضرورة تقديم أحسن الخدمات للناس جميعًا، وأعتقد بالبقية الباقية من هذا الكلام. جئت سنة ٤٩. الاشتراكية ستتيح للناس أن يعيشوا بوقار وكرامة. هذا ما كنت أعتقد به حين جئت إلى هنا. أنا آسف، فأنت لا تريد أن تسمع كل هذا الهُراء». التفت نحوي مرحًا وأضاف: «وأنت يا صاحبي؟».

«آسف، لم أفهم يا سيدي».

«أنت ما ترى؟ ما الوقار؟».

أدهشني هذا السؤال المباشر، بصراحة. قلت: «من الصعب شرح ذلك ببضع كلمات يا سيدي. ولكني أظن أن المسألة تتلخص بألا يخلع المرء ملابسه عاريًا أمام الناس».

«آسف. لم أفهم. ما الذي يجعله لا يفعل ذلك؟».

«الوقار، يا سيدي».

«آ...»، وهزَّ الدكتور رأسه ولكنه بدا مشدوهًا بعض الشيء. ثم قال: «والآن، هذا الطريق يجب أن يكون مألوفًا لك لعله يبدو مختلفًا في وضح النهار. انظر، أهذه هي؟ يا الله، ما أجملها من سيارة!».

وقف الدكتور كارلايل خلف الفورد تمامًا، ثم ترجل وقال مرة أخرى: «يا الله، ما أجملها». وما هي إلا لحظة واحدة حتى جاء بقمع وبصفيحة الوقود وأخذ يساعدني بلطف كبير في ملء خزان السيارة. وإذا كانت لديَّ أية مخاوف من إصابة السيارة بأضرار خطرة فقد تبددت جميعها حالما أدرت أداة التشغيل وسمعت المحرك يعود إلى الحياة بقرقرة سليمة معافاة. عندئذ شكرت الدكتور كارلايل فودَّع أحدنا الآخر، مع أنني اضطررت إلى تعقيبه وهو بسيارته الروفر في طريق الهضبة المتعرج إلى مسافة ميل أو نحوه قبل أن يأخذ كل منا طريقه.

كانت الساعة زهاء التاسعة حين عبرت حدود المنطقة إلى كورنوال. كان هذا قبل هطول الأمطار بثلاث ساعات في الأقل، وكانت الغيوم لا تزال بيضاء لامعة. والواقع أن عددًا من المناظر التي رأيتها هذا الصباح كانت من أجمل ما شاهدت حتى الآن. لهذا فإن من المؤسف ألا أستطيع أن أعيرها الانتباه الذي تستحقه أغلب الوقت؛ ذلك أنني كنت، بصراحة، منشغل البال بفكرة واحدة هي أنني سألاقي الآنسة كنتون مرة أخرى قبل غروب الشمس، هذا إذا لم تحدث مضاعفات ليست بالحِسبان. وهكذا، إذن، وبينما أنا أسوق بين الحقول

الفسيحة المنبسطة من دون أن أرى بشرًا أو مركبة مسافة أميال متواصلة، أو عندما أعرج بالسيارة بعناية خلال القرى الصغيرة الرائعة، وبعضها لا أكثر من مجموعة متراصة من أكواخ حجرية قليلة العدد، كنت أجد نفسي مرة أخرى أقلِّب في ذهني ذكريات الماضي، بعضها على الأخص. والآن، وأنا هنا في ليتيل كومبتون، أجلس هنا في قاعة الطعام في هذا الفندق اللطيف ولديَّ شيء من الوقت، أراقب المطر يهطل على الأرصفة في ميدان القرية في الخارج أمامي، فإني لا أستطيع أن أحول بيني وبين الاستمرار على اجترار الماضي هائمًا في دروب الذكرى.

ثمة ذكرى واحدة بعينها شغلت بالي طوال الصباح - أو بالأحرى شظية من ذكرى، هي عبارة عن لحظة واحدة ظلت لسبب ما باقية معي، حيَّة في ذهني طوال السنين. ذكرى وقوفي وحيدًا في الرواق الخلفي أمام الباب المغلق لغرفة الآنسة كنتون؛ لم أكن أواجه الباب بل أقف بجسدي مستديرًا نصف استدارة نحوه، وقد تسمرت في مكاني لا أستطيع أن أقرر هل أطرق، أم لا أطرق، على الباب؛ ففي تلك اللحظة كما أتذكر جيدًا كنت مأخوذًا بما ساورني من أن الآنسة كنتون، وراء ذلك الباب بعينه على بعد بضع خطوات مني، كانت تبكي. هذه اللحظة بذاتها ظلت مطمورة في ذهني هي وذكرى وقوفي هناك متسمرًا وأنا أحس بانفعال معيَّن يمور في باطني. على أنني لا أعرف الآن على وجه اليقين ما هي الظروف الحقيقية التي قادتني إلى الوقوف هناك، هكذا في الرواق الخلفي. ويخطر لي أنني ربما زعمت سابقًا في محاولاتي الأخرى لسرد هذه الذكريات أن ذكرى وقوفي هناك مستمدة من الدقائق التي تلت تسلم الآنسة كنتون نبأ وفاة عمتها مباشرة؛ أي حين تركتها لتختلي هي والحزن فأدركت وأنا في الرواق أنني لم أقدم لها التعازي والمواساة. أما الآن فأنا أعتقد بعد مزيد من التفكير أنني ربما أكون مشوشًا بشأن هذا الأمر؛ فهذه الشظية من الذكرى إنما هي مستمدة من أحداث وقعت ذات مساء بعد وفاة عمة الآنسة كنتون ببضعة أشهر في الأقل - المساء الذي جاء فيه ذلك الشاب السيد كاردينال إلى قصر دارلنغتون على حين غرة وبشكل غير متوقع.

كان والد السيد كاردينال، السير ديفيد كاردينال، صديقًا مقربًا لفخامة اللورد على مدى سنين وزميلًا له في اهتماماتهما المشتركة، ولكنه كان قُتل في حادثة من حوادث ركوب الخيل بصورة مأساوية قبل ثلاث سنوات أو أربع تقريبًا من الأمسية التي أتذكرها الآن - في تلك الأثناء كان الشاب السيد كاردينال يقيم لنفسه نوعًا من اسم كصحفي متخصص بالتعليقات الذكية الفكهة الظريفة عن الشؤون الدولية. وكان من الواضح أن العمود الذي يكتبه لم يكن يروق للورد دارلنغتون إلا نادرًا، ذلك أنني أتذكر مناسبات متعددة كان يرفع فيها نظره إليَّ من صحيفة بين يديه ويقول ما معناه: «ريكي الصغير يكتب هذا الهُراء مرة أخرى. من حسن حظ والده أنه ليس حيًّا ليقرأ كلامه». ولكن مقالات السيد كاردينال لم تحل دون تردده على القصر زائرًا بين حين

وحين؛ بل إن فخامة اللورد لم ينسَ قَطّ أن هذا الشاب هو ابنه بالمعمودية، وكان يعامله دائمًا كأنه من ذوي الأرحام. وفي الوقت عينه لم يكن من عادة السيد كاردينال قَطُّ أن يأتي إلى العشاء دون إشعار سابق، لذا دهشت قليلًا حين فتحت الباب في ذلك المساء فوجدته واقفًا أمامي يحتضن حقيبته اليدوية بين ذراعيه.

قال: «مرحبًا يا ستيفنز، كيف حالك؟ حدث أنني خُشرت الليلة في مأزق ولا أدري هل يسمح لي اللورد دارلنغتون بالمبيت عندكم الليلة؟».

«شيء لطيف جدًّا أن نراكم مرة أخرى، يا سيدي. سأخبر فخامة اللورد بأنكم هنا».

«كنت أنوي أن أبيت الليلة لدى السيد رولاند، ولكن حدث فيما يظهر سوء تفاهم فذهبت العائلة لا أدري إلى أين. أرجو ألا يكون في مجيئي إليكم في هذا الوقت شيء من المضايقة. وعسى ألا تكون لديكم الليلة مناسبة خاصة».

«أعتقد يا سيدي أن فخامة اللورد ينتظر بعض الضيوف بعد العشاء».

«هذا من سوء حظي. والظاهر أنني اخترت ليلة غير مناسبة وعليَّ ألا أُظهر وجودي. لديَّ شيء أريد أن أكتبه الليلة على أية حال».

قال السيد كاردينال هذا وهو يشير إلى حقيبته اليدوية.

«سأخبر فخامة اللورد بأنكم هنا، يا سيدي. وقد وصلتم على أية حال في الوقت المناسب لمشاركته في تناول العشاء».

«جميل جدًّا، وهذا ما كنت أرجوه. ولكني لا أظن أن طاهيتكم السيدة مورتيمر سترتاح لوجودي كثيرًا».

تركت السيد كاردينال في غرفة الاستقبال وصعدت إلى غرفة المكتبة حيث وجدت فخامة اللورد يتدارس بعض الصفحات أمامه بتركيز تام. وحين أخبرته بوصول السيد كاردينال اعترت وجهه ملامح الضيق المشوب بالدهشة. ثم اعتدل في جلسته إلى الخلف وكأنه يحاول أن يحل في ذهنه شيئًا يستعصي عليه.

أخيرًا قال: «قل للسيد كاردينال إنني سأوافيه قريبًا. يمكنه أن يسلِّي نفسه بعض الوقت».

حين نزلت وجدت السيد كاردينال يحوم في غرفة الاستقبال قلقًا، وهو يتفحص أشياء لا بد أنها مألوفة لديه منذ أمد طويل.

أخبرته بالرسالة وسألته ماذا يرغب في أن أقدم له من مرطبات.

«شاي فقط حاليًّا، يا ستيفنز. من ينتظر فخامة اللورد الليلة؟».

«آسف يا سيدي، فلا أستطيع معاونتك بالجواب». «آسف، يا سيدي».

«شيء غريب. طيب إذن. وعليَّ ألا أُظهر وجودي الليلة».

لم يمضِ على هذا وقت طويل على ما أتذكر حتى نزلت إلى غرفة الآنسة كنتون. كانت تجلس إلى منضدتها ليس أمامها شيء يشغلها؛ بل كان في

وضعها شيء يوحي بأنها كانت تجلس على هذه الصورة منذ بعض الوقت قبل أن أطرق بابها.

قلت: «السيد كاردينال هنا يا آنسة كنتون. وسيتطلب غرفته المعتادة هذه الليلة».

«أنا مستعدة يا سيد ستيفنز، وسأقوم بما يلزم قبل أن أترك».

«هل ستخرجين هذه الليلة يا آنسة كنتون؟».

«نعم، سأخرج، يا سيد ستيفنز».

لعل شيئًا من الدهشة ارتسم على محياي لأنها مضت تقول:

«أنت تتذكر يا سيد ستيفنز، أننا بحثنا هذا منذ أسبوعين».

«نعم، بالطبع، يا آنسة كنتون. أرجو المعذرة. فقد سهوت عن ذلك».

«هل من شيء، يا سيد ستيفنز؟».

«كلَّا، أبدًا، يا آنسة كنتون. يُنتظر مجيء بعض الزوار هذا المساء، ولكن ليس هناك ما يدعو لوجودك».

«لقد اتفقنا قبل أسبوعين، يا سيد ستيفنز، على أن أخرج هذا المساء».

«بالطبع، وأنا أرجو المعذرة».

استدرت لأغادر الغرفة ولكن الآنسة كنتون أوقفتني عند الباب بقولها:

«يا سيد ستيفنز، لديَّ شيء أريد أن أقوله لك».

«نعم؟».

«الأمر يخص الرجل الذي سألاقيه الليلة».

«نعم».

«لقد عرض عليَّ الزواج. وأحسب أن من حقك أن تعرف هذا».

«فعلًا، يا آنسة كنتون. هذا شيء يثير الاهتمام».

«أنا لا أزال أفكر في المسألة».

«نعم».

نظرت إلى يديها لحظة، ثم حولت نظرها إليَّ في الحال وقالت: «الرجل الذي أعرفه، هذا الذي خطبني، سيباشر عملًا له في غرب البلاد اعتبارًا من الشهر القادم».

«نعم».

«كما قلت لك يا سيد ستيفنز، فأنا لا أزال أفكر في المسألة. ولكني أظن أن من واجبي أن أحيطك علمًا بالحالة».

«لكِ شكري الجزيل. وأرجو أن تتمتعي بأمسية لطيفة، والآن اسمحي لي أن أذهب».

لا بد أنه انقضى على هذا زهاء العشرين دقيقة قبل أن ألاقي الآنسة كنتون مرة أخرى، وكنت في هذه المرة منشغلًا بالاستعدادات للعشاء. في الواقع كنت على السلَّم الخلفي أصعد حاملًا صينية مثقلة بلوازم المائدة حين سمعت خطوات غاضبة تقعقع على الأرضية الخشبية أسفل مني. توقفت في وسط

السلّم فرأيت الآنسة كنتون تنظر شزرًا إلى الأعلى نحوي من مكانها أمام السلّم.
«يا سيد ستيفنز، هل أفهم أنك تريدني أن أبقى للعمل هذه الليلة؟».
«أبدًا، يا آنسة كنتون، كنتِ قد أبلغتني قبل مدة كما ذكرتِ».
«ولكني أراك غير مرتاح جدًّا من خروجي الليلة».
«على العكس».
«هل تتصور أنك بإثارة هذه الضجة في المطبخ وبدك الأرض ذهابًا وإيابًا خارج غرفتي ستستطيع أن تغيِّر قراري؟».
«يا آنسة كنتون، إن الانفعال البسيط السائد في المطبخ يعود أولًا وآخرًا إلى مجيء السيد كاردينال للعشاء في آخر لحظة. ليس هناك أي سبب على الإطلاق يدعو ألا تخرجي هذا المساء».
«أنا أنوي الخروج شئت أم أبيت يا سيد ستيفنز، وأريد أن يكون هذا واضحًا. فقد أجريت ترتيباتي منذ أسابيع».
«نعم، يا آنسة كنتون. ومرة أخرى أرجو لك أن تتمتعي بأمسية لطيفة جدًّا».
أما على العشاء فقد ساد جو غريب. كان كلا الرجلين يأكل بصمت، ويبدو فخامة اللورد على الأخص في شغل شاغل عما حوله. قال السيد كاردينال مرة:
«شيء خاص هذه الليلة، يا سيدي؟».
«ها؟».
«زواركم هذا المساء. شيء خاص؟».
«لا أستطيع أن أقول يا بني. شيء سري للغاية».
«يا سلام. وهذا يعني أنني لا أستطيع الحضور».
«لا تستطيع الحضور أين، يا بني؟».
«حضور ما سيجري الليلة كائنًا ما يكون».
«لا، لأنه لا يثير اهتمامك أبدًا. على أية حال، السرية مطلوبة جدًّا. ولا يمكن حضور واحد مثلك. لا، لا يمكن أبدًا».
«يا سلام. هذا شيء خاص جدًّا فيما يبدو».
كان السيد كاردينال يراقب فخامة اللورد باهتمام كبير، ولكن فخامته عاد إلى طعامه من دون أن ينبس ببنت شفة.
ثم انصرف السيدان إلى غرفة التدخين لاحتساء نبيذ البورت وتدخين السيجار. وبينما كنت أقوم برفع لوازم العشاء من على المائدة، وبإعداد غرفة الاستقبال تمهيدًا لوصول زوار المساء كان لا بد لي أن أمر مرارًا وتكرارًا من أمام باب غرفة التدخين. لم يكن هناك مناص، إذن، إلا أن ألاحظ أن السيدين كانا يتبادلان الكلمات بشيء من العُجالة والإلحاح على خلاف الجو الذي ساد على العشاء. بعد ربع ساعة كانت تتعالى أصوات غاضبة. لم أقف، بالطبع،

لأتسمع، ولكني لم أستطع أن أتحاشى سماعي فخامة اللورد يصيح: «لكنَّ هذا ليس من شأنك يا بنيَّ. ليس من شأنك».

كنت في قاعة الطعام حين خرج السيدان أخيرًا. ظهر لي أنهما قد هدآ، وكانت الكلمات الوحيدة المتبادلة بينهما وهما يسيران عبر الردهة قول فخامة اللورد: «والآن تذكَّر يا بنيَّ. أنا أضع ثقتي فيك». فيجيب السيد كاردينال متمتمًا بانزعاج: «نعم، نعم، فقد أعطيتك كلمتي». ثم تباعدت خطواتهما، كلٌّ في اتجاه، خطوات فخامة اللورد نحو غرفة مكتبه وخطوات السيد كاردينال نحو المكتبة.

في تمام الثامنة والنصف سمعت أصوات السيارات تقف في الفناء. فتحت الباب لأحد السائقين، فرأيت من خلف كتفيه بعض ضباط الشرطة يتوزعون في نقاط مختلفة من الحدائق. في اللحظة التالية كنت أستقبل شخصيتين بارزتين جدًّا، ثم أدخلهما إلى حيث استقبلهما فخامة اللورد في الردهة، فمضى بهما سريعًا إلى قاعة الاستقبال. بعد عشر دقائق أو نحوها سمعت صوت سيارة أخرى ففتحت الباب للهر ربنتروب، السفير الألماني، وهو الآن ليس غريبًا على قصر دارلنغتون. ظهر فخامة اللورد لاستقباله وبدا على السيدين أنهما يتبادلان نظرات خاصة تشي بالتكتم قبل أن يختفيا تمامًا في قاعة الاستقبال. حين استُدعيت بعد دقائق لتقديم المرطبات، كان الرجال الأربعة يبحثون في مزايا النقانق (السجق) بأنواعها المختلفة، وكان الجو الظاهر على السطح في الأقل جوًّا مرحًا للغاية.

اتخذت فيما بعد موقعي المعتاد في الردهة - بالقرب من قوس الدخول حيث أقف في العادة خلال الاجتماعات المهمَّة - ولم يكن عليَّ أن أغادر مكاني مرة أخرى إلى أن سمعت جرس الباب الخلفي يرن بعد زهاء الساعتين. نزلت فرأيت ضابطًا من ضباط الشرطة يقف مع الآنسة كنتون وطلب مني أن أؤيد هويتها.

«مجرد مسألة أمن يا آنسة. لا نقصد الإساءة». هكذا تمتم الضابط وهو يعود متخفيًا في جنح الظلام.

لاحظت وأنا أغلق الباب أن الآنسة كنتون واقفة تنتظرني فقلت: «لا بد أنكِ استمتعتِ بأمسية لطيفة يا آنسة كنتون».

لم تجب، لذا قلت مجددًا ونحن نسير في الامتداد المظلم لطابق المطبخ: «لا بد أنك استمتعتِ بأمسية لطيفة يا آنسة كنتون».

«نعم، وشكرًا، يا سيد ستيفنز».

«يسرني أن أسمع هذا».

انقطع صوت خطواتها من ورائي فجأة، وسمعتها تقول: «ألا يهمك أبدًا أن تعرف ماذا جرى الليلة بيني وبين صاحبي يا سيد ستيفنز؟».

«لا أريد أن أكون فظًّا يا آنسة كنتون، ولكن يتحتم عليَّ أن أعود إلى الطابق الأعلى دون تأخير. هناك أحداث ذات أهمية عالمية تجري في هذا القصر في

هذه اللحظة بالذات».
«ومتى لم تجر، يا سيد ستيفنز؟ طيب إذن، وإذا كنت في عجلة من أمرك فسأخبرك الآن أنني قبلت عرض صاحبي».
«لم أفهم».
«عرض الزواج».
«صحيح؟ إذن تهانينا».
«شكرًا، يا سيد ستيفنز. وسيسرني بالطبع أن أقدم إشعاري بترك العمل. أما إذا استطعت أن تعفيني قبل انتهاء المدة فسيكون كلانا ممتنًّا جدًّا، هو وأنا. إن صاحبي سيبدأ عمله الجديد في غرب البلاد خلال أسبوعين».
«سأبذل جهدي للحصول على من يحل محلك في أقرب فرصة يا آنسة كنتون. والآن اسمحي لي، فعليَّ أن أعود إلى الطابق الأعلى».
أخذت طريقي مرة أخرى ولكن لم أكد أصل إلى الباب لأخرج إلى الرواق حتى سمعت الآنسة كنتون تناديني باسمي، لذا استدرت مجددًا. لم تكن هي قد تحركت من مكانها فاضطرت إلى أن ترفع صوتها قليلًا لمخاطبتي، وكان الصوت يرن رنينًا غريبًا في الفضاءات المعتمة عتمة الكهوف في المطبخ الخالي، المظلم. قالت:
«هل أفهم أنه بعد كل هذه السنوات من الخدمة التي قدمتها في هذا المنزل وأنت لا تقابل مغادرتي إلا بالكلمات القليلة التي قلتها؟».
«يا آنسة كنتون، لكِ مني أحر التهاني. ولكني أكرر أن هناك أمورًا ذات أهمية عالمية تجري في الطابق الأعلى ويجب عليَّ أن أعود إلى موقعي».
«هل تعلم يا سيد ستيفنز أنك كنت شخصية مهمَّة جدًّا بالنسبة لي ولصاحبي؟».
«صحيح؟».
«نعم، فنحن في الغالب نقضي أوقاتنا بالاستمتاع بحكايات عنك. وصاحبي مثلًا يطلب مني دائمًا أن أريه كيف تصم منخريك حين تضع الفلفل في الطعام، فيضحك كثيرًا».
«نعم».
«وهو مولع أيضًا بسماع كلامك مع المستخدمين وأنت تنفخ فيهم روح الحيوية والنشاط وتشحذ همتهم. وأنا خبيرة بتقليدك. ما إن أردد بضع جمل منها حتى نستغرق في الضحك».
«نعم، يا آنسة كنتون، والآن اسمحي لي أن أذهب».
صعدت إلى الردهة واتخذت مكاني مرة أخرى. ولكن، لم تمضِ خمس دقائق حتى ظهر السيد كاردينال في باب المكتبة فأومأ إليَّ وقال:
«يؤسفني أن أزعجك يا سيد ستيفنز، ولكن هل أستطيع أن أكلفك بجلب مزيد من البراندي. القنينة التي جلبتها لي سابقًا قد انتهت».

«على الرحب والسعة يا سيدي. ولك أن تطلب ما تشاء. ولكن، وبما أنك تريد أن تكمل كتابة مقالك، فهل من الحكمة يا تُرى أن تحتسي أكثر مما احتسيت؟».

«دعنا من المقال يا ستيفنز. وأرجو أن تأتيني بالبراندي يا طيب».

«كما تشاء يا سيدي».

حين عدت إلى المكتبة بعد لحظات كان السيد كاردينال يتجول بين الرفوف وهو يتفحص العناوين على أعقاب الكتب. رأيت أوراقًا متناثرة كيفما اتفق على إحدى مناضد الكتابة القريبة، حين تقدمت منه أطلق من فمه تصوينًا ترحيبًا لتقديري، ورمى بنفسه في مقعد جلدي وثير. ذهبت إليه وصببت قليلًا من البراندي وأعطيته له. قال:

«أنت تعلم يا ستيفنز أننا أصدقاء منذ مدة».

«نعم، يا سيدي».

«وأنا أتطلع دائمًا إلى الحديث معك كلما جئت إلى هنا».

«صحيح، يا سيدي».

«هل لك أن تشاركني بشيء من الشراب؟».

«هذا لطف كبير منك يا سيدي. ولكن شكرًا. أرجو أن تعذرني».

«قل لي يا ستيفنز، هل أنت بخير؟».

«جدًّا، يا سيدي وشكرًا». قلت ذلك ضاحكًا.

«ألست متوعكًا؟».

«لعلي متعب قليلًا، ولكني على أحسن حال. شكرًا، سيدي».

«طيب إذن، اجلس. فكما قلت لك نحن أصدقاء منذ زمن. وعليَّ أن أكون صادقًا معك. فأنا لم أجئ الليلة مصادفة كما لا شك خمَّنت. وصلني خبر. خبر عما يجري. هناك وراء الردهة في هذه اللحظة بالذات».

«نعم، سيدي».

«فأرجوك أن تجلس يا ستيفنز. أريد أن نتحدث كأصدقاء، وأنت تقف حاملًا هذه الصينية اللعينة وكأنك ستترك حالًا».

«أنا آسف، يا سيدي».

وضعت الصينية جانبًا وجلست في المقعد الذي أشار إليه السيد كاردينال جلسة تناسب المقام.

«هذا أفضل. والآن يا ستيفنز، قل لي هل إن رئيس الوزراء موجود حاليًّا في غرفة الاستقبال؟».

«رئيس الوزراء يا سيدي؟».

«طيب، طيب، لا بأس، لا عليك أن تقول لي. وأنا أفهم أنك في وضع حرج». تنهد السيد كاردينال عميقًا وظهر عليه الإعياء، وهو ينظر إلى أوراقه المتناثرة على منضدة الكتابة. ثم قال:

«لا أظن أنني بحاجة إلى أن أبيِّن لك مشاعري نحو فخامة اللورد. فهو بمثابة الأب الثاني لي. هل أحتاج إلى أن أقول هذا لك يا ستيفنز؟».
«كلَّا، يا سيدي».
«وهو يهمني كثيرًا».
«نعم، يا سيدي».
«وأنا أعرف أنك، أنت كذلك. فهو يهمك كثيرًا. صحيح، يا ستيفنز؟».
«صحيح، يا سيدي».
«طيب. نحن إذن نعرف وضعنا. ولكن يجب أن نواجه الحقائق. ففخامته غارق في مشاكل عميقة. وقد راقبته يغوص فيها أكثر فأكثر، وأنا قلق جدًّا. ولا أظنه قادرًا على النجاة والخروج منها. ولا أعتقد أنه يفهم ما يجري حوله. والموضوع أعمق مما يستطيع الخوض فيه».
«أهكذا، يا سيدي؟».
«يا ستيفنز، هل تعرف ماذا يجري في هذه اللحظة بالذات ونحن نجلس هنا ونتكلم؟ ماذا يجري على بعد خطوات منا؟ هناك في تلك الغرفة - ولست بحاجة إلى تأييدك - يجتمع في هذه اللحظة رئيس الوزراء البريطاني ووزير الخارجية والسفير الألماني. وقد فعل فخامة اللورد الأعاجيب لعقد الاجتماع، وهو يعتقد - ويعتقد بإخلاص - أنه يقوم بعمل جيد ومشرِّف. هل تدري لماذا جاء فخامته بهؤلاء السادة إلى هنا الليلة؟ هل تدري يا ستيفنز ماذا يجري هنا؟».
«لا أظن، يا سيدي».
«لا تظن. قل لي يا ستيفنز ألا تبالي أبدًا؟ أليس لديك شيء من الفضول للاطلاع على ما يجري. سبحان الله، يا رجل، فهناك شيء أساسي جدًّا يجري في هذا المنزل. أما عندك شيء من حب الاستطلاع على الإطلاق؟».
«ليس من شأني يا سيدي أن أكون فضوليًّا في هذه الأمور».
«ولكنك تهتم بفخامة اللورد. تهتم كل الاهتمام، فهكذا قلت لي الآن. فإذا كنت تهتم بفخامته ألا يجدر بك أن تقلق؟ أن تكون محبًّا لشيء من الاستطلاع على الأقل؟ لقد جاء مخدومك برئيس وزراء بريطانيا وسفير ألمانيا إلى هنا لإجراء محادثات سرية في هذه الليلة، وأنت لست حتى محبًّا للاستطلاع؟».
«لا أقول إنني لست محبًّا للاستطلاع يا سيدي. ولكن ليس من شأني أن أُظهر الفضول في هذه الأمور».
«ليس من شأنك، ها؟ وأظنك تحسب هذا ولاء. أليس كذلك؟ وهل تظن أنك بهذا تكون مخلصًا لفخامة اللورد؟ أو مخلصًا للعرش في هذا؟».
«آسف يا سيدي، ولكني لا أستطيع أن أفهم ماذا تريد».
تنهد السيد كاردينال مرة أخرى وهزَّ رأسه وقال: «أنا لا أريد أي شيء يا ستيفنز. وبصراحة، لا أعرف ماذا يجب أن نفعل. ولكن يمكنك في الأقل أن تكون محبًّا للاستطلاع».

وسكت لحظة كان يحملق خلالها حملقة ساهية في ما حول قدمي من السجاد. ثم قال:
«ألا تريد أن تشاركني في الشرب بالتأكيد يا ستيفنز؟».
«كلَّا يا سيدي، شكرًا».
«اسمع يا ستيفنز. فخامة اللورد يُستغفل. أجريتُ تحقيقات كثيرة، وأنا أعرف الحالة في ألمانيا الآن كما يعرفها الجميع في هذه البلاد. صدقني، فخامة اللورد يُستغفل».
لم أجب، ومضى السيد كاردينال يحدِّق ساهيًا في الأرض. بعد قليل أضاف يقول:
«فخامة اللورد رجل عزيز عليَّ جدًّا. ولكن الحقيقة هي أنه لا يفهم ما يجري حوله، والموضوع أعمق مما يستطيع الخوض فيه. ثم إنه يخدعه الغير. النازيون يخدعونه ويحركونه كأنه بيدق الشطرنج. هل لاحظت هذا يا ستيفنز؟ هل لاحظت أن هذا ما يجري في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة في الأقل؟».
«آسف يا سيدي، فأنا لم ألاحظ شيئًا من هذا القبيل».
«ألم يكن لديك ولو شيء من شك؟ شيء من شك بأن الهر هتلر يقوم، بوساطة صديقنا العزيز الهر ربنتروب، بخداع فخامة اللورد وتحريكه كبيدق الشطرنج، بالسهولة نفسها التي يخدع بها بيادقه الأخرى هناك في برلين ويحركها كما يشاء؟».
«آسف يا سيدي، لم ألاحظ شيئًا من هذا القبيل».
«أظنك لم تلاحظ يا ستيفنز، لأنك غير محب للاستطلاع. أنت ترى كل هذا يجري أمامك ولا يخطر ببالك أن تعرف حقيقته؟».
اعتدل السيد كاردينال قليلًا في كرسيه بحيث انتصب بعض الشيء، وظهر عليه لحظة أنه يتأمل في عمله الناقص على منضدة الكتابة القريبة. ثم قال:
«إن فخامة اللورد رجل مهذب. هذه هي العلة. إنه رجل مهذب، وقد خاض حربًا مع الألمان، ومن سليقته أن يعرض كرمه وصداقته على عدو مهزوم. هذه سليقته، لأنه رجل مهذب، رجل إنجليزي مهذب قُح. ولا بد أنك رأيت هذا، يا ستيفنز؟ كيف لا؟ الطريقة التي استخدموا بها هذا، تلاعبوا بهذا، وقلبوا الشيء الرائع والنبيل إلى شيء آخر، إلى شيء يمكنهم أن يستخدموه لأغراضهم الدنيئة؟ لا بد أنك رأيت هذا يا ستيفنز».
أخذ السيد كاردينال يحملق مرة أخرى بالأرض. ظل صامتًا بضع لحظات ثم قال:
«أتذكُر جئت إلى هنا قبل سنين، وكان يوجد ذلك الأمريكي. كنا في مؤتمر كبير. والدي شارك في تنظيمه. أتذكر ذلك الأمريكي، مخمورًا حتى أكثر مني الآن، فقام أمام الجميع عند العشاء. وأشار إلى فخامة اللورد ودعاه بالهاوي. بالهاوي الأخرق وقال إنه لا يفهم ما يجري حوله والموضوع أعمق مما يستطيع

الخوض فيه. على كلٍّ، يجب أن أقول يا ستيفنز إن ذلك الأمريكي كان على حق. هذه من حقائق الحياة. وعالم اليوم أحقر من أن يستوعب غرائز رائعة ونبيلة. أنت رأيت هذا بنفسك يا ستيفنز، أليس كذلك؟ الطريقة التي تلاعبوا بها بشيء رائع ونبيل. رأيتها بنفسك، أليس كذلك؟».

«آسف يا سيدي، لا أستطيع أن أدعي أنني رأيت ذلك».

«لا تستطيع. طيب. أنا لا أعرف ماذا ستفعل أنت، أما أنا فسأفعل شيئًا بخصوص هذا. لو كان أبي حيًّا لعمل شيئًا لإيقافه».

لزم السيد كارديnال الصمت مرة أخرى، وبدت عليه عندئذ كآبة سوداوية لعلها نشأت عما أثاره من ذكريات عن والده المُتوفَّى. أخيرًا قال: «هل ترضى يا ستيفنز أن ترى فخامة اللورد يسقط في الهاوية هكذا؟».

«آسف، يا سيدي، ولكني لا أفهم تمامًا ما تشير إليه».

«لا تفهم يا ستيفنز. طيب. نحن أصدقاء وسأصارحك. ففي السنوات الأخيرة كان فخامة اللورد أنفع بيدقة استخدمها الهر هتلر في هذه البلاد لأغراض أحابيله الدعائية. وكان ذلك شيئًا ممتازًا لأن الرجل مخلص وشريف ولا يدرك طبيعة ما يقوم به. ففي السنوات الثلاث الأخيرة وحدها كان فخامته فعالًا جدًّا في إقامة صلات بين برلين وبين أكثر من ستين من الشخصيات ذات النفوذ في هذه البلاد. وكان ذلك في صالحهم جدًّا وفعل فعله على أروع ما يكون. تمكن الهر ربنتروب أن يتخطَّى وزارة الخارجية من الناحية الفعلية، تخطاها كليًّا. وكأنه لم يكن كافيًا ما أقامه النازيون من اجتماعهم الجماهيري التعيس ومن ألعابهم الأولمبية التعيسة، فهل تدري ماذا يريدون الآن ودفعوا فخامة اللورد للعمل على تحقيقه؟ هل تدري؟ هل لديك فكرة عما يُبحث الآن هنا؟».

«كلَّا يا سيدي».

«فخامة اللورد يحاول إقناع رئيس الوزراء نفسه بقبول دعوة لزيارة الهر هتلر. وهو يعتقد كل الاعتقاد أن رئيس الوزراء يسيء فهم النظام الألماني الحالي بشكل فظيع».

«وما المانع في هذا يا سيدي؟ فقد سعى فخامة اللورد على الدوام إلى تحسين التفاهم بين الأمم».

«وليس هذا فقط يا ستيفنز. ففي هذه اللحظة بالذات، إلا إذا كنت مخطئًا جدًّا، في هذه اللحظة بالذات يقوم فخامة اللورد ببحث فكرة زيارة صاحب الجلالة نفسه للهر هتلر. وليس سرًّا أن ملكنا الجديد كان دائمًا متحمسًا للنازيين. والظاهر أنه الآن على استعداد لقبول دعوة هتلر. في هذه اللحظة بالذات يا ستيفنز يعمل فخامة اللورد كل ما يستطيع لإزالة اعتراضات وزارة الخارجية على هذه الفكرة الشنيعة».

«أنا آسف يا سيدي، ولكني لا أعتقد أن فخامة اللورد يمكن أن يعمل إلا ما هو رفيع ونبيل. وهو يعمل، ما وسعه العمل، على أية حال، على أن يستمر السلام سائدًا في أوروبا».

«قل لي يا ستيفنز هل يخطر لك أنني ربما أكون مصيبًا؟ ألا تحب الاستطلاع في الأقل عما أقوله، فضولًا منك لمعرفة حقيقة كلامي؟».
«أنا آسف يا سيدي، ولكن لا بد لي أن أقول إنني أثق كل الثقة بقدرة فخامة اللورد على الحكم الصائب على الأمور».
«لا يمكن لمن يقدر على الحكم الصائب أن يستمر في تصديق أي شيء يقوله الهر هتلر بعد بلاد الراين يا ستيفنز. فخامة اللورد لا يفهم ما يجري حوله والموضوع أعمق مما يستطيع الخوض فيه. ماذا؟ هل أسأت لك؟».
قلت: «كلَّا يا سيدي أبدًا».
ذلك أنني نهضت عند سماعي الجرس بطلبي إلى غرفة الاستقبال، مما أثار ظنون الرجل. طمأنته قائلًا: «أنا مطلوب من قبلهم، فأرجو أن تسمح لي».
كانت غرفة الاستقبال تعج بالدخان. نعم، فقد كان أولئك السادة أصحاب الشأن لا يزالون يدخنون السيجار وعلى وجوههم سمات المهابة، لا ينطقون بشيء، في حين طلب فخامة اللورد أن آتي بقنينة فاخرة للغاية من نبيذ البورت من القبو.
في مثل هذا الوقت من الليل تثير خطوات المرء وهو ينزل السلم الخلفي صوتًا ظاهرًا، ولا شك أن خطواتي هي التي أيقظت الآنسة كنتون. إذ ما إن تلمست طريقي في ظلمة الرواق حتى انفتح باب غرفتها وظهرت في العتبة، يضيء جسدها الضياء الداخلي في الغرفة. قلت عند اقترابي منها: «من الغريب أن أجدك في الطابق السفلي حتى الآن، يا آنسة كنتون».
«يا سيد ستيفنز، أنا كنت حمقاء جدًّا قبل قليل».
«اعذريني يا آنسة كنتون فليس لديَّ وقت للكلام الآن».
«يا سيد ستيفنز. يجب ألا تتأثر أبدًا من شيء قلته سابقًا. كنت حمقاء، وما قلته حماقة مني لا أكثر ولا أقل».
«لم أتأثر من أي شيء قلته يا آنسة كنتون. والواقع لا أتذكر ما الذي تشيرين إليه. هناك أحداث ذات أهمية عظمى تجري في الطابق العلوي ولا أستطيع التوقف لتبادل المجاملات معك. وأقترح أن تذهبي وتنامي».
قلت هذا وهرعت ماشيًا، وعندما وصلت باب المطبخ خيَّم الظلام على الرواق مرة أخرى فعلمت أن الآنسة كنتون قد أغلقت بابها.
لم أستغرق وقتًا طويلًا للعثور على القنينة المطلوبة في القبو ولتهيئة اللوازم لتقديمها. وإنه لحينئذٍ، وبعد بضع دقائق فقط من مقابلتي القصيرة للآنسة كنتون، وجدت نفسي أسير عائدًا في الرواق مرة أخرى. حاملًا صينية هذه المرة. مررت بباب الآنسة كنتون فعلمت من الضياء المشع في حواشي الباب وخِصاصه أنها لا تزال في الداخل. وتلك كانت هي اللحظة، وأنا على يقين تام الآن، التي ظلت ثاوية بإصرار في ذاكرتي - اللحظة التي توقفت فيها في عتمة الرواق، والصينية بين يديَّ، ويشتد في نفسي اعتقاد يتنامى باستمرار بأن على بعد بضع خطوات فقط مني، في الجانب الآخر من ذلك الباب، كانت الآنسة

كنتون في تلك اللحظة تبكي. لم يكن عندي، كما أتذكّر، أي دليل حقيقي يثبت هذا الاعتقاد - ولم أسمع جهشات بالتأكيد - ومع هذا أتذكَّر أنني كنت على يقين لو أني طرقت الباب ودخلت لوجدتها تسكب الدموع. لا أدري كم طال وقوفي هناك؛ بدا لي في ذلك الوقت طويلًا وهو في حقيقته ليس إلا بضع ثوانٍ. فقد كان عليَّ، بالطبع، أن أهرع إلى الطابق العلوي لخدمة الأعاظم من سادة البلاد، ولا يمكنني أن أتصور تأخري في الرواق بلا مبرر.

حين عُدت إلى غرفة الاستقبال وجدت السادة وهم على حالهم الجدي الذي كانوا عليه. ولم تسنح لي الفرصة لتكوين فكرة عن الجو السائد أكثر من هذا، إذ ما إن دخلت حتى تناول فخامة اللورد ما أحمله قائلًا: «شكرًا يا ستيفنز. أنا سأقوم بما يلزم».

عبرت الردهة مرة أخرى واتخذت موقعي المعتاد تحت القوس، ولم يحدث ما يجعلني أتحرك منه خلال الساعة التالية، أي حتى غادر السادة نهائيًّا. مع هذا فإن الساعة التي قضيتها واقفًا هناك ظلت حية في ذهني مدى السنين. كان مزاجي في البداية، وأقولها بصراحة، عكرًا بعض الشيء. لكن عند استمراري بالوقوف هناك أخذ بالحدوث شيء غريب؛ بعبارة أخرى بدأ شعور عميق بالانتصار ينبجس في باطني. لا أستطيع أن أتذكر مدى تحليلي لهذا الشعور في حينه، أما اليوم وأنا أعيد النظر فيه فلا يصعب عليَّ تفسيره. فلقد كنت مررت بليلة مضنية جدًّا حتى النهاية استطعت خلالها أن أحافظ على «وقار يتفق مع مركزي» - بل حافظت عليه بطريقة كان حتى أبي سيفخر بها. وهناك عبر الردهة، خلف الأبواب ذاتها التي لم يغادرها نظري، وفي داخل الغرفة ذاتها التي قمت فيها للتو بواجباتي، كان أقوى رجال القوم في أوروبا مجتمعين للنظر في مصير قارتنا. فمن يشك في أنني في تلك اللحظة كنت على مقربة من مركز الأحداث قربًا يمكن أن يتمناه أي رئيس للخدم في العالم؟ لذا أفترض، وقد وقفت هناك أفكر بأحداث الليلة - ما تكشف منها وما لم يتكشف بعد - أن تلك الأحداث بدت لي إجمالًا من نوع ما لكل ما استطعت تحقيقه في حياتي حتى ذلك الحين. وأنا بعد هذا لا أستطيع أن أجد تفسيرًا مقنعًا آخر لذلك الشعور بالانتصار الذي جعلني أشعر في تلك الليلة بالرفعة وعلوِّ الشأن.

اليوم السادس - مساء

وايموث

هذه المدينة الساحلية مكان كنت أفكر بالمجيء إليه منذ سنين فقد سمعت من شتى الناس أنهم قضوا هنا عطلة لطيفة، كما أن السيدة سايمونز تحدثت عنها في كتابها «أعجوبة إنجلترا» وسمَّتها «مدينة يمكنها أن تسلِّي الزائر تسلية تامة لعدد متواصل من الأيام». والواقع أن المؤلفة تشير إشارة خاصة إلى هذا الرصيف البحري الذي أتجول فيه منذ نصف ساعة، وهي توصي بالذات بزيارته عند الأصيل حين يضاء بمصابيح من شتى الألوان. وقد فهمت قبل لحظات من أحد المسؤولين عن الرصيف أن المصابيح ستضاء قريبًا، لذلك قررت الجلوس هنا على هذه المصطبة لكي أنتظر الحدث. أرى الآن من هنا مشهدًا بديعًا لغروب الشمس على سطح مياه البحر، كما أرى عددًا من المصابيح يضاء هنا وهناك على طول الساحل رغم أن ضياء النهار لا يزال وفيرًا، وقد كان حقًّا نهارًا رائعًا. في هذه الأثناء ظل الرصيف حافلًا بالناس؛ فأنا أسمع من خلفي وقع الأقدام العديدة في سير لا ينقطع على هذه الألواح الخشبية.

وصلت إلى هذه المدينة أمس عصرًا، فقررت البقاء ليلة ثانية هنا لكي أتيح لنفسي قضاء يوم كامل على مهل. ولا بد لي أن أقول إنني شعرت بالارتياح لعدم اضطراري إلى السياقة؛ فمع أن السياقة شيء ممتع ولكن المرء يتعبه الدوام عليها. وعلى أية حال فإن بوسعي أن أتيح لنفسي الوقت، من دون التزام بشيء، للبقاء يومًا إضافيًّا هنا؛ إن مغادرتي المبكرة غدًا ستضمن لي العودة إلى قصر دارلنغتون وقت تناول الشاي عصرًا.

لقد مضى عليَّ يومان كاملان منذ لقائي مع الآنسة كنتون في ردهة الشاي في فندق حديقة الورد في ليتيل كومبتون. أجل، فهناك التقينا، لأن الآنسة كنتون باغتتني بمجيئها بنفسها إلى الفندق. كنت أقتل الوقت بعد انتهائي من الغداء - وأعتقد أنني كنت أنظر إلى المطر من النافذة قرب مائدتي، حين جاءني أحد موظفي الفندق وأخبرني أن سيدة ترغب في رؤيتي في ردهة الاستقبال. نهضت وذهبت إلى هناك فلم أجد أحدًا أعرفه. عند ذاك قالت لي موظفة الاستقبال من وراء العارضة: «السيدة في ردهة الشاي يا سيدي».

ذهبت إلى حيث الباب الذي أشارت إليه ودخلت فوجدت غرفة مليئة بالكراسي غير المتناسقة مع بعضها، مع موائد مختلفة مما يُتخذ لأغراض متنوعة. لم يكن هناك في الغرفة من أحد عدا الآنسة كنتون التي نهضت عند دخولي وابتسمت ومدت يدها لي.

«آه، السيد ستيفنز. ما ألطف أن أراك مرة أخرى».
«السيدة بن. ما أروع هذا».
كان النور معتمًا جدًّا في الغرفة بسبب المطر، لذا حملنا كرسيين إلى مقربة من النافذة الفسيحة. وهناك تحدثنا أنا والآنسة كنتون نحوًا من ساعتين، في بركة الضياء الداكن والمطر يهطل دون انقطاع في الميدان أمامنا. إنها بطبيعة الحال هرمت بعض الشيء ولكنها بدت، في ناظري في الأقل، كأنها بلغت هذا العمر المتقدِّم بشكل جميل جدًّا. فقد ظل قوامها رشيقًا، وقامتها منتصبة كما كانت دائمًا. وقد حافظت كذلك على طريقتها القديمة في رفع رأسها بوضع يتاخم التحدي. وبالطبع لم يكن هناك مناص من أن ألاحظ، في الضوء القاتم على وجهها، تلك الخطوط التي ظهرت هنا وهناك. ولكن على العموم فإن الآنسة كنتون التي أرى أمامي بدت شبيهة بصورة مدهشة بالتي ثوت في ذاكرتي على مدى السنين. وأعني أنه كان من اللطيف جدًّا، بصورة عامة، أن أراها مرة أخرى.
تبادلنا في العشرين دقيقة الأولى أو نحوها ذلك النوع من الكلام الذي قد يتبادله الغرباء؛ فقد استفسرت مني بأدب جم عن رحلتي حتى الآن، وكيف أقضي عطلتي، وما المدن التي مررت بها وماذا شاهدت فيها من معالم بارزة، وما إلى ذلك. على أنني أخذت ألاحظ ونحن نواصل الحديث مزيدًا من التغيرات الدقيقة التي تركتها عليها السنون. مثلًا، ظهر لي أن الآنسة كنتون كانت «أبطأ» إلى حدٍّ ما، من المحتمل أن هذه الظاهرة ما هي إلا السكينة التي ترافق العمر المتقدِّم، وقد حاولت جاهدًا أن أراها هكذا مدة من الزمن. ولكنني لم أستطع إلا أن أشعر بأن ما أراه حقًّا هو الملل من الحياة؛ فالشرارة التي كانت تجعلها تتدفق بالحيوية، وتجعلها أحيانًا متقلبة الأطوار، قد انطفأت. بل خُيِّل لي بين آونة وأخرى، حين لم تكن تتكلم ووجهها في سكون، أنني رمقت شيئًا يشبه الحزن في ملامح وجهها. على أني ربما كنت مخطئًا في هذا.
بعد قليل، وعندما تبدد التحفظ الذي ساد الدقائق الأولى من لقائنا تبددًا تامًّا، اتخذ حديثنا طابعًا شخصيًّا. قضينا بعض الوقت ونحن نروي الذكريات عن مختلف الأشخاص الذين عرفناهم في الماضي، ونتبادل ما لدينا من أخبار عنهم، وكان هذا شيئًا ممتعًا للغاية. أما الذي كان يُستدعى من طيات السنين استدعاء لا شائبة فيه، فهو ما كانت تنطوي عليه أحاديثنا من إيقاعات وعادات. فلم يكن محتوى حديثنا بل ابتساماتها البسيطة التي تقفو جُملها ونبراتها الساخرة العابرة هنا وهناك وإيماءاتها الخاصة التي تظهر على كتفيها أو على اليدين؛ كل هذا لم يتغيَّر.
استطعت كذلك حينئذٍ أن أتبيَّن بعض الحقائق عن ظروفها الراهنة. مثلًا فهمت أن زواجها لم يكن في ذلك الوضع المهدَّد الذي يمكن أن يُفترض من رسالتها؛ نعم، كانت تركت بيت الزوجية مدة تتراوح بين أربعة أيام وخمسة - كتبت خلالها الرسالة التي تسلمتها - ولكنها عادت إلي بيتها وقد سُرَّ السيد بن

جدًّا بعودتها. قالت وهي تبتسم: «من حسن الحظ أن أحدنا عاقل في هذه الأمور».

أنا أدرك بالطبع أن هذه الأمور ليست من شأني، وعليَّ أن أوضح أني لم يخطر ببالي قَطُّ أن أتدخل في هذه المسائل لولا وجود أسباب مهنية مهمَّة، لعلك تتذكرها، تدعوني إلى ذلك؛ وأعني ما يتعلق بمشاكل النقص الحالي في عدد المستخدمين في قصر دارلنغتون. ولكن الآنسة كنتون لم تمانع، على أية حال، في أن تُسرَّ لي بهذه الأمور، وقد اعتبرت موقفها هذا دليلًا يشرح الصدر على قوة علاقة العمل الوثيقة التي كانت تربطنا فيما مضى.

بعد ذلك بقليل أخذت الآنسة كنتون تتكلم، على ما أتذكر، كلامًا عامًّا عن زوجها الذي سيتقاعد قريبًا لأسباب صحية، وعن ابنتها التي هي الآن متزوجة وتنتظر ولادة طفل لها في الخريف. الواقع أن الآنسة كنتون أعطتني عنوان ابنتها في دورسيت، وقد أشبع كبريائي ما أبدته من حماسة في طلبها بأن أزورها في رحلة العودة. ومع أنني أوضحت لها أن من غير المحتمل أن أمر بتلك المنطقة من دورسيت فقد استمرت تلح قائلة: «إن كاترين قد سمعت كل شيء عنك يا سيد ستيفنز. سيفرحها كثيرًا أن تلتقيك».

أما من ناحيتي فقد حاولت أن أصف لها، على أحسن ما أستطيع، قصر دارلنغتون كما هو عليه اليوم. حاولت أيضًا أن أنقل إليها ما معناه أن السيد فاراداي هو من ألطف المخدومين؛ كما وصفت التغييرات التي جرت في القصر نفسه، كالتبديلات الواقعة والأغطية الموضوعة على الأثاث لحمايته من الغبار، فضلًا عن الترتيبات الحالية الخاصة بالمستخدمين. خُيِّل لي أن الآنسة كنتون أظهرت ارتياحًا، وبدت في حال أسعد مما كانت عليه حين تكلمت عن القصر، وما هي إلا دقائق حتى أخذنا نحكي معًا ذكرياتنا القديمة من شتى الأنواع، ونضحك مرارًا في أثناء حديثنا عنها.

لا أتذكر أننا جئنا على ذكر اللورد دارلنغتون إلا مرة واحدة. كنا نستمتع بحكاية هذه الذكرى أو تلك بشأن السيد كاردينال الصغير، فاضطررت فيما بعد أن أخبر الآنسة كنتون أن الشاب قُتل في بلجيكا أثناء الحرب. أضفت قائلًا: «كان فخامة اللورد بالطبع، محبًّا جدًّا للسيد كاردينال فتأثر للحادث تأثرًا كبيرًا».

لم أشأ أن أفسد الجو اللطيف السائد بكلام محزن، لذلك حاولت على الفور أن أدع الموضوع جانبًا. ولكن الآنسة كنتون كانت، كما كنت أخشى، قد قرأت عن قضية دعوى القذف الفاشلة، فكان لا بد لها أن تنتهز الفرصة لتستنطقني قليلًا. قاومت على ما أتذكر إلى حدٍّ ما حتى لا أستدرج وإن كنت قلت لها في النهاية: «الحقيقة، يا سيدة بن، هي أن الكثير من الأشياء الفظيعة حقًّا قد قيلت بحق فخامة اللورد طوال سنوات الحرب - ومن تلك الجريدة على الأخص، تلك الجريدة. وقد تحمَّل فخامته كل شيء حين كانت البلاد لا تزال مهددة بالأخطار، ولكن ما إن انتهت الحرب واستمر التعريض به حتى وجد أن من غير المعقول أن يواصل الشقاء بصمت. لعل من السهولة بمكانٍ الآن أن

نرى مخاطر اللجوء إلى المحاكم في ذلك الوقت بالذات، خاصة أن المناخ السائد كان كما كان عليه. ولكن ما العمل؟ اعتقد فخامة اللورد بإخلاص أن المحكمة ستنصفه بإحقاق الحق. وبدلًا من ذلك حققت الجريدة، بالطبع، زيادة في التوزيع. أما الاسم الطيِّب لفخامة اللورد فقد قُضي عليه إلى الأبد. نعم، يا سيدة بن، كان فخامته فيما بعد كالمريض العاجز. وخيَّم على القصر هدوء تام. كنت آخذ الشاي إليه في غرفة الاستقبال فـ... نعم، كان الوضع مأساويًّا للغاية جدًّا».

«أنا آسفة جدًّا يا سيد ستيفنز. لم أكن أظن أن الأمور كانت بمثل هذا السوء».

«أي نعم، يا سيدة بن، ولكن كفانا هذا. وأنا أعرف أنك تتذكرين قصر دارلنغتون في الأيام التي كان يحفل فيها بالمناسبات الكبرى ويعج بمشاهير الزوار. وهكذا يجدر بنا أن نتذكر فخامة اللورد».

كانت هذه، كما قلت، المرة الوحيدة التي ذكرنا فيها اللورد دارلنغتون. انشغلنا في الدرجة الأولى بتبادل الذكريات الجميلة، فكانت الساعتان اللتان قضيناهما معًا في ردهة الشاي من الساعات اللطيفة جدًّا. أتذكَّر أن بعض النزلاء دخلوا الردهة ونحن نتكلم، وجلسوا بعض الوقت ثم انصرفوا، ولكنهم لم يلهونا عما كنا فيه بأي شكل من الأشكال على الإطلاق. والواقع أن المرء لا يكاد يصدق أن ساعتين كانتا قد انقضتا حين نظرت الآنسة كنتون إلى الساعة التي على رف الموقد وقالت إن عليها أن تعود إلى البيت. وإذ كان عليها أن تسير في المطر إلى موقف حافلة الركاب، وهو يقع خارج القرية بمسافة قصيرة أصررت على أن أوصلها إلى هناك بالفورد، فهكذا وبعد أن حصلنا على مظلة من مكتب الاستقبال خرجنا إلى الشارع معًا.

كانت قد نشأت مخاضة واسعة حول المكان الذي تركت فيه السيارة مما اضطرني إلى أن أساعد الآنسة كنتون قليلًا لكي أتيح لها أن تصل إلى باب المقعد الأمامي. ثم سرعان ما كنا نسوق في شارع القرية العام، وبعد قليل اختفت الدكاكين فإذا بنا في الريف. كانت الآنسة كنتون تجلس بهدوء وهي تراقب المناظر التي تمر أمامها، ثم التفتت نحوي قائلة: «لماذا تبتسم مع نفسك هكذا، يا سيد ستيفنز؟».

«أوه... اسمحي لي إذن أن أقول، يا سيدة بن، إنني كنت أستعرض في ذهني بعض الأمور التي وردت في رسالتك فقلقت إلى حدٍّ ما حين قرأتها، ولكني لا أجد مبررًا للقلق الآن».

«أوه. وما هذه الأمور يا سيد ستيفنز؟».

«ليس شيئًا معينًا بذاته».

«ولكن يجب أن تخبرني، أرجوك».

«إذن، أتذكر مثلًا أنكِ كتبتِ في رسالتك يا سيدة بن - دعيني أتذكر جيدًا - كتبت تقولين «إن البقية الباقية من حياتي تمتدِ أمامي كأنها فراغ في فراغ».

شيء من هذا القبيل». قلت هذا وأنا أضحك قليلًا.
فأجابتني وهي تضحك قليلًا أيضًا، قائلة: «حقًّا يا سيد ستيفنز؟ دعك من هذا، فلا أتصور أنني كتبت شيئًا كهذا».
«أؤكد لكِ ذلك، وأنا أتذكره بوضوح».
«يا ويلتي. ولكن، ربما تمر عليَّ بعض الأيام التي أشعر فيها مثل هذا الشعور. ولكنها تنقضي سريعًا. صدقني يا سيد ستيفنز إن حياتي لا تمتد أمامي امتدادًا فارغًا. فأولًا نحن ننتظر بلهفة ولادة الحفيد. حفيدنا الأول والبقية تأتي».
«نعم، صحيح. سيكون هذا رائعًا لك».
سقنا بهدوء بضع دقائق أخرى، ثم قالت الآنسة كنتون: «وما الحال بالنسبة لك يا سيد ستيفنز؟ وما الذي يخبئه المستقبل لك هناك في قصر دارلنغتون؟».
«أنا أعرف، في جميع الأحوال، أنني لا أتوقع أن ينتظرني الفراغ. ليته كان. ولكن هيهات، فأمامي العمل، ومزيد من العمل».
فضحكنا معًا. ثم أشارت الآنسة كنتون إلى سقيفة وقوف الحافلة تظهر بادية أمامنا في الطريق. قالت عند اقترابنا منها: «هل تنتظر معي يا سيد ستيفنز؟ الحافلة ستصل خلال بضع دقائق».
كان المطر لا يزال يهطل باطِّراد عند نزولنا من السيارة فأسرعنا نحو السقيفة. بدت وهي مبنية بالحجر مع سقف من القرميد، حصينة جدًّا كما يجب أن تكون وهي في ذلك المكان المعرض للأنواء تحيطها الحقول المفتوحة. أما في الداخل فقد كان دهان الصبغ مقشوطًا في كل مكان، ولكن المكان كان نظيفًا بمقدار. جلست الآنسة كنتون على المصطبة الموضوعة هناك، أما أنا فبقيت واقفًا حيث يمكنني أن أشرف على مرأى الحافلة القادمة. كل ما كنت أراه على الجانب الآخر من الطريق هو حقول وراء حقول؛ وخط من أعمدة البرق يقود ناظريَّ فوقها إلى مدى بعيد.
بعد أن انتظرنا بضع دقائق صامتين لملمت أخيرًا أطراف جرأتي وقلت:
«اسمحي لي يا سيدة بن، فنحن قد لا نلتقي مرة أخرى أمدًا طويلًا. ولا أدري هل تبيحين لي أن أسألك عن شيء ذي طبيعة شخصية نوعًا ما. شيء يشغل بالي منذ مدة؟».
«مؤكد يا سيد ستيفنز. فنحن على أية حال أصدقاء قدامى».
«نعم، نحن أصدقاء قدامى كما تقولين. وما هو إلا سؤال مني. ولكِ إذا شئتِ ألا تجيبي، أرجوك. ولكن الرسائل التي تلقيتها منك على مدى السنين، لا سيما رسالتك الأخيرة، تميل إلى الإيحاء بأنك، بأنك - ماذا أقول؟ - بأنك بالأحرى غير سعيدة. فهل يا تُرى تُساء معاملتك بشكل ما؟ وأرجو المعذرة، ولكن هذا كما قلت شيء أقلقني طويلًا. سيكون من الحماقة أن أسافر كل هذه المسافة وأراكِ فلا أسألكِ في الأقل».

«يا سيد ستيفنز، لا داعي لمثل هذا الحرج. فنحن على أية حال أصدقاء قدامى، أليس كذلك؟ والواقع أنني شاكرة لك جدًّا هذا الاهتمام الكبير. وأستطيع أن أريح بالك حول هذا الأمر على نحو قاطع. إن زوجي لا يسيء معاملتي على الإطلاق بأي شكل من الأشكال. إنه ليس رجلًا قاسيًا بأية صورة من الصور ولا هو عصبي المزاج».

«هذا يخفف إذن مما يشغل بالي».

انحنيت إلى الأمام أنظر إلى المطر، مستطلعًا مجيء الحافلة.

فقالت الآنسة كنتون: «أراك غير مقتنع يا سيد ستيفنز، ألا تصدقني؟».

«لا، لا، ليس هذا، يا سيدة بن، على الإطلاق. إنما، الحقيقة واضحة، فأنتِ على ما يبدو لم تكوني سعيدة طوال هذه السنين. وأعني - وأرجو أن تعذريني - أنكِ بادرتِ إلى ترك زوجك في عدد من المناسبات. فإن لم يكن يسيء معاملتك فالمسألة إذن... نعم، محيِّرة وغامضة فيما يتعلق بسبب شقائك».

نظرت إلى زخَّات المطر في الخارج مرة أخرى. أخيرًا سمعت الآنسة كنتون تحدثني من خلفي قائلة: «يا سيد ستيفنز، كيف أشرح الوضع؟ لا أعرف أنا شخصيًّا لماذا أقوم بمثل هذه الأشياء. ولكن، نعم، صحيح، تركت ثلاث مرات حتى الآن».

توقفت لحظة، فيما واصلت أنا النظر إلى الخارج نحو الحقول على الجانب الآخر من الطريق. ثم قالت: «أظن أنك تسألني، يا سيد ستيفنز، هل أحب زوجي أم لا؟».

«مهلًا، يا سيدة بن، فأنا لا يمكنني أن...».

«أنا أشعر أن عليَّ أن أجيبك، يا سيد ستيفنز، وكما تقول فقد لا نلتقي مرة أخرى مدة سنوات. نعم، أنا أحب زوجي، لم أكن أحبه في البداية مدة طويلة. وحين تركت قصر دارلنغتون بعد كل تلك السنين الماضية لم أدرك قَطُّ أنني أترك فعلًا وحقًّا. أعتقد أنني حسبت تركي مجرد حيلة أخرى، يا سيد ستيفنز، لإغاظتك. وكانت صدمة لي أن أصل إلى هنا وأجد نفسي متزوجة. كنت غير سعيدة جدًّا فترة طويلة، غير سعيدة فعلًا. ولكن بمرور الزمن، سنة بعد أخرى، ووقوع الحرب، وكاترين تكبر، أدركت ذات يوم أنني أحب زوجي. أنت تقضي وقتًا طويلًا مع فرد من الناس فتتعود عليه. وزوجي رجل كريم الخلق وهادئ الأعصاب، وأنا يا سيد ستيفنز، نعم، أنا تعودت على حبه».

سكتت الآنسة كنتون مجددًا ثم مضت تقول بعد لحظات: «ولكن هذا لا يعني بالطبع، أنه لم تكن هناك مناسبات بين حين وآخر - مناسبات كئيبة وبائسة للغاية - وأقول فيها لنفسي: «ما أفظع الخطأ الذي ارتكبته بحق نفسي». ثم أفكر بحياة أخرى، بحياة أفضل، نعم أفضل، كان يمكن لي أن أحياها. فمثلًا، أعود فأفكر بحياة كان يمكن أن أحياها معك يا سيد ستيفنز. وأظن أن هذا يحدث لي حين يمتلكني الغضب عن أمور تافهة فأترك. ولكن كلما أترك. أدرك

سريعًا بأن مكاني الشرعي هو مع زوجي. وعلى أية حال، لا مجال الآن لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء. وعلى المرء أن يدرك أن حياته جيدة كحياة الغالبية، وربما أحسن، وعليه أن يكون شاكرًا».

لا أظن أنني أجبتها في الحال، لأنني استغرقت لحظات لكي أعي تمامًا الكلمات التي قالتها. كما أن منطوياتها، كما ستقدر، كانت مما يثير فيَّ درجة معينة من الحزن. ولماذا لا أقولها؟ ففي تلك اللحظة كان قلبي يتمزق. على أني استدرت من بعد نحوها وقلت لها باسمًا: «هذا عين الصواب يا سيدة بن. وكما قلتِ فقد فات الأوان كثيرًا لإرجاع عقارب الساعة إلى الوراء. أما أنا فما كان سيرتاح لي بال لو بقيت أفكر بأسباب تنغِّص السعادة عليكِ وعلى زوجك. وعلى كل منا، كما أشرت أنتِ، أن يكون شاكرًا لما بين يديه. وأنا أستنتج مما قلته أن لديكِ من الأسباب أن تكوني قانعة راضية. بل سأقول، بالنظر لقرب تقاعد السيد بن ولأن أحفادكما في الطريق. نعم سأقول إن أمامكما عددًا من السنين السعيدة جدًّا. ويجب أن لا تفسحي المجال أبدًا لأفكار طائشة أن تقف حائلًا بينك وبين السعادة التي أنتِ جديرة بها».

«أنت على حق طبعًا يا سيد ستيفنز. أنت في غاية اللطف».

«انظري، فهذه الحافلة قادمة الآن».

خرجت وأشرت بيدي فيما كانت الآنسة كنتون تنهض وتأتي إلى حافة السقيفة. لم أنظر إليها إلا بعد أن وقفت الحافلة فأدركت أن عينيها كانتا تفيضان بالدموع. ابتسمت وقلت: «والآن، يا سيدة بن، يجب أن تعتني بنفسك عناية طيبة. يقول البعض إن فترة التقاعد هي أحسن فترات الحياة بالنسبة للمتزوجين. ويجب أن تقومي بكل ما تستطيعين لكي تجعلي هذه السنين حافلة بالسعادة لكِ ولزوجك. نحن قد لا نلتقي أبدًا مرة أخرى، لذا أطلب منك أن تولي ما أقوله كل الاهتمام».

«سأفعل يا سيد ستيفنز، شكرًا. شكرًا على إيصالك لي. كان منتهى اللطف منك. وكان لطيفًا جدًّا أن أراك مرة أخرى».

«كانت مسرتي عظيمة أن أراكِ مرة أخرى، يا سيدة بن».

أضيئت مصابيح الرصيف وسمعت من ورائي جمهرة من الناس وقد أطلقوا للتو هتافًا عاليًا للحفاوة بهذا الحدث. لا يزال هناك كثير من ضوء النهار باقيًا - والسماء من فوق البحر قد تحولت إلى لون أحمر باهت - ولكن يبدو لي أن كل هؤلاء الناس الذين تجمعوا على هذا الرصيف في نصف الساعة الأخير يريدون الآن أن يرخي الليل سدوله. وهذا يؤكد بشكل مناسب، على ما أفترض، ما قاله الرجل الذي كان حتى وقت قصير يجلس هنا إلى جانبي على هذه المصطبة؛ تبادلت معه حديثًا طريفًا. فقد زعم أن الأصيل بالنسبة لعدد كبير من الناس هو أحسن أوقات النهار، وهو الوقت الذي يتطلع إليه الكثيرون. وأرى أن هنالك، فيما يظهر، شيئًا من الحقيقة في هذا الزعم، إذ لم ينطلق كل هؤلاء الناس في هتاف فوري لمجرد إضاءة مصابيح الرصيف لولا صحة ذلك الزعم؟

كان الرجل بالطبع يتكلم على سبيل التورية، ولكن من المثير للاهتمام بعض الشيء أن أجد كلماته وقد تحققت فورًا على الصعيد الحرفي. أظن أن الرجل كان يجلس إلى جانبي هنا مدة دقائق من دون أن ألاحظه، فقد كنت مستغرقًا استغراقًا شديدًا باستذكار لقائي مع الآنسة كنتون قبل يومين. والواقع أنني لم أشعر بوجوده على المصطبة على الإطلاق حتى قال بصوت مرتفع: «هواء البحر ينفعك كثيرًا».

رفعت نظري فرأيت رجلًا عريض المنكبين، لعله في أواخر الستينات من عمره. يرتدي سترة من القماش الصوفي أبلاها الاستعمال، وقد فتح قميصه عند الرقبة. كان يحدِّق بعيدًا بالبحر ولعله يراقب النوارس في الأفق البعيد، لذلك لم يكن من الواضح لي أنه كان يخاطبني. ولكن بما أن أحدًا آخر لم يجبه، وبما أنني لم أر بالقرب منا أحدًا يمكن أن يجيبه، قلت أخيرًا: «نعم، هذا صحيح».

«الطبيب يقول هواء البحر ينفعك. لذا أجيء إلى هنا كلما سمح الجو».

مضى الرجل يحدثني عن علله المختلفة، وهو لا يرفع نظره عن مشهد المغيب إلا لكي يهزَّ لي رأسه أو يكشِّر في وجهي. والحقيقة أنني لم أعره أي انتباه إلا حين ذكر عرضًا أنه كان حتى تقاعده قبل ثلاث سنوات رئيسًا للخدم في منزل قريب. وعندما استفسرت منه تبيَّن لي أن المنزل كان صغيرًا جدًّا وأنه هو شخصيًّا كان المستخدم الوحيد فيه الذي يعمل بدوام كامل. وحين سألته هل عمل في الماضي وفي إمرته هيئة كاملة من المستخدمين، ربما قبل الحرب، أجاب: «لا، فأنا لم أكن في تلك الأيام سوى خادم بسيط. ما كان لي أن أحصل على الخبرة اللازمة لكي أكون رئيسًا للخدم في تلك الأيام، في تلك الأيام بالذات. وأعتقد أنك ستندهش كثيرًا إذا علمت ماذا يعني العمل رئيسًا للخدم في تلك البيوت الكبيرة التي كانت موجودة في تلك الأيام».

هنا رأيت أن من المناسب أن أكشف عن هويتي، ومع أنني لست واثقًا إن كان «قصر دارلنغتون» قد عنى أي شيء له، فإن صاحبي بدا عليه الإعجاب. فقد قال ضاحكًا: «تصور؛ وأنا هنا أحاول أن أشرح لك الموضوع، كنت، إذن، صاحب عمل طيِّب قبل أن أكون أنا شيئًا. وهذا يبيِّن لك أنك لا تعرف أبدًا من الذي تخاطبه عندما تبدأ الكلام مع غريب. كان تحت إمرتك، إذن، عدد كبير من المستخدمين. أعني، قبل الحرب».

كان رجلًا مرحًا وظهر عليه الاهتمام الحقيقي، لذا أقرُّ بأنني قضيت بعض الوقت أقص له أخبار قصر دارلنغتون في الأيام الخالية. حاولت، في المقام الأول، أن أحدثه عن «الخبرة»، على حد قوله، التي تنطوي عليها إدارة المناسبات الكبرى من النوع الذي كان يقام في الغالب عندنا في القصر. بل أعتقد أنني تماديت حتى كشفت له عن عدد من «أسراري» المهنية التي ترمي إلى استدرار ذلك الجزء الإضافي من عمل المستخدمين مثلًا، فضلًا عن عدد آخر من «أحابيل خفة اليد» - التي تضاهي أعمال السحرة - يستطيع رئيس

الخدم بها أن يجعل الشيء يقع في وقته ومكانه الصحيحين تمامًا من دون أن يشعر الضيوف بما يجري من مناورة واسعة ومعقدة وراء العملية. وكما قلت، كان صاحبي مهتمًّا اهتمامًا صادقًا بما أقوله له، ولكني شعرت بعد حين أنني كشفت له ما فيه الكفاية، لذا انتهيت إلى القول: «الأمور، بالطبع، مختلفة تمامًا اليوم في ظل رب العمل الحالي. إنه سيد أمريكي».

«أمريكي، ها؟ أي نعم، فهم وحدهم الآن الذين يستطيعون تحمل الكُلفة. بقيت أنت، إذن، تخدم في المنزل. جزء من الصفقة».

استدار نحوي وكشَّر في وجهي.

قلت ضاحكًا: «نعم، جزء من الصفقة كما قلت».

أشاح الرجل بنظره واتجه يحدِّق بالبحر مجددًا وشهق شهيقًا عميقًا ثم زفره بارتياح. ثم جلسنا من دون كلام بعض الوقت.

قلت فيما بعد: «الحقيقة، بالطبع، هي أنني أعطيت أحسن ما عندي إلى اللورد دارلنغتون. أعطيته أحسن الحسن الذي كان عليَّ أن أعطيه، والآن - نعم - أجد أن ليس عندي الكثير ولم يبقَ لديَّ ما أعطيه».

لم يقل الرجل شيئًا ولكنه هزَّ رأسه فمضيت أقول: «منذ وصول مخدومي الجديد السيد فاراداي وأنا أحاول جاهدًا، وجاهدًا جدًّا، أن أقدم له الخدمة التي يرغب في أن أقدمها. حاولت وحاولت، ولكني مهما أفعل أجد نفسي لا أرقى إلى المستوى الذي كنت عليه فيما مضى. أخذت تظهر في عملي الأغلاط، الكثير من الأغلاط، وهي تافهة بذاتها - في الأقل حتى الآن. ولكنها من النوع الذي ما كنت أرتكبه في السابق أبدًا، وأنا أعرف ماذا تعني هذه الأغلاط. لقد حاولت وحاولت، الله وحده يعلم، ولكن من دون جدوى. أعطيت ما كان عليَّ أن أعطيه. أعطيته كله إلى اللورد دارلنغتون».

«خفِّف عنك يا صاحِ. هاك، أتريد منديلًا؟ عندي منديل في جيب ما. ها هو. خذ. إنه نظيف عمومًا. لم أتمخَّط فيه إلا مرة واحدة هذا الصباح، مرة واحدة فقط لا غير. هاك تمخَّط يا صاحِ».

«يا خيبتي، لا شكرًا، لا داعي. أنا آسف جدًّا، وأخشى أن السفر قد أتعبني. أنا آسف جدًّا».

«لا بد أنك كنت متعلقًا بهذا اللورد الفلاني. ثلاث سنوات منذ تُوفِّي تقول؟ يمكنني أن أرى أنك كنت متعلقًا به جدًّا».

«لم يكن اللورد دارلنغتون رجلًا سيئًا. لم يكن رجلًا سيئًا على الإطلاق وفي الأقل كان له الشرف أن يتمكن من أن يقول في نهاية حياته إنه قد ارتكب أخطاءه. كان فخامته رجلًا شجاعًا وقد اختار طريقًا بعينه في الحياة، واتضح أنه طريق الضلال، ولكنه هو الذي اختاره، ويستطيع أن يقول ذلك في الأقل. أما أنا فلا أستطيع أن أزعم حتى هذا. أنا كما ترى وثقت. وضعت ثقتي بحكمة فخامة اللورد. كنت أثق طوال تلك السنوات التي خدمته فيها أنني أقوم بعمل

ذي قيمة. وأنا لا أستطيع حتى الآن أن أقول إنني ارتكبت أخطائي. يجب على المرء، إذن، أن يسأل نفسه: أيُّ وقار في هذا؟ بل أي كرامة؟».

«اسمع الآن يا صاحِ، أنا لا أستطيع أن أقول إنني فهمت الكثير مما قلته، أما إذا سألتني، فموقفكَ خطأ في خطأ. لا تظل تنظر إلى الوراء طوال الوقت، فهذا يؤدي إلى الكآبة. نعم، صحيح، أنت لا تستطيع أن تقوم بعملك كما كنت تقوم به. ولكن هذا ينطبق علينا جميعًا. ألا ترى؟ علينا جميعًا أن نعفي أنفسنا من العمل يومًا ما. انظر إليَّ. فأنا منذ يوم تقاعدي سعيد كعصفور الحقول. صحيح، لا أنا ولا أنت في مقتبل شبابنا، ولكن عليك أن تنظر إلى الأمام دائمًا». وأعتقد أن الرجل قال عندئذ: «عليك أن تمتِّع نفسك. الأصيل هو أحسن أوقات النهار. لقد أديت عمل يومك. والآن يمكنك أن تتوقف عن العمل وتتمتع باليوم. هكذا أنظر أنا إلى المسألة. اسأل من تشاء، وستسمع الجواب نفسه. الأصيل هو أحسن أوقات النهار».

«أنا واثق من صحة ما تقول. وأنا آسف جدًّا. فوضعي هذا غير لائق. أظن أنني متعب فوق ما يجب. قمت بسفرة طويلة».

مضت عشرون دقيقة الآن منذ أن تركني الرجل، ولكني بقيت جالسًا على هذه المصطبة انتظارًا للحدث الذي وقع توًّا - وأعني إضاءة مصابيح الرصيف. وكما قلت فإن الحبور الذي أظهره طلاب المتعة المتجمعون على هذا الرصيف احتفاء بهذا الحدث البسيط يشهد بصحة ما قاله صاحبي؛ فالأصيل، بالنسبة لعدد كبير من الناس، هو الوقت الأكثر إمتاعًا في النهار، لعل هناك، إذن، شيئًا من الصحة في نصيحته بأن عليَّ أن أتوقف عن النظر إلى الخلف كثيرًا، وأن عليَّ أن أتبع نظرة أكثر إيجابية، وأحاول أن أنتفع إلى أقصى حد ببقايا نهاري. وعلى كل حال فما الذي يمكننا أن نجنيه من النظر إلى الخلف على الدوام، ومن ملامة النفس إذا ظهر أن حياتنا لم تأتِ تمامًا على الوجه الذي كنا نرجوه؟ والحقيقة هي، وإن شقَّ ذلك علينا، أن لا خيار لنا على نحو مؤكد، بالنسبة لأمثالنا أنا وأنت، إلا أن نترك مصيرنا في نهاية المطاف بأيدي أولئك السادة الكبار الذين هم في مركز حركة العالم، الذين يستأجرون خدماتنا. ما الداعي إلى أن يقلق المرء نفسه كثيرًا بشأن ما كان يمكنه أو لا يمكنه أن يفعل للسيطرة على سبيل حياته؟ وإنه ليكفي على نحو مؤكد أن أمثالنا، أنا وأنت، يحاولون في الأقل، وأكرر، يحاولون، أن يجعلوا إسهامنا البسيط ذا قيمة وأصالة. فإذا كان بعضنا مستعدًّا للتضحية بالكثير في الحياة من أجل السعي لمثل هذه المطامح، فإن هذا بذاته، بصرف النظر عن النتيجة، شيء يدعو، مؤكدًا، إلى الفخر ورضا النفس.

قبل بضع دقائق، وبعد إضاءة المصابيح بقليل، استدرت لحظة وأنا على المصطبة لكي أتأمل عن كثب هذه الحشود من الناس وهم يضحكون ويتحادثون. هنالك أناس من جميع الأعمار يتجولون في هذا الرصيف: أسر مع الصغار؛ أزواج من الشباب والمسنين، يسيرون ذراعًا بذراع. هناك مجموعة

من ستة أشخاص أو سبعة تجمعوا على مسافة قصيرة من خلفي وقد أثاروا اهتمامي قليلًا. افترضت في البداية بطبيعة الحال أنهم جمع من الأصدقاء خرجوا معًا لقضاء المساء. ولكن ما إن أصغيت إلى ما كانوا يتبادلون من كلام حتى اتضح لي أنهم غرباء وقد التقى بعضهم ببعض بمحض المصادفة هنا في هذا المكان خلفي. من البديهي أنهم كانوا ينتظرون إضاءة المصابيح، ثم باشروا بعد إضاءتها بتجاذب أطراف الحديث أحدهم مع الآخر. إنهم كما أراقبهم الآن يضحك بعضهم لبعض بقلوب تطفح بالمرح. من الغريب كيف يستطيع الناس أن يقيموا مثل هذه العلاقات الحميمة فيما بينهم بسرعة بالغة. ويُحتمل أن هؤلاء الناس بالذات إنما جمعهم انتظار المساء القادم. على أني أتصور كذلك أن تجمعهم له علاقة أوثق بهذه المهارة التي تُدعى بالمزاح. وإني إذ أصغي إليهم الآن أستطيع أن أسمعهم يتبادلون الفكاهات واحدة إثر أخرى. أظن أن هذه هي الطريقة التي يحب الناس أن يبادروا بها بالحديث. بل يُحتمل أن رفيق مصطبتي إلى وقت قريب توقع مني أن أمازحه - وأظنني كنت في هذه الحال مخيبًا للآمال بصورة مؤسفة. وربما قد آن الأوان حقًّا لكي أنظر إلى مسألة المزاح هذه بشكل أشد حماسة. فعلى كل حال، وحين يفكر المرء بالمسألة، يتضح أن ممارسة المزاح ليست من الحماقة في شيء - خاصة في الحالة التي يكون فيها المزاح بمثابة المفتاح لعلاقة إنسانية حميمة.

فضلًا عن هذا، خطر لي أن المزاح قد يكون واجبًا معقولًا يتوقع المخدوم من رجل من ذوي مهنتنا أن يؤديه. أنا بالطبع كنت قد كرست كثيرًا من وقتي لتطوير مهارات المزاح، غير أن من المحتمل أنني لم أقبِل على ذلك في السابق قَطُّ بالالتزام الذي كان ينبغي أن ألتزم به. فلعلي، إذن، حين أعود إلى قصر دارلنغتون غدًا، أبدأ تمريناتي بهمَّة متجددة، وخاصة أن السيد فاراداي لن يعود هو شخصيًّا إلا بعد أسبوع آخر. لذا أرجو أن أكون، عند عودة مخدومي، في وضع يدهشه دهشة تُدخل إلى قلبه المتعة والسرور.